

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190101

UNIVERSAL
LIBRARY

الشخصيات البارزة التشازنجية

بقلم
الحمد فيروز فاضل

الجزء الأول

الطبعة الأولى
١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م

يطلب من
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

لا يمتنع النشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء الكتاب

« أَيُّ شَبَابَنَا النَّاهِضِينَ :

« إِلَى قُدْسِيَّةٍ وَاجِبِكُمُ الْوَطَنِيَّ ، وَفَرَضِكُمُ الْقَوْمِيَّ ، وَقَلْبِكُمُ الْمِصْرِيَّ ،
يُهْدِي إِلَيْكُمْ شَرِيكَ لَكُمْ فِي أَعْبَاءِ هَذَا الْوَطَنِ وَأَرْزَائِهِ ، وَيُمْنِهِ وَعَنَايِهِ ،
أَثَرًا مِنْ عُسَارَةِ فُؤَادِهِ ، وَقَطْرَةً مِنْ مُتَّقَدِ دِمَائِهِ ، وَصُورَةً حَيَّةً مِنْ
أَعْمَالِ فَرِيقٍ مِنْ أَصْحَابِ الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ ، أُولَئِكَ الْأَوْفِيَاءِ لِأُوطَانِهِمْ ،
الْخَالِدُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ، الْمُؤَيَّدُونَ بِإِيمَانِهِمْ ، الْمُسْتَمْسِكُونَ بِمَبَادِيهِمْ ، الْوَضَاوُونَ
فِي حُرُوفٍ مِنْ نُورٍ وَفَخَارٍ لِحُسْنِ بَلَاءِهِمْ وَجَلِيلِ فَعَالِهِمْ .

« وَإِلَى أَرْوَاحِ زُعْمَاءِ مِصْرَ النَّاهِضَةِ « سَعْدٍ » « وَثُرُوتٍ » « وَرُشْدِيَّ »

اعْتِرَافًا بِمَا لَهُمْ فِي أَعْنَاقِنَا مِنْ دِينٍ عَظِيمٍ وَدَرْسٍ ثَمِينٍ وَفَضْلِ جَسِيمٍ ،
فَلِسَعْدٍ صَلَابَتُهُ وَإِبَاؤُهُ ، وَوَطَنِيَّتُهُ وَوَفَاؤُهُ ، وَحَزَامَتُهُ وَذَكَاءُهُ ،
وَنَصَفَتُهُ وَقِصَاؤُهُ . وَلِثُرُوتِ حُنُكَّتِهِ وَبَلَاؤُهُ ، وَلِبَاقَتِهِ وَدَهَاؤُهُ ،
وَدِقَّتِهِ وَغَنَاؤُهُ ، وَاتِّسَادِهِ وَمِضَاؤُهُ . وَلِرُشْدِيَّ تَضَحِيَّتِهِ وَنُكْرَانِهِ ،
وَتَوَاضُعِهِ وَإِيمَانِهِ ، وَعِلْمِهِ وَعِرْفَانِهِ ، وَحُجَّتِهِ وَبُرْهَانِهِ .

« وَإِلَى مَثَلِنَا الْأَعْلَى فِي التَّضَحِّيَةِ وَالْجِهَادِ ، وَقَائِدِنَا الْحَكِيمِ فِي الْكِفَاحِ وَالْجِلَادِ ، مَنْ تَبَوَّأَ حَبَاتِ الْقُلُوبِ وَعُصَارَةَ الْأَفئِدَةِ لِمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ بَدَاهَةِ رَجَاحَةٍ ، وَتَدَفُّقِ فَصَاحَةٍ ، وَجُرْأَةِ صَرَاحَةٍ ، فِي اسْتِجْمَامِ خَاطِرٍ ، وَمُرْهَفِ عَزْمَةٍ ، مَعَ قُوَّةِ جَازِيَّةٍ وَمُضْطَرَمِّ حَمَاسٍ ، وَإِخْلَاصِ صَبِيحِ اللَّهِ وَالْوَطَنِ وَالنَّاسِ ، فِي حَزَامَةِ وَسِيَّاسَةٍ ، وَحِكْمَةِ وَكِيَّاسَةٍ ، وَتَوَاضُعِ وَرِيَّاسَةٍ ، مَعَ وَرَعٍ وَتَقَى ، وَأَدَبٍ وَحِجْبِي ، حَضْرَةِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ الرَّئِيسِ الْأَمِينِ « مصطفى باشا النحاس » ، مَدَّ اللَّهُ فِي أَجَلِهِ الْعَالِي ، فَشَدَّ مَا يَحْتَاجُ الْوَطَنُ إِلَى سَيِّدِ جُهُودِهِ ، وَجَعَلْنَا فِي رِضَاءٍ وَاعْتِبَاطٍ الْفِدَاءَ الْمَقْبُولَ لِمَجِيدٍ وَجُودِهِ . »

« فَإِلَى هَؤُلَاءِ جَمِيعًا ، أُهْدِيَ هَذَا الْأَثَرُ الضَّئِيلُ ، فَهَمُّ عِلْمِ اللَّهِ وَالْحَقُّ وَالْوَاقِعُ ، كَعَبَّةِ آمَالِنَا ، وَمَوْئِلُ تَعَجُّدِنَا ، وَقُدُوةُ اخْتِدَائِنَا »

المؤلف

أحمد فريد رفاعي

القاهرة في ١٥ مارس سنة ١٩٣١



· مصطفى باشا النحاس



سعد باشا زغلول



حسین باشا رشدی



عبد الخالق باشا ثروت

مقدمة الكتاب

بقلم وزير الشباب المجاهد الكبير والعبرى النابه الأستاذ

مكرم عبيد

تَفَضَّلَ صديقُ المؤرِّخِ المحققِ الدكتور « أحمد فريد رفاعي » فَطَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أُمَهِّدَ لِكِتَابِهِ « الشخصيات البارزة » بكلمة . وإني إذ أقدمُ الكتابَ إلى جمهورِ القراء لا أدعى تقديمَ الكاتبِ إليهم ، ففي تعريفِ الناسِ بكاتبٍ معروفٍ تَصْغِيرٌ من شأنه ، كما أن الإشادةَ بفضله ، على صفحات كتابٍ من وَضَعِهِ ، قد تُشَوِّهُ من جمالِ التواضعِ في خُلُقِهِ ، وَجَمالِ البَسَاطَةِ في فنِّهِ !

الكتاب الضروري

هذا عن الكاتب ، أما الكتابُ فلا تَحْرُجْ ولا تَحْفَظْ لَدَيْنَا في الإشادةِ بِقِيَمَتِهِ ، بَلْ وَبِضَرُورَتِهِ ، وَلَعَلَّ خَيْرَ مَدِيحٍ يُرْجَى إِلَى كِتَابٍ هُوَ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ كِتَابٌ ضَرُورِيٌّ ، إِذْ لَا يَكْفِي فِي الْكِتَابِ أَنْ نَسْتَمِدَّ مِنْ فَصَاحَتِهِ مُتْعَةً ، أَوْ مِنْ دِرَاسَتِهِ فِكْرَةً ، بَلْ أَحْسَنُ الْكُتُبِ وَأَبْقَاهَا أَثَرًا هُوَ الَّذِي يَسُدُّ بِوُجُودِهِ حَاجَةً أَوْ ضَرُورَةً

ولاريب أن « كتاب الشخصيات البارزة » — وكل كتابٍ عَلَى نَمَطِهِ تَدْرَسُ فِيهِ الْحَيَاةُ فِي أَشْخَاصِ الْمُتَازِينَ مِنَ الْأَحْيَاءِ — إِنَّمَا هُوَ كِتَابٌ ضَرُورِيٌّ . بَلْ هُوَ الْأَزَمُّ مَا يَكُونُ لِأُمَّةٍ نَاشِئَةٍ كَأَمْتِنَا ، شَعَرَتْ بِكَامِنٍ شَخْصِيَّتِهَا ، فَمَا أَنْ شَعَرَتْ

بها حتى وَجَدَتْهَا ، وما أن وجدتْها حتى برزت بها ، فَعَلِمَتْ العالم أن يحترمها :
وكانت منذ فجر التاريخ قد عَلِمَتْ المجد أن يخدمها !

دراسة الشخصيات البارزة

والواقع أن لدراسة « الشخصيات البارزة » أَكْبَرَ الأثر في تَرْيِيَةِ الشخصية ولو أنها لا تنشأ ، فهي تُنَمِّي الشخصيات الناشئة ، وَتَبْرُزُ الشخصيات الكامنة ، ولذلك قُلْنَا أن هذه الدراسة ضرورية لِكُلِّ أمة ذات مَطْمَح في الوجود ، تَشْتَقُّ من شخصيات أبنائها شخصية لها ، وهي ضرورية لنا نحن المصريين من بابِ أَوَّلَى ، لأنَّ سِيرَ العظماء والبارزين لا تُدْرَسُ في مدارسنا إِلَّا بِطريقةٍ عَرَضِيَّةٍ ضَمِنَ دِرَاسَةَ التاريخ ، ومن المُحْزِنِ أننا ونحن أَغْنَى أُمَّةٍ في التاريخ نَدْرُسُ التاريخَ دراسةً جامِدةً لا رُوحَ فيها ولا حياة ، فتراهُ يُدْرَسُ في مدارسنا من ناحيةِ الحوادث ، لا من ناحيةِ الأحياء الذين يَنْفُخُونَ في الحوادث رُوحًا من رُوحهم

لذلك كانت غبطيني عظيمةً بهذه الخُطوة الأولى التي خطاها حضرةُ المؤلف المُفضَّل ، وهي خطوةٌ واسعةٌ ولا رَيْبَ ، لأنه ضَمِنَ كتابه بُحوثًا مُستَفِيضةً ، تدورُ كُلُّها حَوْلَ العَبْقَرِيَّةِ ، والبُطُولَةِ ، والعِصَامِيَّةِ ، والبرُّوزِ في الحياة ، وَضَرَبَ لهذه المعاني السامية أمثلةً عمليةً من سِيرِ العبقريين ، والعِصَامِيِّين ، والبارزين ، من أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب من خيرةِ عظماء الشرق والإنسانية جمعاء . « وبسمر ك » « وتوسان » « وبوكر وشنجتن » « وفورد » من أفذاذ الغرب فجمع في صعيدٍ واحدٍ شخصياتَ بَرَزَتْ في ميادينِ الحياةِ المختلفةِ ، من العلم ، إلى السياسة ، إلى الأدب ، إلى المال ، وكان في ذلك متمشيًا مع طبيعةِ العبقريَّةِ ، فهي واحدةٌ في جَوْهَرِها ، مهما تَعَدَّدَتْ مَظَاهِرُها .



ولیم مکرم عبید

ويا حبذا لو تَضَمَّنَتِ الأجزاء التالية من الكتاب تحليل الشخصيات البارزة
في مجتمعنا وفي تاريخنا المصري ، فتمُّ بذلك الفائدة للقارئ المصري ، بل وللقراء
على اختلاف أجناسهم ، فليس للعبقريّة وطن بل هي ملكٌ مُشاعٌ لبني الإنسان .



ما هي الشخصية

ولكن ما هي الشخصية البارزة التي عني هذا الكتاب بِسَرْدِ الأمثلة عليها ؟
وعلى الأصحَّ ما هي الشخصية مُجرّدة من كلِّ نعتٍ ، لأن الشخصية تستتبع
لبروز حتماً ، ولو أن مدى البروز ، أمرٌ نسبيٌّ يرجع إلى محض التقدير ؟
ما هي إذن الشخصية أو الـ Personality كما يسمونها ؟ وما هي عناصرُ
تكوينها ، وما هي أوضاعها ومقاييسها ؟

تلك مسائلٌ قد لا يتاحُ لباحثٍ أن يبلغَ أعماقها ، أو يُلمَّ بأطرافها ، وفي
اعتقادي أنّه ليس في متناولِ بشرٍ أن يحلّلَ الشَّخصيّةَ إلى عناصرِها الأولى ،
لأنَّ عِلَّةَ الشخصية ترجعُ إلى عِلَّةِ الوجود

ولكن إذا لم يكن في مقدورنا أن نعلّلَ ، ففي استطاعتنا أن نرى ونُسجّلَ ،
وإذا استعصى تحليلُ الجوهرِ ، فليس أقل من وصفِ المظهر

والواقعُ والمشاهدُ أن الشخصية تُولدُ مع صاحبها ولا تُكتسبُ ، . . . نعم إنَّ
التربية أو الحوادث الخارجية قد تبرزها وتنمّيها ، ولكن الطبيعة هي الأصلُ فيها .
« الشَّخصيّة » ، « البُطولة » ، « الزَّعامَة » ، « النُّبوغ » ، « العبقريّة » ،
« العظَمَة » ، — كلُّ هذه الصفاتِ على اختلافِ درجاتها مجهولةٌ ماهيتها ،
فهي سرٌّ إلهيٌّ مستودعُ أعماقِ النفوسِ ، مثلها مثلُ شعاعٍ من نورٍ ، تراه فيبهرك ،
فإذا حاولتَ إدراكَ كُنْهِهِ حَيَّرَكَ !

الزعامة والتزعم

كلُّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ يُقْبَلُ تَقْلِيدًا إِلَّا الشَّخْصِيَّةَ ، فَهِيَ تَوْجِدٌ وَلَا تُقَلَّدُ ،
وَفَوْقَ ذَلِكَ فَإِنَّ الشَّخْصِيَّةَ فِي أَبْسَطِ مَعَانِيهَا لَا تَكُونُ شَخْصِيَّةً إِذَا لَمْ تَكُنْ مِنْ
خِصَائِصِ الشَّخْصِ ، فَإِذَا حَاوَلَ شَخْصٌ أَنْ يُقَلَّدَ عَظِيمًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَظَمَةِ
إِلَّا التَّعَاضُطُ ، أَوْ أَنْ يَحَاكِيَ زَعِيمًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الزَّعَامَةِ إِلَّا التَّزَعُّمُ !
وَالزَّعَامَةُ وَالتَّزَعُّمُ شَيْئَانِ ، بَلْ وَضِدَانِ !

وَيَجْدُرُ بِنَا فِي هَذَا الصَّدَدِ أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ وَالْأَشْخَاصِ
الْبَارِزِينَ ، فَالْأَشْخَاصُ الْبَارِزُونَ قَدْ لَا يَكُونُونَ مِنْ ذَوَى الشَّخْصِيَّةِ ، وَإِنَّمَا بَرَزُوا
فِي الْحَيَاةِ بِفَضْلِ ظُرُوفٍ مُؤَاتِيَةٍ ، أَوْ حَوَادِثَ طَارِئَةٍ ، كَسِيَاسَةٍ ، أَوْ مَنْصَبٍ ،
أَوْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ — أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ لَا يَخْتَلِفُونَ عَنِ الْأَشْخَاصِ الْعَادِيَةِ إِلَّا أَنْ
ظَرَفًا مُؤَاتِيًا قَدْ ارْتَفَعَ بِهِمْ عَنِ الْمُسْتَوَى الْعَادِيِّ حِينَ فَبَرَزُوا إِلَى النَّاسِ بِمَنَاصِبِهِمْ
أَوْ بِجَاهِهِمْ ، فَإِذَا مَا زَالَ الْمَنْصَبُ أَوْ الْجَاهُ رَجَعُوا إِلَى حَيْثُ كَانُوا ، مِثْلُهُمْ مِثْلُ
الْفَقَاقِيعِ تَطْفُو عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ زَمَانًا ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ يَنْتَلِعَهَا الْغَمْرُ !

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَبْرُزُونَ بِالْمَنَاصِبِ وَلَا يَبْرُزُ بِهِمْ مَنْصَبٌ ، وَيَعْتَزُّونَ بِسُلْطَانِهِمْ
وَلَا يَعْتَزُّ بِهِمْ سُلْطَانٌ . . . أُولَئِكَ هُمُ ابْنَاءُ يَوْمِهِمْ ، لَا يَتَرُكُونَ فِي التَّارِيخِ
أَثْرًا ، وَلَا يَخْلُفُونَ لِلنَّسَابَةِ ذِكْرًا .

أَمَّا « الشَّخْصِيَّاتُ الْبَارِزَةُ » الَّتِي عَنَى هَذَا الْكِتَابُ الْقِيَمُ بِدِرَاسَةِ كَثِيرٍ مِنَ
النَّوَاحِي فِيهَا ، فَهِيَ وَخَدَهَا الْخَالِدَةُ عَلَى الدَّهْرِ ، وَهِيَ الْجَدِيرَةُ بِالدَّرْسِ وَالْإِعْتِبَارِ
لَأَنَّ فِي حَيَاةِ الْعُظَمَاءِ مِنْ بَنَى الْإِنْسَانَ الْمِثْلَ الْأَعْلَى لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ

مقدمة

بقلم الدكتور طه حسين

أيهما يُغرى بِصاحبه ، وَيَسْمى إليه ، وَيُلح عليه حتى يَضْطَرَّه إلى إطالة الوقوف عنده ، وإنعام العناية به والتفكير فيه . أهو الموضوع الأدبي ، أم هو الأديب ؟ وبعبارة واضحة جليّة قريّة إلى التعيين والتخصيص ، أيهما سعى إلى صاحبه وأغرى به . أهو موضوع هذا الكتاب قد سعى إلى المؤلف ، وما زال يلمُّ به إذا أصبح ، ويطرّقه إذا أمسى ، حتى اضْطَرَّه إلى أن ينظر فيه ثم يدرسه ، ثم يتمثله ، ثم يتخذه موضوعاً لهذا الكتاب ؟ أم هو المؤلف قد بحثَ وفَتَّشَ والتمسَ ونَقَّبَ وأخذ يسأل الكتب والأسفار ، ويستشير الحوادث والخطوب عن موضوع يُنفق في تصوّره ثم تصوّيره فضل ما عنده من قوّة ونشاط ووقت وفراغ بال . ألق على المؤلف نفسه هذا السؤال ، فلن تظفر منه بجواب ، لأنه لا يعرف ، أطارق الموضوع ، أم طرّقه الموضوع ؟ وأكبر الظن أن كلا من الكاتب والكتاب قد سعى إلى صاحبه وابتغى إليه الوسيلة ، والتمس إليه الأسباب .

فأما الشخصيات البارزة ، فهي تسعى إلى الناس جميعاً وتكلف بهم جميعاً وتعرض لهم جميعاً ، وتفرض نفسها عليهم فرضاً . فيها من القوّة والكفاية والخصب والنشاط ما يُخرجها عن أنفسها ، ويعدو بها أطوارها ويتجاوز بها يثاتها وأجيالها وأزمانها ويشيعها في كلّ البيئات ويجعلها مثلاً لكلّ الأجيال

وَزِينَةً لِكُلِّ الْأَزْمَانِ . فِيهِ إِذْنٌ تَتَرَاءَى لَنَا كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهَا الْفُرْصَةُ أَنْ تَظْهَرَ ،
وَكُلَّمَا سَنَحَتْ لَنَا الْفُرْصَةُ أَنْ نَرَى . هَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ مُمْتَازَةٌ بِالشَّجَاعَةِ ، فِي
تَتَرَاءَى لِلشُّجْعَانِ جَمِيعًا ، وَلَعَلَّهَا تَتَرَاءَى لِلْجُبْنَاءِ أَيْضًا . وَهَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ تَمْتَازُ
بِالذِّكَاءِ فِي تَتَرَاءَى لِلْأَذْكِيَاءِ ، وَلَعَلَّهَا تَتَرَاءَى لِلْأَغْيِيَاءِ أَيْضًا . وَهَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ
مُمْتَازَةٌ بِالرَّحْمَةِ وَالْبِرِّ وَالْعَطْفِ عَلَى الْبَائِسِينَ فِي تَتَرَاءَى لِلرُّثَمَاءِ الْأَبْرَارِ ،
وَلَعَلَّهَا تَتَرَاءَى لِلْقُسَاةِ وَغُلَاطِ الْقُلُوبِ . تَخْتَلِفُ الْبَيْثَاتُ ، وَتَتَبَايَنُ الْأَجْيَالُ ،
وَتَتَبَاعَدُ الْأَزْمِنَةُ ، وَشَخْصِيَّةُ الْإِسْكَانْدَرِ ، وَقَيْصَرِ ، وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ مُشْرِقَةٌ
كَالشَّمْسِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ سُبُلَ الْحَرْبِ وَالسِّيَاسَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِصْلَاحِ .

فَلَيْسَ مِنْ كَاتِبٍ يَتَنَاوَلُ الشَّخْصِيَّاتُ الْبَارِزَةَ إِلَّا وَقَدْ سَعَتْ إِلَيْهِ هَذِهِ
الشَّخْصِيَّاتُ وَفَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ ، وَاضْطَرَّتْهُ إِلَى أَنْ يُطِيلَ الْحَدِيثَ إِلَيْهَا ،
ثُمَّ يُطِيلَ الْحَدِيثَ عَنْهَا . وَأَمَّا صَدِيقُنَا فَرِيدٌ ، فَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّهُ قَدْ سَعَى
إِلَى مَوْضُوعِهِ سَعْيًا ، وَعَدَا إِلَيْهِ عَدْوًا ، وَمَا زَالَ هُوَ يَسْعَى إِلَى مَوْضُوعِهِ ،
وَمَوْضُوعُهُ يَسْعَى إِلَيْهِ حَتَّى التَّقِيَا فَتَعَارَفَا ، ثُمَّ اتَّخَلَفَا ، ثُمَّ امْتَزَجَا ، ثُمَّ نَشَأَ مِنْ
امْتِزَاجِهِمَا هَذَا السَّفَرُ الصَّغِيرُ الْمُتَمِّعُ الَّذِي يَسُرُّنِي أَنْ أَقْدِمَهُ إِلَى الْقُرَاءِ .

فَصَدِيقُنَا فَرِيدٌ ، كَمَا عَرَفْتُهُ مِنْذُ أَكْثَرِ مِنْ عَشْرِينَ عَامًا ، طَلَعَتْ كَثِيرُ
الْبَحْثِ وَالتَّقْيِبِ ، مَشْغُوفٌ بِالْقِرَاءَةِ ، يُنْفِقُ فِيهَا أَوْقَاتَ فَرَاغِهِ كُلِّهَا ، وَيَخْتَلِسُ
لَهَا مِنْ أَوْقَاتِ عَمَلِهِ الْخَاصِّ مَا وَجَدَ إِلَى اخْتِلَاسِهِ سَبِيلًا . وَلَقَدْ تَبَلَّغُ بِهِ الْفِئْتَةُ
بِالْقِرَاءَةِ وَالرَّغْبَةِ فِيهَا أَنْ يَأْرَقَ لَهَا اللَّيْلُ وَاللَّيَالَى فَيَحْسِبُ نَفْسَهُ مَرِيضًا ، وَمَا هُوَ
بِالْمَرِيضِ ، وَإِنَّمَا هُوَ حُبُّ الْقِرَاءَةِ مَلَكَ عَلَيْهِ أَغْصَابُهُ وَمَزَاجُهُ ، وَخِيَلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ
مُسْتَعَبٌّ ، وَأَنَّهُ ضَيِّقُ الصَّدْرِ مُحْزُونُ الْقَلْبِ ، وَأَنَّهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَنْ يُسَلَّى عَنْ

نَفْسِهِ هَمًّا ، وَيُجَلِّي عَنْهَا كَرْبَهَا . وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْوَنُ عَلَى تَسْلِيَةِ الْهَمِّ وَتَجْلِيَةِ الْكَرْبِ مِنْ اصْطِحَابِ الْكِتَابِ . وَمَنْ يَدْرِي لَعَلَّ صَدِيقَنَا أَنْ يَكُونَ مَرِيضًا حَقًّا ، وَأَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ الْمُضْنِيَّةُ ، إِنَّمَا هِيَ حُبُّ الْكِتَابِ . وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ ، فَصَدِيقُنَا يُطِيلُ صُحْبَةَ الْكِتَابِ ، وَيَتَنَقَّلُ بَيْنَهَا تَنَقُّلاً غَرِيبًا ، وَيَشْفُفُ مِنْهَا بِمَا يُشِيرُ الْعَجَبَ ، وَيَدْعُو إِلَى التَّفْكِيرِ ، وَاسْتِخْرَاجِ الْمَوْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ ، وَيَشْفُفُهُ مِنْهَا بِنَوْعٍ خَاصٍّ مَا يَدْعُوهُ إِلَى التَّفْكِيرِ فِي حَيَاتِهِ وَفِي حَيَاةِ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ ، وَفِي الظُّرُوفِ الَّتِي تَحِيطُ بِهِ وَبِمَعَايِرِهِ .

وَالشَّخْصِيَّاتُ الْبَارِزَةُ فِي عُصُورِ التَّارِيخِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، أَشَدُّهَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ مَلَأَمَةً . وَأَحْسَنُهَا مُوَافَقَةً لِهَذَا الْمِزَاجِ ، وَلِهَذَا انْتَحَوَ مِنْ حُبِّ الاسْتِطْلَاعِ . لِهَذَا عَرَفْتُ صَدِيقَنَا فَرِيدًا ، مِنْذَ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً ، شَابًّا نَشِيطًا ذَكِيًّا كَلِّفَا بِقِرَاءَةِ مَا كُتِبَ عَنْ حَيَاةِ الرِّجَالِ عَلَى اخْتِلَافِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَأَنْحَاهَا . وَمَا كُتِبَ عَنْ حَيَاةِ الْأَبْطَالِ خَاصَّةً . وَإِذَا لَمْ تَكْذِبْنِي الذَّاكِرَةُ ، فَقَدْ كَانَ كِتَابُ كَارَلَيْلٍ . مِنْ أَشَدِّ الْكِتَابِ تَأْثِيرًا فِي نَفْسِهِ النَّاشِئَةِ الطَّامِحَةِ إِلَى الرِّقَى وَالْكَمَالِ .

ثُمَّ تَرَكْتُهُ فِي الْقَاهِرَةِ ، وَذَهَبْتُ إِلَى فَرَنْسَا ، فَأَقَمْتُ فِيهَا خَمْسَةَ أَغْوَامٍ ، وَانْقَطَعْتُ أَوْ كَادَتْ تَنْقَطِعُ عَنِّي أَنْبَاؤُهُ ، فَمَا عُذْتُ إِلَى مِصْرَ رَأَيْتُهُ كَمَا تَرَكْتُهُ مَشْغُوفًا بِالْقِرَاءَةِ ، وَبِقِرَاءَةِ مَا يُكْتَبُ عَنْ حَيَاةِ الْعُظَمَاءِ ، وَلَكِنْ الْأَمَدُ كَانَ قَدْ بَعُدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَارَلَيْلٍ ، وَكِتَابُ كَارَلَيْلٍ ، وَإِذَا هُوَ يَلْتَمِسُ حَيَاةَ الْعُظَمَاءِ فِي كُلِّ كِتَابٍ ، وَيَبْحَثُ عَنْهَا فِي كُلِّ جِيلٍ . يَقْرَأُ مَا كَتَبَهُ الْقُدَمَاءُ ، وَمَا كَتَبَهُ

المحدثون عن عظماء اليونان والرومان والعرب ، وزعماء التفكير والعمل في العصر الحديث .

يقرأ ذلك ويتحدث به ، ويُطيل الحديث حتى يُخيل إلى الذين يلقونه ويسمعون له أنه قاص يتنقل بالقصص ، أو مؤرخ يتنقل بالتاريخ . وكان الطريف من أمره ، أنه لم يكن يُخلص للقصص ولا للتاريخ ، وإنما كان يبدأ الحديث في قصة ، أو نبأ من الأنباء ، ثم لا يلبث أن يستطرد منه إلى ما يقع في حياتنا من الأحداث والخطوب ، فيقارن ويوازن ، ويلتمس أوجه الشبه فيما يروى وما يرى . ثم يعود إلى قصته أو نبأه ، ثم ينتقل منها إلى قصة أخرى أو نبأ آخر ، ثم يعود إلى ما نحن فيه من حياة ، ثم يتركك وقد غناك وأضناك وأثار في رأسك شيئاً يشبه الدوار لكثرة ما دار بك في سرعة مذهشة بين الماضي والحاضر والمستقبل ، ولكثرة ما روى لك من الأحداث ، واستخرج لك من العبر ، واستنبط لك من فنون التشبيه فيما كان وما هو كائن وما لا بد من أن يكون .

وكذلك امتلأت نفس صديقنا بهذه الشخصيات البارزة في جميع العصور والبيئات ، فلم أدهش حين أقبل على ذات يوم يحمل إلى كتابه هذا الذي يتحدث فيه عن بعض الشخصيات البارزة ، وإنما دهشت لأنه انتظر هذا العصر الطويل قبل أن يخرج هذا الكتاب ، وكتباً كثيرة أخرى تشبه هذا الكتاب . فهو قد خلق للحديث عن مثل هذه الموضوعات اجتمعت له أدوات هذا الحديث ، ومنح من الملكات ما يمكنه من أن يملك ناصيته ، ويصرفه كما يحب ويهوى . ولكنك تخطئ إن التمت عند صاحبنا بحثاً موضوعياً كما

يقولون عن هؤلاء الأشخاص الذين يكتبُ فيهم ، أو يتحدَّثُ عنهم . فصاحبنا مُغرقٌ أشدَّ الإغراقِ فيما يُسمونه الإنشاءَ الذاتي . هو شديدُ التأثيرِ بما يقرأ ، يَتمثِّلُهُ أحسنَ التمثيلِ ، ويمزجُه بنفسه أشدَّ المزجِ . فإذا أراد تصويره في كتاب ، صَوَّرَهُ مَشُوبًا بِمَيُولِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَذَوْقِهِ ، أو صَوَّرَ نَفْسَهُ مَشُوبَةً بِمَيُولِ الشَّخْصِ الَّذِي يَكْتُبُ عَنْهُ وَعَوَاطِفِهِ وَذَوْقِهِ . فأنت ترى الشَّخْصِيَّةَ البارِزَةَ ، ولكنك تَرى فيها فَرِيدًا ، وأنت تَرى فَرِيدًا ، ولكنك تَرى فيه شَخْصِيَّةً بارِزَةً من هذه الشخصيات .

وهذا النَّحْوُ من الغِناءِ المنشور قد لا يُعجِبُ العُلمَاءَ العاكفين على البَحْثِ العِلْمِيِّ الخالِصِ ، الذين يُنْكِرُونَ أَنْفُسَهُمْ أَشَدَّ الإنكارِ ، ويحوِّلونَهَا إلى أدواتٍ للبحثِ والنَّقدِ والتحليلِ ، ولكنه من أشدِّ أنواعِ الأدبِ ملائمةً لحاجاتِ الجماهيرِ ونُفُوسِ الشَّبابِ ، لأنَّه قَوِيٌّ غَنِيٌّ خَصْبٌ فَيَاضٌ دَائِمًا بالقُوَّةِ والحَيَاةِ . وصدَّقنا فريدَ خَطِيبٍ في هذا الكتابِ من أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ تَمَلِّكُهُ قُوَّةُ الخُطَابَةِ حتَّى يَنْسَ كُلَّ النِّسيانِ أَنَّهُ يَتحدَّثُ إِلَيْكَ مِنْ طَرِيقِ القَلَمِ والصَّحِيفَةِ . وإذا هو يُخَاطِبُكَ وَيُنَاجِيكَ وَيَهَيِّبُ بِكَ كَأَنَّهُ يَتحدَّثُ إِلَيْكَ فِي اجْتِمَاعٍ مِنْ هَذِهِ الإِجْتِمَاعَاتِ الَّتِي يَتحدَّثُ فِيهَا الخُطباءُ إِلَى الجماهيرِ . وهو مُندَفِعٌ فِي حَدِيثِهِ ، تَمَلُّ الخَوَاطِرُ نَفْسَهُ ، وَتَعْمُرُ قَلَمَهُ ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ ، بَلْ تَعْمُرُ لِسَانَهُ وَتَنقَادُ لَهُ الأَلْفَاظُ انْقِيَادًا غَرِيبًا ، بَلْ قُلْ تَنْهَالُ عَلَيْهِ الأَلْفَاظُ انْهِيَالًا غَرِيبًا ، فَلَا تُمَكِّنُهُ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ فِيهَا وَيَتَخَيَّرَ مِنْهَا ، وَإِنَّمَا تَنْظُرُ هِيَ فِي نَفْسِهَا وَتَتَخَيَّرُ هِيَ مِنْ نَفْسِهَا ، وَكَأَنَّ خَوَاطِرَهُ تَقْوَى وَتَشْتَدُّ وَتَغْلُو فِي القُوَّةِ والشَّدَةِ حتَّى تَتَّخِذَ صَاحِبَهَا واسِطَةً بَيْنَهَا وَبَيْنَ القُرَّاءِ والسَّامِعِينَ . وَإِذَا هِيَ تُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِهَا بِنَفْسِهَا ، وَتُخْتَارُ مَا يُلَاقِيهَا مِنَ الأَلْفَاظِ .

وقد أرادت الظُّرُوفُ المُوَاطِّئَةَ لصَدِيقِنَا إِلَّا تَكُونُ ثُرُوتُهُ اللَّفْظِيَّةُ أَقَلَّ مِنْ ثُرُوتِهِ
 الْمَعْنَوِيَّةِ . وَإِلَّا يَكُونُ تَأَثُّرُهُ بِالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ ، أَقَلَّ مِنْ تَأَثُّرِهِ بِالْأَدَبِ
 الْعَرَبِيِّ الْحَدِيثِ ، وَأَنْ تَكُونُ فُضُولُهُ لَذَلِكَ مَظْهَرًا غَرِيبًا طَرِيبًا لِهَذَا الْمِزَاجِ
 الْأَدَبِيِّ الْحَدِيثِ الَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ الْإِتِّلَافُ بَيْنَ الْجَاحِظِ وَمَا كَوَّلَى . وَيَعَذُّبُ
 فِيهِ الْاسْتِمَاعُ لِحَوَاطِرِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ لِلْمَسِيحِ فِي لُغَةِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ لِلْهَجْرَةِ ،
 دُونَ أَنْ يَشْعُرَ الْقَارِئُ مَعَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْوَحْشَةِ أَوْ الْأَضْطِرَابِ قَلِيلٌ أَوْ كَثِيرٌ
 لِأَنَّ الْكَاتِبَ حَيٌّ قَوِيٌّ الْحَيَاةِ يَكَادُ يُسْرِفُ فِي قُوَّةِ الْحَيَاةِ حِينَ يَكْتُبُ أَوْ يَقُولُ ،
 وَإِنِّي لَوَاثِقٌ أَشَدَّ الثَّقَةِ بِأَنَّ هَذَا الْكِتَابَ سَيَكُونُ بَيْنَ الْكُتُبِ الْقَلِيلَةِ جَدًّا الَّتِي
 ظَهَرَتْ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، فَظَفَرَتْ بِرِضَى الْقُرَّاءِ وَإِعْجَابِ الشَّبَابِ . وَاثِقٌ بِأَنَّ
 الشَّبَابَ سَيَرَوْنَ فِيهِ أَنْفُسَهُمْ وَمُيُوتَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَأَمَالَهُمْ وَمُثْلَهُمُ الْعُلِيَّا جَلِيَّةً أَشَدَّ
 الْجَلَاءِ ، وَاضِحَةً أَنْصَعَ الْوُضُوحِ . وَإِذَا كَانَ لِي أَنْ أَتَمَنَّى لِصَدِيقِنَا وَلِشَبَابِنَا شَيْئًا
 فَهُوَ أَنْ يَمْضِيَ فَرِيدٌ فِي أَنْ يُخْرِجَ وَأَنْ يَمْضِيَ الشَّبَابُ فِي أَنْ يَقْرَأُوا أَمْثَالَ
 هَذَا الْكِتَابِ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رُسُلِهِ أَجْمَعِينَ ، والابتهاالُ إليه
جَلَّتْ قَدْرَتُهُ أَنْ يُوَفِّقَنَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَأَنْ يُحِبَّوْنَا تَعَالَى بِالْعَقْلِ السَّلِيمِ ،
لِلْإِسْتِفَادَةِ مِنْ كُلِّ أَثَرٍ قَوِيمٍ ، وَأَنْ يُعَمِّرَ قُلُوبَنَا بِقَبَسٍ مِنْ نَوْرِ إِيْمَانِهِ ، وَجَذْوَةٍ
مِنْ مُتَوَهِّجِ عِرْفَانِهِ ، وَصَقْلٍ مِنْ هُدَى قِرَآنِهِ

« أما بعد » فَشَدَّ مَا يَحْتَاجُ الشَّرْقُ عَامَةً ، وَمِصْرُنَا خَاصَةً إِلَى صَفَحَاتٍ
عَنِ الزَّعَامَةِ وَالزَّعْمَاءِ ، وَالْعِصَامِيِّينَ وَالنُّبَغَاءِ ، وَالْعَبَاقِرَةِ وَالنُّبَهَاءِ ، لَتَزِيدَ مِنْ ثَرَوَتِنَا
فِي الثَّقَافَةِ الْعَامَةِ ، وَلِتُفَتِّقَ أَذْهَانَ شُبَّانِنَا ، حَادِيَةً بِهِمْ إِلَى مَحَجَّةِ الصَّوَابِ ، وَسِدْرَةِ
السَّدَادِ ، وَلِتُدْفَعَ بِحِمَاسِهِمْ فِي تَعْقِلٍ وَأَنَاةٍ ، وَفِي تَرْوِيَةٍ وَقُوَّةٍ حِصَاةٍ ، إِلَى الْعَمَلِ
الْجِدِّيِّ الرَّائِعِ ، فِي الطَّرِيقِ الْمُبْعَدِ النَّافِعِ .

حَاشَى أَنْ أَزْعِمَ أَنَّ هَذِهِ السَّلْسَلَةَ الَّتِي أَنْتَوَيْنَا إِصْدَارَهَا بِهِمَّةِ صَدِيقِ الْأَدِيبِينَ
شَفِيقِ وَادَارِ مَتْرَى صَاحِبِي مَكْتَبَةِ « الْمَعَارِفِ » الزَّاهِرَةِ سَتُسُدُّ فَرَاغًا يُؤْثِرُهُ لَهُ فِي
هَذِهِ النَّاحِيَةِ مِنَ الدُّرْيَةِ السِّيَاسِيَةِ فِي الثَّقَافَةِ الْعَامَةِ . وَإِنَّمَا أَرْجُو فِي غَيْرِ صَلَفٍ
وَلَا إِدْعَاءٍ أَنْ يَكُونَ مِنْ وَرَاءِ عَمَلِنَا إِذَا مَا صَادَفْنَا إِقْبَالًا وَتَشَجُّعًا مِنْ جَمْعَةٍ

القارئین ، وكرام الناقدین ، إتاحة الفرصة المواتية في وضع لبننة متواضعة من زميل متواضع في هذا الباب الجديد . باب التريية السياسية . باب التريية الاستقلالية . باب التريية الذاتية . باب التريية العاصمية .

أن وجهتنا في الاستفادة من التاريخ الإنساني ، أو من فلسفة التاريخ الإنساني ، يجب أن تكيف تكيفاً يتفق والوجهات الجديدة المستحدثة في الجيل الذي نعيش فيه ، فلا نستمر في حفيانا بما شجنت به في قليل جدوى كتب التاريخ من حروب وملاحم ، ووقائع وأهوال ، وتناحر ملوك وأكاسرة ، وتقاتل أقيال وقياصرة . ونصب وتمثيل ، وهياكل وتهاويل ، بل قين بنا وخلق أن نولي وجوهنا شطر العقول وما تنتج من ابتكار في أثر ابتكار ، وإلى تطورات الأفكار وما تلد من ابداع تلو ابداع ، واختراع بعد اختراع . قين بنا وخلق أن نحفل أيما حفيل بالناحية الخلقية كيف تكون ، وإلى العزيمة الماضية كيف تتجلى وتظهر ، وإلى الشخصية الذاتية كيف تشق طريقها محتاجة ما يعتورها من عقاب وصعاب . قين بنا وخلق أن نأبه كل الابه بدراسة سر العظمة ، وسر النجاح ، وسر التبريز ، وأن نهتم في تصميم وصادق رغبة بالمقومات الخلقية ، والنواحي الباطنية في الفردية الانسانية من ناحية ذكواتها وأصالتها ، وهديها وسدادها ، وأثارها ومُنتجاتها ، وفوزها وفلجها . قين بنا وخلق أن ندرس العقل الانساني ولباب التاريخ الانساني . قين بنا وخلق أن ندرس الشخصيات البارزة في كل نواحيها المتباينة من وطنية ، وسياسية ، واقتصادية ، وعمرانية ، واجتماعية

والآن فلست أرجو أكثر من أن يقرأ شباننا هذه الشخصيات البارزة، في إنعام وإفادة، وفي تدقيق وتحقيق، غير غافل عن أن أرتهن مع حضرتي ناشري هذا الكتاب من مضينا قُدماً لا نلوى على شيء، بمنه وتوفيقه، حتى تم اخراج هذه السلسلة شاكرًا للأستاذين الجليلين «مكرم عبيد» و «طه حسين» فضلهما الكبير، معتذراً عما قد وقع مني من عجز وتقصير، آملاً من زملائي الحسنى وزيادة...

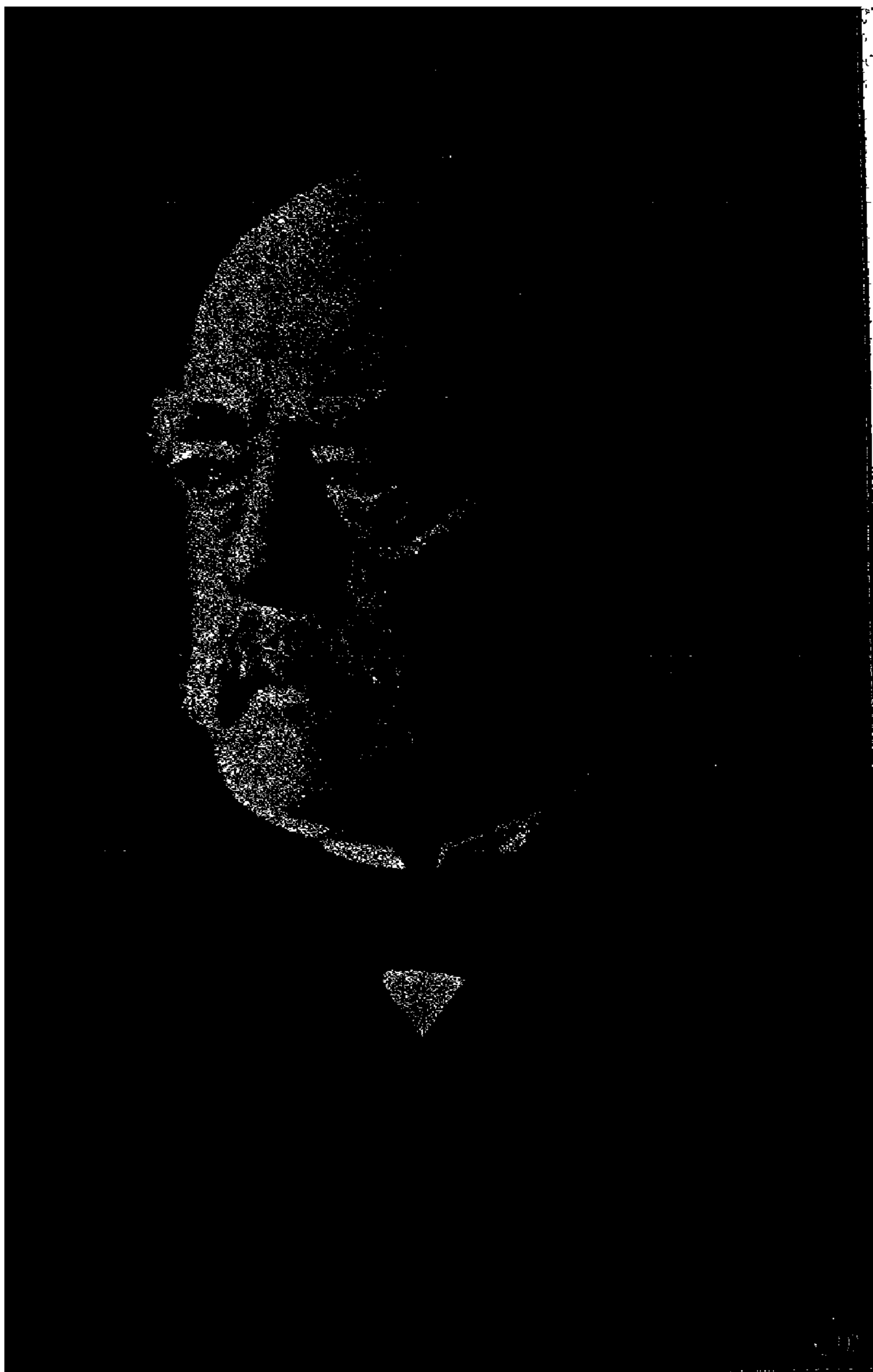
ولنا في عون الله أولاً وآخراً، وفي تشجيع الناطقين بالضاد، وصفح الناقلين والكاتبين، الذخيرة والعدة إن شاء الله. فاللهم هب لنا من لدنك رحمةً، وهبي لنا من أمرنا رشداً

أحمد فريد رفاعي

دار المأمون
في أول يولية سنة ١٩٣٣

فهرست

الموضوع	الصفحة
اعداء الكتاب	ج
مقدمة الكتاب بقلم وزير الشباب الاستاذ الكبير مكرم عبيد	ط ...
مقدمة عميد كلية الآداب سابقاً الدكتور طه حسين	س ...
مقدمة المؤلف	ش
بسمارك	١ — ١٧
توسان الفاتح	١٨ — ٣٠
ادوار بوك الهولندى	٣١ — ٥٣
الامريكى فرانك ولوورث	٥٤ — ٦٤
بوكر وشنجتون	٦٥ — ٨٤
هنرى فورد	٨٥ — ١٢٩
ابراهيم لنكولن	١٣٠ — ١٥٤
أبو بكر الصديق	١٥٥ — ١٨٢
عمر بن الخطاب	١٨٣ — ٢١٥



بسمارك

مول زعيم سياسى أنشأ إمبراطورية متحدة

بسمارك

« ان القرن التاسع عشر كان مناصفة بين نابليون وبين بسمارك :
لأولها نصفه الأول ، ولثانيهما نصفه الثانى » بلويتز

وشد ما نحتاج — أعزك الله ووفقك إلى ما يفيد وينفع — إلى الثقافة السياسية
فى نهضتنا الحاضرة . تلك النهضة القوية فى أسسها ونظمها ، لأنها عن إيمان وعقيدة
إلا أن الثقافة السياسية بطيئة بطبيعتها ، ثم هى لا تأتى غالباً إلا متأخرة . وربما
كان من الحق أن تقول : إنها لا تُثمر ولا تُجدى إلا اذا أتت على هذا النحو
من البطء والتأخير شيئاً فشيئاً لا دفعة واحدة .

نريد أن تقول : إن النهضات العلمية والصناعية والاقتصادية ، وما يصحبها
من الثقافات الملبسة لها ، تعمل متأزرة متساندة على إيجاد الثروة والرفاهية ،
وانه اذا أثرى الشعب وتقلب فى مجبوحة الغنى وأعطاف الرفاهية اتجهت ميوله
إلى الأدبيات ، ومن ثمة إلى السياسيات .

وقد يبدأ شعبٌ فيهم زعماءه بالسياسيات وهو فقيرٌ فى حياته الاقتصادية
والصناعية . فقيرٌ فى حياته العلمية والأدبية . وقد لا ينجح فى الغالب . وربما ينجح
لاعتبارات خارجية لا فى عنصره ، ولا فى داخلته ، مما لا نعرض لبحثه هنا . وإنما
قصارى ما نرمى إليه أن الثقافة السياسية بطبيعتها هى نتاجٌ للثقافات الأخرى ،
وأنها لهذا بطيئة فى نشأتها ومتأخرة فى ظهورها .

ولسنا هنا فى مقام شرح الثقافة السياسية وماهيتها . وجل ما نريد قوله :
إن الاطلاع على مجمل تاريخ أقطاب السياسة العالمية ناحية من شتى نواحي الثقافة

السياسية . بل نذهب إلى أبعد من هذا فنزعم لك أن الاطلاع على تاريخ أقطاب السياسة العالمية من أهم مقومات الثقافة السياسية .

وربما لم تبالغ كثيراً جماعة أنصار « اليوجرافيات » في تصويرها بأن دراسة مؤلفاتها أكثر إنتاجاً من الوقوف على القوانين الدولية ، والتواريخ الدستورية ، والنظريات الدبلوماسية .

وربما كانوا على حق غير قليل فيما يذهبون اليه . وإنك ستؤمن بذلك حينما تقف بنفسك على مجمل تاريخ حياة بعضهم ، وهو ما سنعالجه لك بإيجاز في بضع صفحات من هذا الكتاب .

والآن سنتحدث إليك عن شخصية عظيمة من تلك الشخصيات الكبيرة التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ العالم ، فكوّنت دولة قوية وأطاحت بامبراطورية عظيمة . كوّنت الوحدة الألمانية ثم كسرت شوكة الأمبراطورية الفرنسية

هي شخصية عظيمة بلا ريب ، ولم يغفل المسيو بلويتزا أحد مكاتبي التيمس في باريز أيام « اوتوادوارد ليوبولد فون بسمارك » وهو ما نعينه وندرسه في هذه الصفحات الآن ، كما لم يعد الحق والواقع حينما قال عنه مامعناه : إن القرن التاسع عشر كان مناصفةً بين نابليون وبين بسمارك لأولهما نصفه الأول ، ولثانيهما نصفه الثاني . أما بقية رجال العصر من أبطال وكتاب وساسة وفلاسفة وصناع وعلماء فلك أن تجمعهم في كتيبة واحدة . ولك أن تكتب عليها بحروف التاريخ البارزة القوية اسم « نابليون » واسم نِدّه « بسمارك »

مولده ونشأته

ولد « اوتوادوارد ليوبولد فون بسمارك » في أول أبريل عام ١٨١٥ ميلادية من بيت كريم المَحْتَد طيّب الأرومة ، نال جلُّ أفراده وسُلالتِه مراكز سامية في المملكة

البروسية ، واشتهروا بعد الهمة وسعة المدارك ونبالة الصيت . فوالده من كبار الضباط بفرقة الخيالة بالجيش البروسى ، ووالدته كريمة سياسية كبرى مشهود لها بالورع والتقوى مع الحرية فى التفكير والاستقلال فى الرأى ، كما اتصفت بثقوب النظر وصحة الحكم والزكاة والفراسة . ويصح لنا أن نقول : إن « بسمارك » قد ورث ما اتصف به من النجدة والشجاعة من والده ، كما يصح لنا أن نعزى ما اتصف به بسمارك من النعومة السياسية والفراسة والجلد على الاضطلاع بتكاليف الحياة الى والدته ، فهى التى لاحظت فيه منذ ميعة صباه وطفولته نزوعه الى السياسات وما يتعلق بالسياسيات . فرأت ألا يُحرم من تعلم الفرنسية والانجليزية ، وقد أحسن استغلال ذلك فى مطالعة أحسن التواليف الموضوعة فيهما ولا سيما الإنجليزية التى كان كثير الميل الى التكلم بها .

أما عن مجمل حياته التعليمية فقد ذكر « اميل لدوج » وغيره ممن تصدى للكتابة عن حياة ذلك السياسى الكبير شيئاً غير قليل عن حالته فى أثناء سنى دراسته . لقد تلقى دروسه الأولية فى مدرسة خاصة ببرلين ثم انتقل منها الى « الجمناريم » . ولما بلغ من العمر سبعة عشر عاماً التحق بجامعة « جوتينجن » وبقي فيها أكثر من سنة . ثم انتقل بعد ذلك الى برلين وأتم فيها دروسه العالية عام ١٨٣٥ ونال الإجازة التى تبيح له الاشتغال بالأمر العامة .

وقد ذكر مؤرخو حياته شيئاً كثيراً عن ميله الى الصيد والقنص ، ونسبوا اليه ما شب عليه من صفات الشهامة وأقتحام المخاطر ، كما ذكروا شيئاً عن نزوعه الى مُعاقرة الخمر والى المبارزة ومُقارعة الإخوان فى أثناء سنى دراسته . وقد قيل : إنه لما كان فى الجامعة تبارز مع طلبتها ستاً وعشرين مرة لم يهزم إلا فى واحدة منها . ويصح لنا أن نستنتج من ميله الفطرى الى المبارزة حبه للكفاح والمُجادة .

ولاريبَ أن لهذه الناحية خيرها وشرها . ولاريبَ أيضاً أن ما فيها من خيرٍ وتقع
 يربو على ما بها من شرٍّ وضرر . وكفى بها خيراً ونفعاً أنها قد عودت «بسمارك» منذ
 نعومة أظفاره عادةً ضروريةً للنجاح والتبريز في الحياة ... ألا وهي عادةُ الانتصار
 وكما أن الطالب الذي يكون أوّلَ فرقة مرةً ثم أخرى ثم ثالثة ، ينطبع في نفسه
 الميلُ الى الأوليّة ويكون من عادته الجنوح الى الصّدارة والزعامة ، كذلك حال
 المكافح والمنازل الذي اعتاد النصرَ وشبَّ على التبريز تنطبع في نفسه تلك العادةُ
 المجيدة ، عادةُ الانتصار

على أن معاقرة للخمر لم تعقه — فيما ذكر عنه مؤرخوه — عن التقدم في
 دروسه ، بل لقد ذكروا أنه لم يتأخر فيها وجاز امتحاناتها ممدوحاً من أساتيدِه ،
 وعُيِّن أخيراً ملحقاً قضائياً « مستنطقاً » في پوتسدام . ويظهر أن ميله للانتصار
 قد صحبته لوازمُ الانتصار ولا يسته صفاتُ الغلبة والتبريز

وإذا كان الانتصار معناه نزولُ غيرك على إرادتك، وإقرارُهُ بتقدّمك وغلبتك ،
 وكان هذا التقدم وتلك الغلبة معناها أن تكون كلمتك هي العليا وأن الزعامة
 والرأسة لك « أيها المنتصر » دون سواك — إذا كان ذلك كذلك — استطعنا أن
 نعلل سببَ استقالته من وظيفته القضائية التي عُيِّن فيها .

كان بسمارك يستمع — كملحقٍ قضائيٍّ — لشهادة رجل فلاحظ عليه شيئاً لم
 يَرْتَحِ اليه ولم يرُقّه ، ولم يك بسمارك رئيساً للجلسة طبعاً ولكنه لم يتمالك نفسه
 النزوعة الى الرئاسة ، فقال للشاهد : « اعتدل والآطردتُك » يبدأن رئيسَ الجلسة
 قد لاحظ شيئاً جديداً في هذا الموظف الجديد لم يلاحظه فيما عداه من الموظفين .
 لاحظ فيه حبَّ الرئاسة فكان عليه أن يعترضه ، وكان عليه أن يلومه فقال لبسمارك :
 « إن حقَّ الطرد من المجلس خاصٌ بي لا بك »

عاد بسمارك الى سماع الشهادة كاظمًا غيظه ، كاجماً جراح نفسه . ولم تمض هنيهة حتى لاحظ نفس تلك النعمة التي لم يرتح لها ولم ترقه من الشاهد ، فنهض واقفاً وقال : « اعتدل أيها الرجل وإلا طردك القاضي » .

وكان من الطبيعي ألا ينجح « بسمارك » في الحياة القضائية فولى وجهه شطر الجيش ، ولكن نفسه الكبيرة محالٌ عليها أن يرضيها نظامُ الجيش وما فيه من قيود عديدة . ولا تنس معاقرة الخمر ، ولا تنس نزوعه للأثرة والسلطان وللزعامة والصدارة اذن فلم لا يترك الخدمة ولم لا يعود الى مزارع أبيه وأملاكه ليصلح من شأنها وليدبر أمورها ولا سيما وقد مات أبوه عام ١٨٣٩ فانتقلت اليه كلمته العليا وسلطانه على الزراع والمستأجرين وما إلى ذلك من ماشية وغيرها — فأصبح يتمتع بسلطان أعلى دونه سلطان القاضي والقائد .

زيارته للممالك الاوربية

يقول مؤرخو حياة « بسمارك » إنه زار باريس عام ١٨٤٣ وإنه عاد من زيارتها وله لحيّة طويلة ويجب ألا يفوتك أن للحي في ذلك الوقت قصة ومغزى . فهي تدل على الغلو في الآراء السياسية التي تنتشر في فرنسا ، وتدل على حماسة صاحبها وإخلاصه لمذهبه الذي يعتنقه واستمساكه بعقيدته التي يدين بها ويظهر أن لقراءة بسمارك ولورائته من والدته وأثر يئته دخلاً غير قليل في نزوعه في أوليات حياته إلى الآراء الحرة في الحكومة وفي الدين . وفي ميوله الى حقوق العمال ، وما الى ذلك من مختلف الشئون .

ولهذا نستطيع أن نفسر أخذه بالنظام الفرنسي في إرسال لحيته . ولكننا سنرى الى أي حد سيحدو به ميئه الى الانتصار والى الانتصار بخذافيه . وهو لا يحدو به في نهاية تطوافه إلا بما يتمشى مع الانتصار والتبريز ، ولو كانت هذا الانتصار

لا يتفق في شيء مع الآراء الحرة موقف المتصر للرجعية والمعادي لما عداها في إرسال بنى المانية الى أحد أقيال افريقية الشرقية بها ليجد وسيلة يتوسل بها للتدخل السياسى وعلة يتعلل بها فى الوصول الى بُغيته ، فهو هنا مكيا فى السياسة غير أنه بالدين ولا مكترث بالخلقيات .

ويظهر أن بسمارك قد عاد فى سنة ١٨٤٦ الى التوظيف ثانية ، فقد ذكر بعض مؤرخيه أنه تعين فى تلك السنة ملاحظاً للجسور وحماية الأرض من الفرق . كما ذكر عنه أنه زار فى هذه الأثناء البلاد الانجليزية والسويسرية والفرنسية

زواجه عام ١٨٤٧

وقد ذكر مؤرخ حياته الاستاذ « أميل لدوج » شيئاً طريفاً عن زواجه من « يوحنا » التى هام بها حباً ، وكيف نفرت منه أولاً حينما كاشفها بحبه لمعاقرته للخمر وميله الى اللهو واللعب ، ثم رضيت به أخيراً . كما ذكر شيئاً غير قليل عن عناية « بسمارك » بتعليمها وتوسيع مداركها . وترى مما كتبه « لدوج » أنه كما أن لبسمارك أثراً عظيماً فى تكوينها كذلك كان لها أحسن الأثر فى تقويم حياته وتوجيه جهوده إلى النافع المفيد وإصلاح بعض عيوبه الخلقية

لقد هام بها هياماً عظيماً وفنّ بحبها ، وكانت بينهما كتب غرام بديعة متناسقة لا موضع لإثباتها هنا فلننتقل الى نقطة أخرى تستحق عنايتك ومطالعتك

كيف بنى مستقبل بسمارك السياسى ؟

للكفاية نصيبها فى النّجح السياسى ، وللقدر أيضاً نصيبه . ذلك حق لا مِرية فيه أراد القدر أن يذهب « بسمارك » بزوجه بعد أن بنى بها إلى سويسرا وإلى إيطاليا ، وأراد القدر أن يذهب الى البندقية ، وأراد القدر أن يكون « فريدريك وليم

الرابع» ملك بروسيا في البندقية حين ذاك ، وأراد القدر أن يكون بسمارك مدعوًا الى تناول الطعام مع ملك البلاد

أتاح القدر هذه الفرصة لبسمارك وتحدث مع الملك ، وشاء القدر أن يقف الملك من هذه المحادثة على ذكاء بسمارك وعلى مواهبه السامية فسُرَّ بما رآه فيه من شتى النواحي ، وسنرى فيما بعد آثار تلك المقابلة الملكية في بسمارك وكيف أصبح ملكيًا ، وملكياً متطرفاً

حياته البرلمانية

وقد أراد القدر أيضاً أن يُنتخب في البرلمان في السنة نفسها وهي ١٨٤٧ — سنة زواجه وسنة مقابله للملك بلاده . وقد أخذ مكانه باستحقاق وجدارة بين أشراف برلين ، وقد ميّز نفسه بالدفاع عن حقوق الملك والملكية وقال الكلمة المعروفة : « إن الملوك يجلسون على سدة الملك بمشيئة الله لا بمشيئة الشعب » ودافع أشدّ الدفاع عنها ويقال : إنه لما خطب خطبته الأولى في المجلس في هذا الصدد صخب المجلس وهاج أعضاؤه فأبت شخصية « بسمارك » إلا استمراراً في خطبته . . . وبلغ به عناده وعدم اكتراثه أنه لما جلس تظاهر بالقراءة في جريدة كانت في جيبه !!

قامت الجرائد ضده . طاعنة ، زارية ، متهجمة ، ناعية عليه رجعت و انتصاره للملكية ، وأبت عليه شخصيته الفذة إلا استمراراً في خطته الى النهاية ، وقد أنشأ جريدة من ماله الخاص للرد عليها . . .

استمرّ طوال تلك السنة على خطته ، مُخلصاً لها ، مستمسكاً بها الى أن اضطر الملك عام ١٨٤٨ الى التسليم للأحرار والمتطرفين واعتزل بسمارك السياسة ويجب هنا أن نقول : ان دفاع بسمارك عن حقوق الملك ، وما أبداه في هذا

السبيل ، من قوة عَارِضَةٍ وشدة مُحَاجَّةٍ وحرارة دفاع وتدفُّق بيان . كان لهذا كله الأثر العميق في وَضْعِ بذور الجمعية الملكية في بروسيا ، كما كان له الفضلُ العظيم في القضاء على ثورة عام ١٨٤٩ وما فيها من آراء متطرفة ، والعمل على تدعيم أركان الملكية في البلاد

لم يطلُ اعتزالُ بسمارك للسياسة إذ انتُخب عام ١٨٤٩ في البرلمان الجديد عن « برنبرغ » . ويجب أن نُقَيِّدَ له شدة حماسه واستمراره في الانتصار للملكية . ويجب أن نُثَبِّتَ له أيضاً ما أثبتته مؤرخو حياته من أنه كان أكثر المتكلمين والباحثين في موضوع الدستور الجديد . ويجب أن نُثَبِّتَ أيضاً أن من أقوى خطبه وأبلغها وأكثرها متانةً ما كان ضدَّ الثوار والثأرين . كما نُثَبِّتَ له اشتراكه في مناقشات السياسة البروسية الخارجية

على انه لا يصحّ أن يفوتنا — وقد ذكرنا وضع الدستور البروسي — ما كان من موقف بسمارك في هذا الصدد :

لما هُزِمَت ثورة عام ١٨٤٨ وانتُخب بسمارك في مجلس النواب الجديد عام ١٨٤٩ عُرِضَت فكرة الأخذ بنظام الدستور البلجيكي ، وكان عمره ثمانية عشر عاماً وقال فيه : « إن عمر الدستور البلجيكي ١٨ سنة فقط ، وهو عمر يحمل بالسيدات ولا يحمل بالدماساتير »

حياته السياسية

ولم يكن مَفْرُؤً للملك وقد وَجَدَ في بسمارك رجلاً ونصيرَه إلا أن يختاره مندوباً سياسياً في « مجلس الاتحاد الألماني » في فرانكفورت عام ١٨٥١

وإذا كان زواجه من زوجة جميلة رشيقة مُتَدِينَةٍ قد نجا به من طيش الشباب ورُعونة الصبا ، فانا نجد أن تعيينه في هذا المجلس ، وهو تحتُ الدهاء ومقرّ السياسة

الألمانية في ذلك الحين ، سبب هام في تكوين بسمارك تكويناً سياسياً . إذ أنه قد نجح به من طيش السياسة وأخطالها . وانه قد رسم لهذا السياسي الكبير الخطة السياسية المثلى لمستقبل حياته وبلاده .

كانت النمسا السيدة الحقيقية ، ذات السلطان الحقيقي ، على ممالك الاتحاد الألماني . ويجب هنا أن تقول إن رغبة الممالك الألمانية كانت منذ عام ١٨١٥ في الاتحاد بسبب ما أوقعه نابليون فيها من الخراب والذل ، ولكن النمسا التي كانت ترمي الى السيادة المطلقة عليها كانت تعمل لاستبعاد تحقيق تلك الوحدة . تعمل بذلك ساستها ، ودسائس مندوبيها ، جادة في هذا السبيل ، غير مقصرة ولا وانية وجميل هنا أن ندرس تطور عقلية هذا الجبار السياسي القدير .

كان يرى بدءاً ذي بدء أنه لزام في عنقه المحافظة على صداقة النمسا ، وذلك لأنه كان يرى أنها أشد الممالك صداقة لبروسيا .

كان يرى ذلك ويرى أنه ملزم بتطبيق سياسة بلاده على مجرى سياسة النمسا ، بيد أنه بعد مرور فترة بسيطة تبين أنها أعدى أعداء أمته . ورأى أن لا مفر له من العمل على سحقها سحقاً ، وسعى ثماني سنوات لدى ملوك الممالك الألمانية عامة حتى أقنعهم بخلع نيرها . ولم يأل جهداً في هذا السبيل بل استخدم الصحف والأوساط السياسية كافة ، وزار باريس وتكلم مع نابليون الثالث . وسعى سعيه هنا وهناك للعمل على إضعاف النمسا . . . فكانت له إرادته . وكانت له مشيئته

ويجب هنا ألا يفوتنا إثبات محاولاته حين أحس أن مكانة البروسي في مجلس فرنكفورت غير مكانة النمساوي ، وما بذله من نكران ذلك والخروج عليه عملياً من تدخينه ونزع الملابس في أثناء الجلسة

وانك اذا ما قرأت مكاتباته مع صديقه الحميم في بلاط ملك بروسيا « الجنرال

فون جريلاخ» من أركان حرب الملك نستطيع أن نستدلّ منها على مبلغ ما استفاد « بسمارك » من مجلس فرنكفورت ، ونستطيع أن نوّمن بما لهذه البيئة السياسية القوية ، من أثرٍ سياسيّ قويّ في هذا السياسيّ الكبير .

ولا غرو فقد استفاد بسمارك أيما إفادة من الوسط السياسيّ الجديد الذي شاء القدر أن يكون فيه . وأصبح من الكفاية السياسية وعلوّ الكعب فيها بدرجة جعلت ملك بروسيا يستدعيه كلّ سنة إلى برلين ليقف منه على رأيه في شتى المسائل السياسية العامة . وقد ذكروا أنه استدعى في إحدى السنين حوالي عشرين مرة . وهنا يجب أن نقيّد له رأيه في تكوين المانيا وفي مستقبلها :

كان مؤمناً كل الايمان بضرورة تقوية الجيش الألماني لكي تُدعن لها ممالك أوروبا من ناحية ، ولتخضع لها الممالك الألمانية والأحزاب الألمانية من ناحية أخرى ، وأخيراً لكي يستأصل الحزب الجمهوري ولكيلا تكون سلطة فوق سلطان المانيا والآن نتساءل : هل نفذ بسمارك خطته وهل نجح فيها ؟

يبدّ أنا زريد قبل إجابة هذا السؤال أن نلاحظ من قراءتنا لخطاباته إلى زوجته في هذه الفترة مبلغ ألمه وعميق أسفه لما كان من طيش شبابه الماضي . . . وقد اتجهت ميول هذا السياسي إلى التوراة وإلى الانجيل ولجأ إلى العون الإلهي

والآن نمرّ سراعاً على سني حياته وما فيها من حوادث كبار تحتاج دراستها إلى مجلدات ضخام ، لأنها بمثابة تاريخ القرن التاسع عشر ، وتاريخ الحالة السياسية في ممالك أوروبا عامة ، وما فيها من شخصيات بارزة لعبت دورها العظيم في تاريخ الإنسانية

سنة ١٨٥٩ م

هذه سنة هامة في تاريخ بروسيا وفي تاريخ بسمارك : هامة في تاريخ بروسيا لأن فيها أصيب « فردرك وليم » بأمهات عقلية حالت بينه وبين الاشتغال بأمور

دولته فانيب عنه « البرنس وليم » وكان لذلك نتائجُ يؤثّرُ بها . وهامةٌ لبسمارك لأنه قد نقل فيها من عمله العظيم في مجلس الاتحاد الألماني « بفرنكفورت » الى « بطرسبورج » حيث عُيّن سفيراً للمملكة في روسيا . ومكث فيها أربع سنوات نال فيها احترام القيصر وحُبّه . وهى هامةٌ لنا معشر القراء لأن بسمارك كتب فيها رسالته المسهبة عن المسألة الألمانية وهى التى بعث بها الى نائب الملك البرنس وليم ، وأثبت فيها ضرورة العناية بتقوية الجيش الألماني ، وتنبأ فيها عن مصير السياسة الأوربية .

سنة ١٨٦٢ م

وهى الأخرى سنة هامةٌ في حياة بسمارك السياسية . لأنه تعيّن فيها سفيراً لدولته في باريس ، وفيها درّس فرنسا . وسنرى فيما بعد كيف أراد « أن يفطر بفرنسا قبل أن يتعدى بالنمسا »

وهنا يجب أن نذكر لك اسماً ، أكثر مؤرخُ بسمارك الأستاذ « أميل لدوج » من ذكره . . . وذلك الاسم هو « الجنرال فون رون » وزير الحرية بالوزارة الألمانية ، ويجب أيضاً أن نذكر لك أن أثر بسمارك في خلال تلك السنين في حكومة بلاده كان ضئيلاً وكان قليلاً . إما لأن الوزراء الأحرار كانوا ينظرون إلى آرائه نظرة شكّ وارتياب وعدم إيمان بقوة بروسيا وقدرتها في الاضطلاع بما يريد لها هذا السياسى الجديد . وإما لأنهم يريدون التخلص منه لعظم نفوذه وقوة شخصيته . بيد أنا مع ذلك كله نلاحظ أن « الجنرال فون رون » كان يرى رأيه في ضرورة تقوية الجيش الألماني لكى تسود بروسيا .

ولكنّ حزب الشعب قد ازدادت قوّته ، وعظم بطشه ، وارتفعت كلمته ، ففكر الملك في التنازل ، وفاتح « الجنرال رون » برغبته هذه ، فنصح اليه باستدعاء رجل

الساعة « بسمارك » وأن يعهد اليه في تأليف الوزارة . فهو وحده الذى يستطيع إنفاذ الموقف . وفعلاً أخذ الملك بنصيبته وعهد بها الى بسمارك وبقى وزيراً للمملكة ومضطرباً بأعباء وزارتها الخارجية مدة ثمان وعشرين سنة

في رئاسة الحكومة

يذكر الأستاذ « أميل لدوج » في مقاله الصغير -- لا كتابه التاريخى الكبير -- أن قوة بسمارك الجسمانية قد خدمته في حوادث عدة . ذكر منها ثلاثاً : أولاً أن معتدياً أثمياً أطلق عليه عياراً نارياً في « اتتردن لندن » فأخطأه في الطلقة الأولى ، وحاول أن يطلق عليه الطلقة الثانية ولكن بسمارك العبل المتين أمسكه بيده اليمنى وألقى سلاحه على الأرض . وأما الحادثة الثانية فكانت أيام شبابه وميعة صباه إذ ألقى بنفسه في اليم لإتقاذ غريق . ويقول « لدوج » : إن بطله بسمارك يفخر أَيْمًا فخر بمدالية الشرف التى نالها في هذا السبيل . وأما الحادثة الثالثة فخاصة بموقفه التاريخى في الحيلولة بين الملك وبين تنازله عن العرش

ثم يتدرّج « لدوج » بعد هذا الى التغنى بأثر ضخامة بسمارك في نفوس مشاهديه من سفارته في روسيا إلى سفارته في باريس الى غير ذلك من المجالس التى يجلسها ، والوظائف التى يشغلها

صدق « لدوج » في ملاحظاته هذه ، ويصدق دائماً في تغنيه ببسمارك ولا سيما قوة إرادته الحديدية .

أجل ! لبسمارك إرادةٌ حديدية ، وهذه الإرادة الحديدية هى مصدرُ نجاحه في حياته السياسية ، هى صاحبة الفضل الأول في فضّ مشاكل دولته ، بل في خلق دولته في ظروفٍ قائمةٍ حلكاء .

ترجع بسمارك في دست الوزارة ، والموقف يُوهن عزم الجميع إلا من كان مثل بسمارك في مُرهف إرادته ، ومضاء عزمته ، وقوة شكيمته .

ألم تكن الأحزابُ مناهضةً له ؟

ألم تكن الصحفُ مشهرةً الحربِ العوانَ عليه ؟

وأخيراً ألم يكن الملك نفسه معترماً التنازلَ عن عرشه إزاء ذلك كله ؟

على أن بسمارك خرج من هذا كله منتصراً ، ومنتصراً على طول الخط .

لقد اعتدى على حياته . ونجا بأعجوبة من القدر . أو بقوته الجسمانية كما يذهب

مؤرخه «لدوج» . فانظر كيف أستخدم هذا السياسي المحنك تلك الحادثة المروعة

التي ربما تُفسر بمقت الشعب له ، وعدم ارتياحه لسياسته التي يجري عليها

لقد قلب الموقف . . . ألهب الحماسة في قلوب الألمان . . . جعل الجميع يؤيدونه

ويظاهرونه . . . زاره الملك في منزله . . . وخرج بسمارك الى الشعب الذي يهتف

له وأطلّ على المتظاهرين من شُرْفَةِ قصره

وهكذا انتصر بسمارك بعقله وحكمته . وانتصر بسمارك بحذقه وكياسته . وانتصر

بسمارك لأن إرادته الفذة أرادت له الانتصار . وكان له ما أراد

مسألة أخرى هامة أيضاً

كان لبسمارك معارضون أقوياء . وكانوا يُدسّون له في كل مكان . يدسون له

في بلاط الملك . ويدسون له في الصحف . ويدسون له في مجلس النواب . وقد

خلق له هؤلاء الخصومُ مُشكلةً دقيقةً أثاروها في البرلمان . . . هي « حق الأمة

في تقدير نفقات الحكومة »

ولكن « بسمارك » الذي رأيناه في مبدأ حياته السياسية لا يحفلُ بخصمه ،

ولا يُدعن إلا لما شاء هو ، بسمارك الذي تعود الانتصارَ والذي يخلقُ من الفشل

انتصاراً... قاوم ثم قاوم... وقرّر لهم ذلك المبدأ المعمول به الى الآن... قرّر لهم « إن المشا كل لا تُفَضَّ إلا بالدم والحديد ! »

ولعلّه من هذه العبارة أُسِّمى بسمارك من ذلك الحين « بالوزير الحديدي »
ويصح لنا الآن أن نتساءل ماذا فعل بسمارك إزاء مُشكلات أمته السياسية ،
ولا سيما ونحن نعلم ما بينها وبين جاراتها وخاصة النمسا وفرنسا ... ؟

ان بسمارك كان يجرى في سياسته على مقتضى الحكمة البطيئة النجاح ، ولكنها
مضمونة النجاح... نغنى بها الحكمة التي تقول : « الأمور مرهونة بأوقاتها »
أما الإجابة عن سؤالنا الأصلي وهو... « ماذا فعل بسمارك إزاء مُشكلات
أُمته ؟ » فهي في نفسها تُبرهن بجلاء صحة ما ذهبنا اليه من أن بسمارك السياسي
لم يكن مُتهوراً في سياسته ، وانه كان يجرى على مُقتضى الحكمة البطيئة النجاح ،
واليك التوضيح :

كان من مصلحة بسمارك السياسية أن يشغل أُمته في حرب خارجية . لأن
هذه الحرب الخارجية تُنقذه بلا ريب من مشاكله الداخلية... فهل فعل ؟
لقد مكّن بسمارك العلاقات السياسية بين بلاده وبين روسيا منذ أيام سفارته
بها . وكان من جرّاء هذه العلاقات الودية الجديدة بين الأمتين أن عرض عليه
« اسكندر الثاني » قيصر روسيا أن تشترك بروسيا مع بلاده في مُناجزة النمسا
وفرنسا معاً في أثناء ثورة بولونيا... فهل فعل ؟

ان بسمارك يُريد أن تكون بلاده قوية في داخليتها ، قوية في جيشها ، قوية
في مجلس اتحادها ، قوية في أسباب دخولها الحرب... وهو لهذا كله لا يُهمه ذلك
النجاح المؤقت ، أو ذلك الإنقاذ المؤقت الذي يشغل به أُمته في حرب خارجية تتلّهى
بها عن مشاكلها الداخلية .

كان بسمارك يريد النجاح الصحيح لا النجاح الكاذب ، والإيقاظ الصحيح لا الإيقاظ الكاذب ، لأنه كان سياسياً صحيحاً ، سياسياً قلباً وقالباً ، لا سياسياً زائفاً ولماذا لا ينتظر حتى تنهيا له الظروف وتواتيه كلها فيعمل في أناة وطُمأنينة وهو واثق من النجاح ثقته بعملية حساية . أو قضية منطقية تدلُّ مُقدماتها على نتائجها ؟ انتظر بسمارك . ولكنه لم ينتظر طويلاً . فقد عرَضت مسألة «دوقيتي شلروك وهلستين بالدنمارك» . ولم يفاجئ فيهما النمسا بحرب ولا مُناجزة الا بعد أن تحقق من قيام إيطاليا الى جانبه لاسترجاع أملاكها من النمسا ، ولم يحرك جانباً إلا بعد أن وثق من أن فرنسا ستلتزم الحياد أو على الأقل أنها لن تُحرِّك ساكناً ضده يبدأن مُشكلة جديدة قد خلقت في الميدان . وهذه المشكلة هي أن جُلَّ أعضاء مجلس «فرنكفورت» تظاهروا ضدَّ بسمارك وضدَّ بروسيا ، وظاهروا أعداء بسمارك وأعداء بروسيا ، أيدوا النمسا . فهل وهنت إرادة بسمارك ؟ بادر الى المجلس فخله ثم طلب من ممالكه مطالبَ رفضتها فأعلن الحربَ ضدَّهم وضدَّ النمسا ولقد انتصر بسمارك . وانتصر انتصاراً عظيماً . . . فهل انتهز هذا السياسي انتصاره هذا ليذلَّ النمسا ؟

إن سياسة بسمارك كانت كما قلت ، وكما أكرَّر ، «الجرى وراء الحكمة البطيئة النجاح ، ولكنها مضمونة النجاح» ، نَعني بها الحكمة التي تقول : الأمور مرهونة بأوقاتها . — ولقد قضت عليه هذه السياسة أن يذل ممالكه الصغيرة الآن ، مرجئاً النمسا . . . وقد نجم عن جريه على سياسته هذه أن قوى الاتحاد الشمالى لألمانيا وأن تحالف مع الولايات الجنوبية سرّاً

والآن نعرض لشيء لذيذ في ذاته ، شيء عن لغة السياسة . وبعبارة أدقَّ نعرض لموقف بسيط من مواقف بسمارك السياسية العديدة .

لقد طلبت فرنسا من بسمارك ثمن سكوتها والتزامها خطة الحياد في أثناء حربه . . . وألحّت في الطلب فسئل بسمارك ماذا ينويه اذا أصرّت فرنسا على مطالبته بتعويض نظير سكوتها . . . فقال كلمته المعروفة : « الصداقة ، الصداقة الدائمة » ومعناها طبعاً « الحرب . . . الحرب حالاً » !!

وقد آن لنا أن نتكلم عن الحرب الفرنسية الألمانية الكبرى ، وهذه تتطلب وحدها بحثاً طويلاً وفصلاً مستقلاً . لأنها سلسلة مواقف سياسية لبسمارك . وسلسلة أغاليط سياسية لغير بسمارك

وقد يكون من المستحسن أن نُشير هنا بإيجازٍ الى غلطة من أغلاط الثقة . . . وكُم للثقة من أغاليط مُهلكة مضيعة . . . نَعْنِي بذلك موقف « بندتي » سفير فرنسا في ألمانيا وسَعِيَه لعقد تحالفٍ مع ألمانيا وتركه صورة ذلك التحالف مع بسمارك . . . وكان أساس التحالف ضمّ مملكة بلجيكا . . . التهامها وأكلها وهضمها . . . ولن يترك بسمارك صورة مخالفة كهذه تحت يده للساعة المناسبة دون أن يستفز بها غضبَ بلجيكا وغضب انجلترا المتاخمة لبلجيكا

وقد كان ! وقت أتت تلك الساعة . وأتت سريعاً

كانت أسبانيا تُرشح البرنس ليوبولد البروسي لعرشها . وكانت فرنسا لا تريد ولا ترى مصلحتها في هذا . وقد تُبودلت مكاتبات من فرنسا ناصحةً امبراطور ألمانيا بأن يبذل نفوذه لدى البرنس ليوبولد ليعديل عن قبول الملك . . . ويظهر أن الامبراطور نشر بياناً أو أعدّ بياناً للنشر كان بلغة غير مناسبة فانتَهَزَ بسمارك الظرف وزاد الطين بلة . ولعبت يده السياسية في هذا البيان فنشر بشكل ألهب الحماسة في قلوب الطرفين يقول البيان الأصلي ما مؤداه : إن الملك طُلب منه تأكيده بعدم تشجيع أيّ أمير بروسي لعرش أسبانيا ، وأن جلالتَه يرى أنه ليس في المقدور ولا من العدل

البتَّ في ذلك ولا سيما وأن ألمانيا لا تعلم عن شيء ما من هذا الموضوع إلا عن طريق فرنسا نفسها . وأن الملك قد أشير عليه بعد هذا كله من مُشيريه، بعدم وجود ما يدعو الى مقابلة سفير فرنسا للتكلم في هذا الموضوع .

أما البيان الذي أعده «بسمارك» فبعد أن ذكر المقدمة الأولى انتهى بما يأتي : « قرَّ قرارُ الملك بعدم مقابلة جلالته لسفير فرنسا البتة . وأرسل جلالته اليه أركانَ حربِه لإبلاغه بعدم وجود شيء لدى جلالته لإبلاغه الى السفير »

ويقول التاريخ : إن « بسمارك » تعشَّى مع « رون » و « ملتكى » من القواد المُحنَّكين وسألها عن مبلغ استعدادها وعن استعداد البلاد وقوتها . . . وقد خطب « بسمارك » في مجلس النواب خطبةً قال فيها : « ان فرنسا تُخَيِّرنا بين أمرين لا ثالثَ لهما . . . تقول لنا : إمَّا الحربُ وإمَّا الذل . . . »

ويقول التاريخ : إن النصرَ كان لألمانيا التي تمت لها وحدتها ونُودي بملكها وليم الأول امبراطوراً عليها في نفس العاصمة الفرنسية . وإن ذلك كان نتيجةً لتلك الجهود المستمرة القوية التي بذلها بسمارك . ويقول أيضاً : إن الملك قد أعرض عنه في أخريات حياته، وانه قضى أيامَ شيخوخته في عُزلة وأسى . وكان بُودِّنا أن نستطرد الى إثبات ما لبسمارك من آراء في الصحافة والمعاهدات وشتى الشئون لولا أن البحث قد طال جداً . ولكننا نختتم هذا البحث بالرد على أولئك الذين يقولون إن «بسمارك» قرر بأن «الجرائد حبرٌ على ورق» انه كان مع ذلك شديد الاهتمام بالدعاية السياسية . كثيرَ العناية بما تكتبه الصحف . وقد قال لبعض الذين نصحوا له بعدم الاهتمام بكتابة الصحف : « ليس في مقدور السياسي ألا يهتم . . . لأنه يعتمد على رأى الجمهور فيما يعتمد عليه من مُختلف القوى . ذلك لأنه اذا ساء رأىُ الناس فيه فلزامٌ في عنقه ان يعمل على إصلاحه ، وإلا فانه يُصبح غير قادرٍ على تفهمهم ، ولا مُوفقٍ لخدمتهم . »

مول بطل زنجي كبير

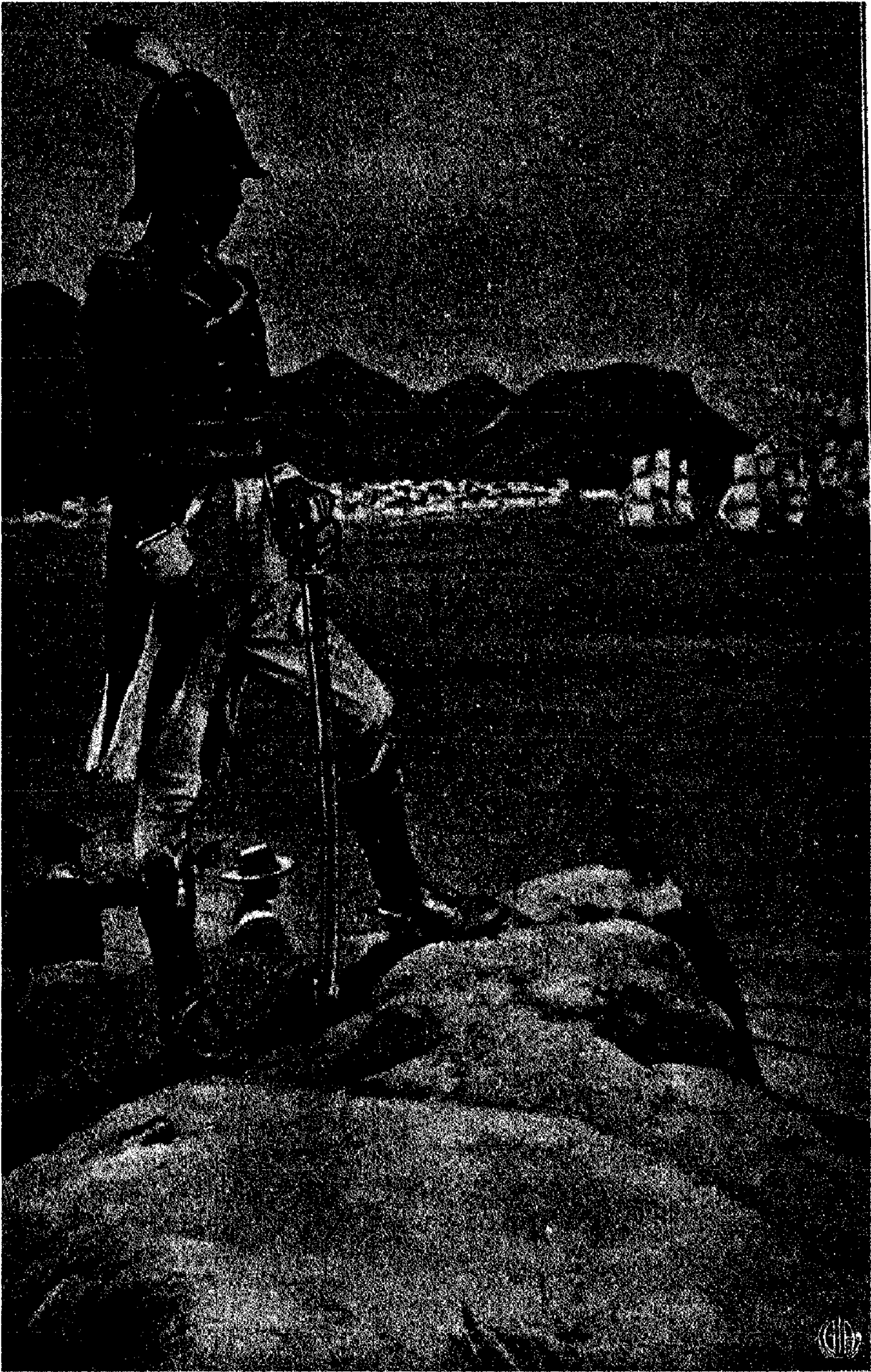
توسان الفاتح

(١)

الحياة سريعة العدو. وإن اختلف الناس من فلاسفة وسوقة، جهابذة أفهام، أم طغاة أحلام، في ماهية عدوها، أهو يمنة أم يسرة، أو هو إلى الأمام أم إلى الوراء، فقد أجمعوا راضين أو كارهين على حركتها ونشاطها، كما أجمعوا على استحالتها وتغيرها، ما في ذلك ريب.

يبد أن الحياة السريعة العدو، الحافلة بكل شيء، من نافع للإنسانية أو مؤذٍ لها، مُغذٍّ للروح أو قاضٍ عليها. هذه الحياة المُصطخبة المتلاطمة، قد تتطلب منا بعض وقفات للتروية والتدبر. فكم فيها من دروس، وكم فيها من عبر! بل نحن بحاجة إلى وقفات التدبر هذه، لأن سرعة عدو الجيل الذي نعيش فيه كاد يخلق منا آلات ميكانيكية، قوامها المادة، والحياة بالمادة، وفي سبيل المادة، وإذن فيجب أن تقطع لحظات قليلات، ووقفات قصيرات، لحياتنا الروحية على الأقل. وإذا كانت الحياة سريعة العدو، فهي سريعة النسيان أيضا. ولكنها مع سرعة عدوها، وسرعة نسيانها، ليست بعاقبة ولا جاحدة. بل هي برة مقدرة، وإن كان برّها وتقديرها يمشيان مشية السلحفاة لا مشية الأرنب!

وقد تُثير الحياة أثناء سرعة عدوها غبارا كثيفا يغمُر البعض، ويحجب عن النظر بهرة الضياء وسنا النور. وقد يتلع الغبار من يتلع، ويصور من الأشكال ما يصور، ولكن الضياء لا بد أن يسطع. وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.



توسان الفاتح

(٢)

وهأنذا شبابنا الناهضين أخطبكم الآن في بضع صفحاتٍ قليلةٍ من هذا الكتاب، عن شخصٍ حَجَبَهُ عن أنظارنا فيمن حَجَبَ غبارُ الحياة وإن كان عظيماً. وإن كان قد رثاه «وردسورث» الشاعر الانجليزي النَّابِه. وإن كان «آرثرى» الكاتبُ المعروف قد اختاره أحدَ أبطاله الخمسة عشرَ لِيُمَثِّلَ به رَمَزَ الحرية، وليكون قُدوةَ التضحية، في الدُّودِ عن الوطن. ووضع اسمه الى جانب «ابراهيم لنكلن» و«جان دارك» و«جارسون» و«سقراط» و«لويزستيفنسون» وغيرهم من رُسُلِ العدالة ومُحِبِّي الوطن، وخدمَةِ الإنسانية، ودُعاةِ الحق، وزعماءِ العباقرة!

(٣)

تعرفون جزيرة «هايتى» في الهند الغربية بالمحيط الاطلنتيكى. وقد تعرفون عنها أنها جبليّةٌ إذ أنها تُنبِت القطنَ أو الأرز أو البن أو السكر... ولكننى أحب لكم أن تعرفوا عنها، الى جانبِ معارفكم الجمّة، أنها أنبتت «توسان» قبل أن تعرفوا أن مُكتشفها «كولومبس» مكتشف أميركا. وقبل أن تعرفوا أنها أنبتت القطنَ فعندنا منه الكثير، وقبل أن تعرفوا أنها بلاد القهوة فما أكثر المقاهى فى بلادنا... أما «توسان» وصنّف توسان فنودُ منه الكثير فى بناء صرح الوطن، قوياً مُشمخراً، وحرّاً مستقلاً.

وقد تعرفون أن جزيرة «هايتى» هذه كان يحكمها أقيالٌ خمسة حين اكتشفها «كولومبس» وأن سُكانها حين ذاك قد بلغوا مليون نسمة. وقد تعرفون أن التاريخ الحديث يزعم لكم فيما يزعم أن الهمجية كانت ضاربةً بجرانها على الأهلين، وأن العسفَ كان ناشراً جناحيه، وأن الحكمَ المطلقَ مُمسكٌ بالتلابيب. كما يزعم أن «كولومبس» وجماعةَ الأسبان الذين معه، قد حسروا عن ساقهم فى بناء المدن

وتخطيط القرى ، ولكنهم تركوا الجبل على الغارب ، وتركوا الدار تنعى من بناها . وقد يكون في هذا شيء من الصحة ، ولكن الصحيح المموس أن المليون قد تضاعف الى ستين ألفاً ، وأن كل ميل مربع كان لإنسان واحد ، أو كل إنسان واحد يُوازى ميلاً مربعاً . وأن فرنسا قد وضعت يدها على الجزيرة للاستعمار أو الاتجار . وأن خمسمائة من البيض قد سَلَطَهم القدر لحكم تلك الجزيرة الغنية . ولحكمها في أيام نابليون ، أو في عصر الثورة الفرنسية . . . عصر الحرية والإخاء والمساواة ! وستفترضون أن عصر الحرية والإخاء والمساواة في تلك الأيام ، لا يختلف عن عصرنا الحاضر ، حيث لا تزال أممٌ يجرى في عروقها دم الحياة وحب الوطن والحرية ، وهي راسفةٌ بعد في رُبَّة الانتداب ، وواقعةٌ بعد في برائن الاستعمار مع وجود عصبية الأم وبعد صرخة «ولسن» في حق تقرير المصير . . . ولكن المهم أن تعلموا اذا ما ذكر بعض المؤرخين زيادة عدد سكان «هايتي» بعد الاستعمار الفرنسي حينذاك الى المليون ، كما كان قبل اكتشافها أن تضيفوا الى تلك المعلومات شيئاً آخر قد ذكره التاريخ أيضاً . وذلك الشيء هو أن يد الاستعمار قد امتدت الى إفريقية وملأت مئات السفن من القطعان . وبعثت بتلك القطعان الى جزيرة هايتي الغنية . . . ولم تكن هذه القطعان المبعوثة بها الى المجزرة بقطعان أغنام أو إبل أو شاء ، بل كانت قطعاناً من الإنسان الأسود في أعناقه الأغلال والأصفاد . سلبوه من بين وطنه ومن بين صحبه وذويه قسراً واغتصاباً ، ليكدح في سبيل غنم ، وليفلح الأرض في سبيل نعيمهم ، وتدعيم ثروتهم .

(٤)

يقول التاريخ إن كثيراً من سراة «باريس» القاتنة ، باريس الجميلة ، باريس المحبوبة من الجميع ، كانوا يعيشون في أجوائها ، وينعمون بلذاتها ، ويرؤحون وينغدون

في غاباتها وبهواتها ومسارحها من دم الرقيق الإفريقي الذي انتزعوه من أهله انتزاعاً
ليعمل في هايتي ليبرد نهْمَتهم ويُطْفئ شهوتهم . وقد يكون التاريخ صادقاً أو مبالغاً
ولكنه لم يكذب ولم يبالغ حينما حدثنا أن « توسان » الأسود قد خرج الى العالم
من صُلب هؤلاء السود الأرقاء . وأن نفسه العالية قد تألمت ، وبرَّح بها الألم وهي
تشاهد سوط العذاب يقع في كل لحظة على زملائه السود من سادتهم البيض !
يقولون إن « ابراهام لنكولن » قال كلمته الماثورة حينما شاهد الرق وحالته :
« إنني اذا أُتِحتُ لى الفرصة للقضاء على الرق فلا أقضين عليه بشدة » ولم يقل لنا
التاريخ ماذا قال « توسان » وانما قال لنا ماذا عمل .

مهما يُعذَّب العظيم في حياته ، فان له من عظمتة ما يُرفِّقه عليه ويخلق له جواً
يعيش فيه . والعظيم عظيم في كل شيء . في شخصيته . في جاذبيته . في فرصه .
في عمله . في أثره . وللعظيم سحره أينما حلّ وأينما وجد . ولن يقعد بالعظيم فقره
أو عوزُه أو شقاؤه أو عذابه . إنه قوة يُؤْبَهُ لها ، ويحسّ بها أينما كان ، وكيف كان .

(٥)

لذلك لم يكن من المستبعد أن هذا الإفريقي الذي يبيع يبيع الرق ، وهو فيما
قل من سلالة ملوك إفريقيا ، ووالده شيخ قبيلة من قبائلهم ، قد لفت نظر
مالكه بفرط ذكائه ، وعظيم حميته ، ومتقد جذوته . وأنه قد تزوج زيجة رغيدة ،
ورزق ثمانية أولاد ، وعبد الله بدلاً من الأصنام ، واعتنق المسيحية بدلاً من الوثنية .
ويقولون إن « توسان » قد برع في كل شيء . فهو السابح الماهر ، والصائد النادر ،
والراكب القادر . وهو الى جانب تلك النواحي التي حبّته الى النفوس ، والتي بدّ فيها
الأقران ، كان نعم الزوج الصالح ، والعامل الكادح ، والوالد البرّ . . . وقد لاتدهشون
اذا علمتم أنه قد تعلم الفرنسية الى جانب لغته الإفريقية ، لأن مولاه فرنسي فلا بد

أن يلتقط منه الألفاظ الفرنسية الفينة بعد الفينة . ولكنكم ستدهشون بلاريب اذا علمتم أن هذا الرجل الطموح قد بدأ يتعلم اللاتينية
ولننظر ما يقوله عنه « أرثر مى » وقد بلغ بطله ، فى الحرية ، الرابعة والخمسين
لتعلموا أن السنّ وان تقدمت لا تقعد بالعظيم النفس عن تحقيق ما فيه كماله ورقيه .
ونفسُ العظيم لا تصيبها الشيخوخة . هى لا تهن ولا تعجز . بل هى دائماً فتية فى
طماح ووثوب . فيها حرارة النشاط ودمُ الحياة . يقول : « لما بلغ الرابعة والخمسين
دفع الى جندى قبضة من النقود البورتغالية ليعلمه القراءة والكتابة ، وكانت الأيام
أيام الثورة الفرنسية . وكان من المجدى أن يكون « توسان » مُلمّاً بالقراءة . ولقد
قرأ تاريخ الرقيق ، كما قرأ كتاباً آخر ملاء بالأمل فى قرب يوم يُحرّر فيه شعبه .
وكان ذلك الكتاب هو الكتاب المقدّس »

(٦)

أين « كروبوكتن » و « كارليل » لأهمس فى أذنيهما أن الثورة الفرنسية التى
شادت بحقوق الإنسان ووصل صداها الى « هايتى » المعذبة المسكينة . هايتى التى
أرادت أن تسهم بنصيبها فى تلك الحركة العالمية نحو تحرير الانسان من ربقة
الانسان ، فبعثت بوفد تحت رئاسة مندوب من العبيد — ولا يُهمنى ولا يُهمكم
ماهية هذا المندوب أكان مندوباً فوق العادة أم تحتها ! — وإنما الذى يُهمنى ويهمكم
انه من الصميم ، من أعماق الأعماق .. إنه وفدٌ من أهالى هايتى ليُعبّر عن مشيئة
أهالى هايتى وكفى . والذى يُهمنى ويهمكم أن تعلموا أن هذا الوفد ذهب الى باريس
ليطالب بالحرية السياسية . ليطالب بوضع العبد الأسود على قدم المساواة مع السيّد
الأبيض . أليس القوم ينادون بنشيد الحرية والإخاء والمساواة ، فلماذا لا يقابل
الوفدُ رئيسَ البرلمان وأعضاء البرلمان ورجال الحكومة . ولماذا لا يَعد هؤلاء

الرجالُ بحرية هايتي . ولماذا لا يعد أصحابُ الاقطاعات في جزيرة هايتي من سِراة الفرنسيين وأعضاء البرلمان في باريس بقبولهم تلك المطالب القومية العادلة ؟
أقول أين « كريبوكتن » و « كارليل » لأهمس في أذنيهما أن رئيس ذلك الوفد قد أُعدم عند عودته إلى مسقط رأسه في هايتي ، لما كان من دعوته ودعوة الوفد في باريس ؟

(٧)

لا يُخَدِّمُ الحركاتِ القومية قدرُ الشدة والعنف ، ولا يُذَكِّي حماسَها ويُضرم نيرانها . . . مثلُ الجورِّ والعسف . وهكذا كان في جزيرة هايتي أثرُ إعدام رئيس الوفد المُطالب بالمساواة والحرية لها . فقد انفجر بركانها ، وثارت ثائرتها ، وجُنِّدت كتائبها ، وسارت في معاركها الحرية أمام فرنسا من نجاح الى نجاح .

وهنا ظهر « توسان » وليدُ الحركة التحريرية . وزعيمُ النهضة القومية . ظهر ليقودَ وطنه . وكان للرجل من سنّه وثقافته وتجاريه وتقديراته لمختلف الاعتبارات ما جعله يحول دون مجزرةٍ تقع على البيض من الثائرين ، مهما كان من هؤلاء البيض أو من قومهم . ظهر رسولاً للحرية ، ونبياً للوطنية . وزعيماً للبلاد ، وقائداً للعباد . ظهر فكسر الأغلال والأصفاد . ظهر فكاد الأهلون يُنادون به ملكاً ، بعد أن نزل الحاكم الفرنسي على إرادة الشعب وأسماء بحاكم الجزيرة الثاني ، ومحرّر شعبه ، والمنتقم لأبناء جلدته ! ظهر فكان أقدرَ منبّه للحرية الحقّة ، والثقافة الصحيحة . وقدرةً بلاده وظروف قومه من نفوس الفرنسيين .

وقد تندهِشون إذا علمتم أن الحاكم الفرنسي قد رغب في أن يمنح الحرية السياسية لأهل هايتي طَفرةً فبدأ دَوْرُ « توسان » البعيدُ النظر الذي لا تُغرّه الظواهرُ ، ولا تخدعه القشور . . . فبعث بولديه الى فرنسا ، ليتعلّما في تلك الأمة وسائل حضارتها .

وأخذ في إعداد المُعدّات في سبيل الحرية السياسية بأن ينالها زملاؤه في خمس سنوات ، ولكنّ الحاكم الفرنسي ، الذي وجد من توسان شخصية فذّة ، مخلصّة لبلادها ، محبوبه من بني وطنها ، واقفةً على بواطن الأمور ، مُطلّعة على خفّيات النوايا ، غلب على أمره أخيراً ، ولم يُفلح في كل دسائسه ، وقفل راجعاً الى مسقط وطنه ، بعد أن أثار عليه جماعة أنصاره ، اسمها جماعة « ريجود » وهو حزبٌ يجمع بعض البيض والسود بدعوى أنه من الخائنين المفرطين !

(٨)

ولكن هذا الحكم كان من الأجنبي ، وما كان الأجنبي بالحكم العدل في وطنه من هو وطني ، ولا في تقدير إخلاص من هو مخلص . وان عاطفة الشعب وسمعته وطاعته وقلبه وبقينه لا تكون إلا مع من هو منه . فقد اجتمع الشعبُ نحو زعيمه الذي آمن به ، فقاده « توسان » وكتب كتابه ، وجمع جنوده ، وفتح المدن ، وامتلك الحصون ، ولما وقعت جماعة « ريجود » في قبضته أخذهم إلى الكنيسة ليعظّم ووهبهم طعاماً ولباساً وإيواء !

أجل ، كان هذا الحكم من الأجنبي وقد صدر تصريح سياسي بيان مطبوع ، وُزّع على الناس باتهام « توسان » بتفريطه في حقّ الوطن وطبعاً كانت يد الأجنبي هي المُحرّكة ، ولكنّ عين الشعب تحدو زعيمها بكلّيتها ورعايتها . وعين الشعب لا تنى ولا تغفل . عين الشعب لا تنام .

سُحب ريجود بأمر نابليون ظاهراً ولكن الواقع الصحيح أنه غلب على أمره . ثم وافق نابليون على أن يحكم الجزيرة « توسان » ولكنها مُوافقة اضطرار ، ليس فيها من الموافقة إلا لفظها وظاهرها !

(٩)

وهنا قصة رائعة، عن وطنية رائعة، في هذا الزنجى الرائع .
أظهر نابليون لتوسان رغبته في أن يُطَبَّعَ على عِلْمِ هايتى بحروف من ذهب
هذه العبارة: « أذكروا معشر السود الشجعان أن الجمهورية الفرنسية هي التي
منحتكم الحرية ». ولم يكتب نابليون بإظهار رغبته تلك بل أصدر أمره بها . . . !
شيء جميل حقاً !

ولكن ماذا كان موقف « توسان » الذي اتهمه الأجنبي بأنه متساهل ، وأنه
ضعيف ، وأنه مُفرط ، وأنه خائن ؟

هل قبل توسان ، الثاقبُ البصيرة ، المتهبُّ الغيرة ، النزیهُ الطَّعمة . الشريف
السُّمعة ، الصادقُ الوطنية . . . هل قبل توسان أن يصدع بأمر نابليون فيكتب
على علم وطنه ما يُشعر بالتَّبعية ، وفَضْلُ الغير على أبناء جلدته ؟

وهل صحيح أن الحرية السياسية قد مُنحت لأهل هايتى من فرنسا ، أم انتزعت
منها انتزاعاً ؟

وهل الحرية القومية مُنحة تُمنح ، أم هي حقٌ طبعى للجميع ؟
الواقع أن توسان قد رفض مطلب نابليون . رفض أن ينقش أ كذوبة كهذه
على علم بلاده . رفض أن يُطَبَّعَ ما لا يُشرف قومه على عُنوان كرامتها ، وصَفحة
نهضتها . وكتب لنابليون بذلك . . . ثم أصدر بياناً يدعو فيه الى الوئام . الى
الوَحدة . الى الطمأنينة . الى التسامح . الى السكينة . ولكنه مع ذلك كله رفض
في إباءٍ مطلب نابليون

كان توسان يُقدِّر الدسائس التي تحاك ضد بلاده في باريس ، فبدأ يكتب لنابليون
في سبيل قضية بلاده ، وكان توسان في ذلك نِعَمَ المحامى القدير ، ونعم الوطنى العظيم

(١٠)

ما تزال البلاد تتصل بفرنسا القوية . فرنسا التي دَوَّخت أوروبا في تلك الأيام . أيام الثورة الفرنسية . أيام نابليون بونابرت . وما يزال لفرنسا سفيرٌ سياسىٌ ، وإن كان الحاكم توسان الوطنى العظيم .

بل ما تزال دسائسُ الدولة المستعمرة مُستمرّة لا تنقِطع . وما يزال السفير يتدخل في أمور البلاد الداخلية . . . وإذا لم يتمكن من شىء من تصريف أمورها طبقَ مشيئته ، أو لم يتمكن من خَلْق أحزاب تُناصره وتؤيده ، أو تُعاكس توسان وأعماله الوطنية ، فإذن إلى الدسّ والختلِ ، وإلى خَلْق المشاكل والمعضلات ، فإذا كان من توسان الوطنى العظيم ؟

لم يتردد في وَضْع حَدٍّ لهذا كله . . . وأخيراً اضطرَّ إلى القبض على السفير الفرنسى ، ووضعَه على باخرة لتَقْلَهُ إلى بلاده . . . إلى فرنسا ؟

توسان الحاكم الزنجى يطرد سفيرَ فرنسا ثم يقال عنه من حاكم فرنسا السابق قبله في بيان يُذاع بين الأهلين : إن توسان وطنىٌ خائزٌ ، ومفرط فاطر .

(١١)

ولكن توسان الزعيم الوطنى ، قد وهبته الطبيعة ذكاءً سياسياً مفرطاً . لقد وجد لاسبانيا اقطاعات أسبانية في وسط البلاد الهايتية . وإذا كان لفرنسا صلةٌ سياسية انتدابٌ أو استعمار . أو حكم أو ما شئت . ما صفة أسبانيا ؟

ولماذا لا يغزو هذا السياسى المحنك تلك الأراضى ليضمّها إلى بلاده لأنها قطعةٌ من بلادها ؟

ستقوم عليه أسبانيا وهو في نفس الوقت قد أساء إلى فرنسا إذ قبض على سفيرها وطرده طرداً . ثم أساء إلى نابليون إذ رفض كتابة العبارة الذهبية المسيئة

لكرامة قومه مهما كان نوع عَسْجدها وقيمة ذَهَبِها . فإذا يفعل إزاء تلك المشاكل
الْحَرِجَةُ الدَّقِيقَةُ ؟

وجد الزعيمُ الوطني حلاً حكيماً يتفق والظروف السياسية التي تُواجهها بلادُه ،
وهذا الحلُّ الحَكِيمُ يقضى أن يطرُد أسبانيا باعتبار أن صلة البلاد قائمة مع
فرنسا ولو في الظاهر . وهكذا فعل وبهذا وُفِّق ونجح !

(١٢)

ولكن شيئاً آخر يُريده . يريد دستوراً كاملاً . وحريةً كاملةً الآن يريد
أن يستفيد قومه برجالاته وأقطابه . يريد المساواة السياسية الحقّة . يريد أن تكون
شريعة الزواج قُدسية . يريد أن يجعل مرافق البلاد للجميع . ثم يريد شيئاً آخر
لا ريبَ في أنه أفزع فرنسا وهالها . وذلك الشيء الآخر هو حرية الاتجار مع
الغير . وكيف تقبل فرنسا ذلك وهي تعتمد في ذلك الحين على خيرات تلك
البقرة المُدِرّة ؟

أجل ! لقد كان «توسان» أول من فكر في حرية التجارة قبل السير روبرت ييل
بخمسين سنة . . . أو على الأقل كما يذهب الى ذلك مؤرخه « آرثر مي »

ولقد كتب «توسان» بكل ذلك الى فرنسا . وبعث بشروعاته الى نابليون ،
الذي ضاق به ذرعاً ، والذي لم يجب على عشرين كتاباً له .

ضاق نابليون ذرعاً بكل هذا . فقد وجد رأياً عاماً جديداً يحترف تلك الجزيرة
أجترافاً . وجد في باريس في برلمانها صرخات من هؤلاء الزوج ووجد شيئاً
جدياً ليس بهزل ولا لعب . وجد دعوة متأصلة ، وحماساً قوياً ، وإيماناً راسخاً ،
رجالاً يُحفل بأمرهم ويُحسب حسابهم .

ضاق نابليون ذرعاً بكل هذا ، فقرر إرسال تجريدة لتربية هذا الزنجي الثائر

في الواقع . المطالب بحقوق قومية في ظاهر الأمر . وقرر أن تكون التجربة قوية لتردع القوم لأن الدعوة القومية قد تأصلت في النفوس . فإذاً يجب أن تكون ثلاثين الفاً من خيرة جُند باريس . وإذاً يجب أن ترحل تلك القوة إلى «هايتي» ، ويجب أن يكون على رأسها شخصٌ يثق فيه نابليون . وإذاً يجب أن يكون ذلك الشخصُ زوجَ شقيقته الجنرال « لكرك »

(١٣)

نعلم أن توسان ولدَيْن يتعلَّمان في باريس . فلماذا لا يستغلّ نابليون، المعروف بانتهاز الفرص ، وأنه ما كيافلَى النزعة ، أو مُعاوني السياسة . لماذا لا يستغلّ الظرف ؟ أليس في مقدوره أن يدعو ولَدَي توسان إلى وليمة وأن يهدي إليهما ما لذّ وطاب ، وما جُلّ منظره ، وإن ساء مخبره ؟

أليس في مقدوره أن يبعث بهما مُكرّمين مُعزّزين برسالة أو هدية أو كتاب ودّ ونُصح ، على باخرة ثم يتبعهما في التوّ واللحظة بذلك الجيش العرمرم، تحت إمرة صهره ، الذي يحمل أمراً رسمياً « ديكريتو » بإعادة حالة جزيرة هايتي إلى ما كانت عليه قبل عام ١٧٨٩ ؟

وما معنى ذلك ؟

معناه أن نابليون بجِرة قلم ، قد حكم بإعادة الرقّ والعبودية على أهالي تلك الجزيرة ، لأنها تُطالب بالمزيد من حقّها الطبيعي في الحياة والوجود . وهكذا فعل وقد أضمر في نفسه أن يتخلص من هذا الزعيم الوطني العظيم .

(١٤)

سيثون باخرة تحمل زهرة الجنود الفرنسية قد رست الآن إلى جزيرة هايتي وقد خفّ « توسان » لاستقبال ولديه بعاطفة الأب ، فماذا رأى ؟

رأى « لكارك » وقد دفع خنجره تحت رداءه وفهم ما وراء عصام ، فأسقط في يده ، ورفض أن يستقبل الأسطول ، وإن كان يحمل فلذات كبده وسويداء قلبه . وقد حاول لكارك أن يُقنع الوالد عن طريق ولديه بمنصب القائد العام إن سلم وأُتاب ، ورجع وتاب . . . وإلا فهو خارجٌ عليها ، وعليه حكمُ الخوارج العُصاة . ففضل الثانية على الأولى وكان لوطنه من الأوفياء المخلصين .

أعلن الفرنسيون الحرب . وكانت حرباً ضروساً أبلى فيها « توسان » وأبناء وطنه البلاء الأوفى حتى غلب الفرنسيون على أمرهم ، واعترف « لكارك » مرغماً بحرية البلاد ، كما كانت ، وبسلطان حاكمها الوطني توسان كما كان ، وعاد السلام الى ربوع هايتى ، بعد أن وعد القائدُ الفرنسى باحترام حقوق البلاد ، وترك تصارييف شئونها جميعاً الى زعيمها الوطني توسان .

ومن الممتع أن تقرأ لتوسان قوله للقائد الفرنسى وقد سأله من أين يجمع الأسلحة ليحارب بها الفرنسيين فأجابه : « أغتصب الأسلحة منكم أنتم ! . . »

(١٥)

لترك ذكر الطاعون الذى أصاب الفرنسيين والوطنيين فى تلك الأيام لأنه من يد الطبيعة وصنع القدر ، ولنذكر طاعوناً آخر أشدّ خطراً على الأدمية من فتك ذلك الطاعون الطبى لنذكر ذلك الطاعون الخلقى . . . طاعون الخبث ، والختل ، والدس ، والخديعة ، اذا ما ذكرنا كيف سبق توسان ، وأولاد توسان ، وأسرة توسان ، الى فرنسا ليُلقى بزعيم تلك البلاد فى غياهب السجن ، لأنه كان وفياً لبلاده مُخلصاً لقومه .

يقول « آرثر مى » : إن نابليون زعيم البيض لا يستطيع أن يحتمل توسان زعيم السود . أو أن عصرهما لا يمكن أن يحتملها معاً . . . لذلك استدرج « لكارك »

القائد الفرنسي «توسان» الحاكم الوطني الى حُجرة حيث أُختفى فيها عشرون ضابطاً مُدجّجين بالسلاح ومن ثَمَّت الى الباخرة... الى فرنسا. وهنا يجب أن نذكر طاعونا آخر... هو شقيقة نابليون وزوجة القائد لكرك... فقد كانت مُستهترّة غير حافلة بشيء إزاء مَلذّاتِها ومَسراتِها وسهراتِها وحفلاتِها...! وهنا يجب أن نذكر مَوْقفاً مشرفاً لصديق توسان وأحد أتباعه وهو «العجوز كرسstof» وقد طلب اليه أحد الضباط أن يَشرب نخباً فقال له: «ألا تعلم أيها الشيء الأبيض التافه، أنني أشرب دمك أنت ودم قائدك...» ثم انفجر مرّجلاً غضبه، وطالت خطبته وحملته، حتى انقرب عقد الاجتماع، وقد تملك الفرع الجميع.. ولا يعلم إلا الله ماذا كان من أمر شقيقة نابليون. وإن كان التاريخ يقول: إنها سافرت الى فرنسا وحدّها، لأن زوجها قد أصيب بالطاعون أخيراً، ثم دفن مع العظماء في «البانثيون»، وكان الأجدر أن يُدفن فيه مُقارعه الكميّ الباسل، ذلك الزنجي الوطني العظيم الذي ترك في معقل «جوكس» حيث وجدت جثته بعد أيام.

(١٦)

وانكم سائلوني بلا ريب عما كان من أنصار «توسان» العظيم. لقد ثاروا ولعلكم قد قرأتم ما فعله «دسالين» وغيره من كُماثهم. لقد قتلوا في الفرنسيين شرّ تقتيل، وشرّ دوهم هنا وهناك في أنحاء تلك الجزيرة، ولم يهلكهم قتل ستة عشر من صناديدهم، ولا اعتقال من اعتقل من زهرة رجالهم. ولم تهجع لهم عين إلا بعد أن رحل الفرنسيون تحت رحمة المراكب الإنجليزية، عن تلك الجزيرة المقدّسة لذكرى بطلها الوطني العظيم. الذي كتبنا لكم موجز حياته للذكرى. وللاذكرى فقط. والذي اقتبسنا جُلّ ما فيها من حقائق ووقائع مما دَبّجته يراعة مؤرّخ انجليزي مُنصف هو الأستاذ «آرثر مي» لا من عندياتنا ولا من مخيلتنا، وكتبناها هنا للتاريخ وعظة التاريخ.



ادوار بوك

تاريخ صفى عصامى فطير

ادوار بوك الهولندى الأمريكى

(١)

هى قصّة تدعو الى الإكبار كما تدعو الى الأقتداء ؛ وكيف بكم لا تكبرون الإرادة القويّة فى الرجل القوى الذى لا يعبأ بالحياة وصعابها ، وما إليها من جلاذ وكفاح وأتراح وأفراح . ثم لا يدفعكم إكباركم الى الأقتداء بها وهى من المثل العليا فى القدرة على الدأب وراء الغايات فى غير ممل ولا كلال ، وفى إدراك المرء واجبه نحو نفسه وشعبه . ثم فى القيام بها على خير مثال .

هى قصّة تدعو الى الإكبار كما تدعو الى الأقتداء . أمّا عن الإكبار فحسبكم عنه الجهود العظيمة التى بذلها صاحبها فى تكوين نفسه ، وفى شق الطريق لها وسطّ محيطاتٍ مُدلهمة ، وأجواءٍ قاتمة ، وعوزٍ وخصاصة ، وفقيرٍ وإضاعة ، وفى بلادٍ ليس له فيها « ناقةٌ ولا جملٌ » محتلاً من الأعباء كلّ ثَقِيلٍ وعسير . حتى بنى لنفسه مجداً باذخاً ، وأسماءً نابهاً ، وجاهاً عريضاً . وأما عن الأقتداء فخلق بمن كانت هذه جهوده أن يترسم كل محبٍ للكمال خطاه لينى لنفسه مثل هذا المجد الباذخ والجاه العريض .

تلك هى قصّة المهاجر الهولندى « ادوار بوك » صاحب كتاب « تاريخ حياتى » ذلك الكتابُ الممتع الذى نشره على الناس « ثورنتون بتروورث » وقدمه اليهم الراحلُ الكريمُ « اللورد نورثكليف » شيخُ صحافةِ البريطانيين عن شيخ صحافةِ الامريكانيين .

(٢)

هنا قصة تدعو الى الإكبار حقاً كما تدعو الى الاقتداء ويكفى أن تعلموا أن « اللورد نورثكليف » الذي أرجو أن أحدثكم عنه قريباً ، والذي لا تزالون أنتم وملايين الناس، تستمتعون في ساعات فراغكم بما تستمتعون به في سواع فراغكم من قراءة صحفه العديدة الواسعة الانتشار ، في رخص ثمن ، وجزيل نفع ، وتعدد موضوعات . يكفى أن تعلموا أن نورثكليف هذا شدة ما يمتنى بكل ما في مقدوره من حَوْلٍ وطَوْلٍ ، أن يضع في حوزة كل شابٍ — داخل في مُعترك الحياة لأقحام صعبها ، وأرتياد مجاهلها ، وتكوين مستقبله في معيشتها وميدانها — قصة ذلك المهاجر الهولندي الذي حطّ رحاله مع أسرته وهو لم يعد السابعة من عمره في الولايات المتحدة ، وقد عَصَّ الدهر أسرته بنابه الأزرق ، وتنكرت لهم الأيام بعد صفاء ، فأضاعت ما لهم من نَشَبٍ وثرأ ، أو إن شئت فقولوا أضاع الوالد بمشروعاته الفجّة^(١) العقيمة ، ومخاطراته الطائشة ما كان لهم من مالٍ وعقار . وأصبحت الأسرة الكبيرة العدد ؛ من والدو والدة وصبيّة أربعة ، يعبت بهم القدر القاسي عبث النكباء بالعود .

بل يكفى أن تعلموا أن « ادوار بوك » صاحب قصّتك هذه بدأ حياته بعمل لا يُصيب منه إلا العلالة قطرة قطرة ، حيث كان ينحت من جُلُود الزمن ما لا يزيد عن العشرة القروش عدداً في جهد سبعة أيام . بدأبٍ ونشاطٍ ، وكِدِّ وإِعنات ثم انتهى به مَطافُ جهده المتواصل ودأبه الدائم الى أن أصبح شيخ صحافة الأمريكان ، والرجل النافذ الكلمة الذي يُشار اليه بالبنان .

(١) الفجة : التي لم تتضح ولم تهتأ بعد .

(٣)

ما أقسى يد الزمن ، ولكن ما أعدل ميزان القدر ! تُصيبُ الإنسان الضائقةُ
وينزلُ بساحته الإعوازُ ، ويُعذبُ بيران المتربة والإعسار ثم تُصهرُه الحاجةُ
والفاقةُ — كلُّ هذا صحيحٌ لا ريبَ فيه ، بيدَ أنه يخرج من هذا كله ، إن كان
ممن أُوتوا العقلَ الرجيحَ ، والنفسَ الوثابة ، والبصيرةَ الثاقبةَ السديدة ، وقد تسلحَ
للجهادِ بأسلحة لا تُفلِّ ، وهمّة لا تكلِّ ، وعزيمة لا تخور ، وجلد لا ينصرم ،
وذخيرة إرادة لا تنضب ولا تنعدم .

وقد تُعطى الدنيا باليمن وتأخذُ بالشمال ، ثم هي لا تجود بمعاونتها وميسرتها
إلا في القليل وبالنزر التافه ، ثم هي مع قِلِّها وشحِّها ، ومع تلوثها وتنكرها تُخرج من
فوريقتها ما يدعو الى التجلُّد ، ويبعث على الأمل ، مع ما فيها من إضاقات
وغصاصات ، ومع ما يحفّ بطريقها من شدائد وصعوبات .

أليست الحاجة تدعو الى السعى ؟ ولعمري إن السعى ليحمل على أكفِّه العيلةُ
أو الواهية نُجْحاً أو خيبة ، فإن كان نُجْحاً فهو وسيلة التوفيق ، وإن كان خيبة فهي
الأمّ الولود لكل توفيق .

ألا إن المالَ مصدرُه العُدْم . والخطأ طريقٌ الى الصواب ، وما كان التوفيقُ
إلا بعد تجاربٍ مُستمرة من كبواتٍ وهفواتٍ وفشلٍ وخطلٍ ، وما كان النجاحُ
إلا بعد عثارٍ يتلوه عثارٌ ، وعملٍ في إثر عملٍ ؛ فلا تنالن الصعوبات من قلوبكم وحزمكم
وأصالتكم ، ولا تتضاءلون إزاء الشدائد والإحن ، فلعمركم إن اليأس ليذهب إرادتكم
شعاعاً ، ويذيب نفوسكم ألتباعاً ؛ بل إنكم لجديرون بأن تترقبوا من الخطأ صواباً ،
وبعد كبوة الدهر استقامة واتصاباً ، وإنكم لجديرون ألا تخشوا الفقر وإن تقوه ، وأن
تخشوا الغنى وإن أردتموه ، وجيلٌ بكم أن تقولوا في إيمانٍ « لأحبُّ اليأس أن نولد فقراء

فنسعى ، من أن نولد أغنياء فنضِلَّ ونطنى ، أو نتبدل فنشقى »

تلك صفحة ستقرؤها بعين رويتكم من تاريخ ادوار بوك الذى ستعلمون ما كان من أمر مخاطرة والده بماله ، واضطرار الابن للكفاح صفر اليدين إلا من حوليهما وقوتيهما ، خالى الوفاض إلا من إرادة مُرَهَفَة ماضية ، وعزيمة قوية وثابة ، وروح فياضة ناهضة ، ومن ثمَّ قد آن لكم أن تُلِمُّوا الإمامة موجزةً بصنوف كفاحه ، وأن تَطَّلِعُوا معى على فصلٍ من مُسببات نجاحه .

(٤)

نعلم أن صحفيَّنا الأمريكى الكبير هولندى الوطن ، وأن مدينة « هلدِر » الهولندية لها الشرف العظيم من بين مُدُن هولندة الجميلة ، إذ أنجبت « لادوار وليم بوك » بطلَ موضوعنا فى اليوم التاسع من شهر اكتوبر سنة ١٨٦٣ ؛ ونعلم أن والده رحل بأسرته الى الولايات المتحدة ولما يتجاوز « بوك » السابعة من عمره ، وأن طفلنا كان يدرس بمدرسة « بروكلن » نهاراً ، وفى غيرها ليلاً ، وقد نعلم ما بعد تلك المراحل من حياته من صنوف جهوده القيمة الجميلة ولكننا بأمرٍ حاجٍ لأن ننظر نظرة إنعام وتروية ، ونظرة عطفٍ وحنانٍ إلى البيت الذى نشأ فيه وترعرع ، وإن كان السرِّ فى السكَّان لا فى المكان كما يقولون ! فى ذلك البيت الفقير الحقير الذى تنطق مبانيه فيما تنطق عن فقرٍ وعوزٍ ، ونُضوبٍ معينٍ ، وقلة مال

بدأ « بوك » منذ السابعة من عمره مع شقيقه الأكبر يساعداً ربة المنزل فى عملها المنزلى ، وما كانت ربة المنزل إلا أمه المسكينة التى اضطرها سوء الحال ومثربة الزوج ، وقلة الرزق الذى ما كانوا يصيبون منه إلا القطرة بعد القطرة ، الى استخدام ولديها ساعات البكور ، وعهدت إليهما بإيقاد النار ، وإنضاج الطعام وغسل الأواني ، وشتى المطالب المنزلية . ولعمركم ما كانت فترة راحتيهما إلا حيث

كانا يذهبان الى المدرسة حتى إذا ما عادا ، وأتھيا من استظهار دروسھما ، وأداء واجباتھما المدرسية ، واصلا في الأصل ما بدأھ في البكور من عمل يراه البعض مُزُرياً وأراه نبيلاً مُشرِّفاً ، وقد آن أن ينظر الجميع الى كل عملٍ ما دام منتجاً نظرة احترام وتقدير ، فطاھى الطعام في مطعمه ، والخدام في بيته ، ومنظف الملابس في عمله ، وكل أولئك فُرضَ علينا احترامهم وتقديرهم ، لا نبذهم وأحتقارهم ، بدعوى انحطاط ما يتناولون من أعمال . فالعمل^(١) وإن قلَّ وصغر ما دام الى الخير فهو إكليل من الشرف ، وشعار الفخار على رأس العامل أنى حلّ وأنى ارتحل .

ولتَعَلَّمنَّ غير مُعلِّمين أنَّ سنَّ الطفولة مع الفقر أو الغنى لھى سنُّ الصَّخب والضوضاء ، والسعادة والھناء . ھى سنُّ العبثِ والمرح ، والضجيج والفرح ، ولكنَّ العملَ الدائمَ ، العملَ المستمرَّ ، العملَ من حيث ھو ، سواءً أكان عملاً يدوياً ، أم عملاً عقلياً ، لھو خيرُ مدرسةٍ تَهْدِي بيَّةَ تَغْرِسٍ في الطفل صفاتِ الرجولة وإن كان لم يتجاوز بعدُ سنَّ الطفولة ، وتراھم كالْفروخ بعد خروجها من البيض ، ينبت العمل لهم ريشاً من الخبرة يقيهم عواصف تلك السنِّ المَرِحَةِ الطائشة ، كما أنَّ لهم منقارا صلداً قوياً يلتقط الرزق التقاطاً ، وأرجلاً شديدة المِرَّاس تحمِلهم إلى حيث الكَلأ والمرعى ، وأجنحة غزاراً تطير بهم الى كلِّ مكانٍ حيث يُصيَّبون منه شِبَعاً وريّاً .

فاذا كان « بوك » قد تعذب في طفولته وھو ينفث بأنفاسه الحارّة في أعواد الحطب ، وقد تخلّل الدُخانُ عَيْنِيهِ وخالطَ رِئْتِيهِ ، فقد وُفق بعد أن أفلح في إنضاج طعامه يديه ، أن يُصيب في مستقبل أيامه رزقه الوَسيع بدينك اليدين الماهرتين أيضاً

(١) يقول المثل العربى : « كلب اعتس خير من كلب رفس » يضرب في التشويق الى السعى والكسب

(٥)

ولنلقِ الآن نظرة عِظَّة واعتبار إلى طفلنا الدَّوبِ وهو في طريقه إلى المنزل حيث وقف أمام ألواح زجاجية في حانوت خباز .

وقد يدور بخلدكم أن عَوَزه وقصور يده عن تناول ما لذ وطاب من شهيّ الحلوى وجودة الخبز مما حرك فيه الشهية ، وأسأل منه اللعاب . وهو لا يزال بعد طفلاً ، وللطفولة رغبة جامحة لا يردعها عقل ، ولا يقلّ من حدتها حزيمة ، ولا ينقع من غلتها برد القناعة ، ولا تنزل بساحتها حكمة التجلد ، ولا يُلطف من غربها مرهم التأسي وترياق الأمل . وقد تكونون مُصيبين في فراستكم إلى حد بعيد لأن الطبيعة البشرية واحدة في منحي تصرفاتها ، ونزولها عند مضطرم رغباتها ، بيد أن الواقع في موقف بطلنا الصغير غير ما تصوّرتم ، فقد وقف ينظر إلى زجاج الخباز يتخيل له من ورائه منفذ عمل ليصيب منه رزقا ، عساه يستطيع به معونة أمّه ، وعساه يوفق بعد أدائه إلى توسيع رزقها ، وترفيه حالها ، وترغيد عيشها .

فأذا رأى ؟

لقد رأى الزجاج بحاجة إلى النظافة ، ورأى أنه في مقدوره . وهو لا يزال بضّ الإهاب لم يعد بعد مِعة الطفولة أن يغسله ويلمعه ، ويعمل على إزالة أدران الذباب من صفحته ؛ فلم يتردد في الدخول على صاحب الحانوت والإفضاء إليه بمقترحه ، وعرض الخدمة عليه ، فقبل الرجل رأيه ، وعمل على استخدامه في تلك الدائرة الضيقة ، وأتفق معه على أن يعطيه خمسين سنتيما كل أسبوع على أن ينظف الزجاج في خلاله دفعتين .

بأشر طفلنا عمله بهمة الراغب في تحسين حاله ، والأستفادة من ظرفه المتاح ،
ثم حَدَّثَ أن تغيَّب الخبَّازُ برُهةً عن حانوته وعاد بعدها فلاحظ ما أقرَّ عينه ،
وأثْلَجَ منه الفؤاد .

لاحظَ طفلنا الصغيرَ يُلَفِّ الفطائرَ بِإحكام وإتقان ، فرأى ألا تُفْلِتَ الفرصةُ
من يديه ، وعملَ من فَوْره ولحظته على أَسْتخدامه بعد ظُهر كل يوم في مساعدته
على حركة البيع والشراء ، نظيرَ منحه ريالاً فوق أجره الأصلي ، وأَغْبَطَ الطفلُ
بعمله الجديد سَوَاع فراغه من دراسته ومن عمله المنزلي ، إذ تَمَكَّنَ فيهما أن يفيدَ
أُسْرته ويُسعدَ والدته . ولم يتردَّد البتَّة في الإِتياق مع الرجل على الحضور يومياً بعد
كل ظهر ، على أن يستريح بعد ظهر كل سبت ، حتى لا يُحرَمَ طفولته وأُسْرته ممَّا
يعود عليه وعليها من رياضة أو راحة ، أو أَسْتئناف خدمة هم بحاجة إليها .

(٦)

ولكنَّ همةَ الطفل لم تستمرَّ راحةً السبت . وسواء أجاأت هذه العطلةُ
وَفَقَّ طلبه هو ، أم لأنَّ العادة قد جرت بإِقْفال الحوانيت بعد ظهر ذلك اليوم ،
فإنَّ الطفل قد فكَّرَ طويلاً في طريقة تُمَكِّنُه من العمل والربح ذلك اليوم ، إذ
هو أيضاً يومٌ عطلةٌ مدرسية .

وَفَقَّ الطفل أخيراً الى الانتفاع بتلك العطلةِ فاستغلَّها في توزيع الصحف ،
وتناولَ على ذلك ريالاً آخر . وبذلك أصبح أجرُ طفلنا في ساعات فراغه من
الدراسة ومن العمل المنزلي ريالين ونصف .

أجل ! استطاع ذلك الطفلُ الصغيرُ الجسم ، الكبيرُ العزم ، أن يستفيد
ويزِيدَ في دخل والدته ما يقربُ من جنيهين كلَّ شهرٍ ، ومع ذلك لم تقف همته
عند حدٍّ ، بل راح يُفَكِّرُ في المزيد .

وهأنذا مُوافيكم بما فكَّرَ وفيما عمل : —

إلى جوار منزل أُسرتَه ، تقف الخيول التي تُستخدَمُ في جرّ عربات السفر من « بروكلى » الى ما جاورها من المدن والقرى . وهناك مَسْقَى لشربها ، فلماذا لا توجد هناك مَسْقَى أخرى لشرب الرجال ؟

تطوّرت الفكرة فقام يحمل بنفسه الماء للعطشى من المسافرين ، فأصاب من ذلك حوالى ستّ رِياّلات أسبوعياً وكان يقوم بذلك بعد ظهريّ الأحد والسبت ، فأفاض على أُسرتَه أخلاف الرزقِ مِدرارا .

فما عثم طفلنا الصّناع « بوك » أن أضحي حديث المجالس والبيوت ، حتى أن صغارَ الأطفال الذين فى سنّه قد ساقتهم أمهاتهم الى تقليد « بوك » فأصبح له فى عمله الجديد مُزّاحون عدّ ، ومنافسون كثيرون ، فماذا فعل ؟

هل تسرّب اليأسُ الى قلبه فترك ذلك العمل أم هل حَسَرَ عن ساقه ، وقدح زناد فكره ، بما ينقذ الموقف ، وبما يحفظُ عليه رزقه ؟

لقد ذاق حلاوة الربح بعد مترّبة لفَحْتُهُ بِلَظّاها ، وحرقة باوارها ، فمحالٌ على مَنْ فى مثل همّته أن ييأس ، ومحالٌ له أن يترك الحبل على الغارب ، ويستنيم للظروف وولادتها ، وللأيام وسوانحها ! وهذا ما فعله طفلنا العزيز ، فقد رأى أن خيرَ طريقٍ منتجة للقضاء على منافسيه أن يقدّم للمسافرين شراباً حُلُوَ المذاق ... ليمونادة بدلاً من الماء ... وأن يجعل ثمنها كثر من الماء أو أقلّ ... ونادى من قلبه « كوبه الليمونادة بثلاثة سنتيم » وكانت النتيجة طبعاً ، أن انهزم المنافسون ، وأحرز صاحبنا قَصَبَ السَّبْقِ ، وكان له ما أراد من احتكار ربح السوق !

(٧)

العظيم دائماً في تفكير، وتفكيره دائماً في نُضُوج ورجاحة، ثم هو يحدو بصاحبه مُدَارِجَةً دائماً إلى الأمام، ذلك لأنه بعمله المتواصل، ودأبه المستمر، يقترب شيئاً فشيئاً من مثله الأعلى، وهو في جهاده ونشاطه لا يرضى بما هو فيه من حياة مهما كانت في مجموعها أرقى من حياة أمثاله وأنداده، وإنما هو في انتقال مستمر، وتقدم دائم.

تلك كانت حال غلامنا الصغير الذي لم يَقْنَعْ بما وصل اليه من أخلاف الرزق المدرار في ربحه المتواصل !

ألا إنَّ فِكْرَ العظيم ليدخل بصاحبه في نهاية تطوافه حديقة أنفاً حسّانة تتعانق أغصانها، وتشدو طيورُها . وتلاعبُ نسائمها، . . . وجماعُ القول هي خَصْبَةُ التُّرْبَةِ، وَفِيرَةُ الثَّمَرَةِ، مُورِقَةُ الشَّجَرَةِ .

أجل ! هو كذلك حقاً، فقد أخذ طفلنا يروض نفسه وهو في خيال مستمر، وتأمل بعيد، وتفكير متواصل، على أن يصيب المزيد الى جانب عمله المنتج، مع احتفاظٍ بالظرف . واقتناصٍ للفرصة السانحة، الى أن أُتِيحت له فُرْصَةُ الوجود في مجتمع وكثيراً ما أُتِيحَ لمثله الحضور في مثل ذلك المجتمع . ولكن النادر جداً أن يَعْمَلَ أمثاله، أو يفكر لدائته في مثل ما فكّر فيه « بوك » وعمله !

لقد طرأ على ذهنه الناضج، ذهنه الذي يربو على سنّه بمراحل — طرأ عليه نوعٌ من التفكير مهما كان ساذجاً وبسيطاً، فإنه يدلّ في جملته على استعدادة بفطرته لعمله الصحفي العظيم الأثر .

وما الذي طرأ على ذهنه يا ترى ؟

لقد افترض « بوك » أنه في جَمْعِهِ أسماء الحاضرين في ذلك المجتمع وبعثه بأسمائهم

الى الصحيفة المحلية ، ونشر تلك الصحيفة لأسمائهم أثناء وصفها لاجتماعهم مدعاةً لاغتياب الحاضرين من المجتمعين ، ومدعاة لرضى أصحاب الصحيفة لأفترضهم أن من نُشر اسمه في عدد ذلك اليوم سيبادر بشرائه ، وفي ذلك رواجٌ جديد لجريدتهم . وسرعان ما نفذ « بوك » ما فكر فيه ، وسرعان ما تحقق عملياً صدق فراسته فقد استخدمه أصحاب تلك الجريدة ليكتب لهم الأخبار المحلية وقرروا له أربعة ريات عن كل عمود يبعث به اليهم .

لقد كان سن « بوك » الآن حوالى الاثنى عشر عاما وكم كان نشيطاً مُتجافاً في ذلك السن . وكم أغرى الشباب من أترابه أن يُخطروه بكل اجتماع وكل نبأ وكل مُغريّة من الأخبار ، ومُدْهشة من الحوادث . وكانت مهمته أن يصوغ ذلك كله في أسلوبه الفطري . وفطرته الاستغوائية ، فقد كان في أسلوبه الصحفي بائع المياه الذى يستغوى المسافرين ، وبائع الليموناده المثلجة التى تثلج الصدور وها هو ذا الآن الصحفي الأخبارى فى سن العبت والهو والمجون ! .

(٨)

الربح كثير ، والعمر صغير ، وليس من شك فى أن من كان مثله فى ربحه وسنه وظروف أسرته يكون له من ذلك كله مَقْنَعٌ أى مَقْنَع . ولكن النفس الطموحة والروح الدؤوبة لا يُقْنَعُهُمَا الاستقرار على حالٍ يعتبرها الشذج « والعاديون » من سواد الناس وجهور الطغام : حال رغد وثرأ ، ويُسر وهناءة .

لقد بلغ « بوك » الثالثة عشرة من سني عمره ، ورأى أن أمامه فرصة العمل بدار « التلغراف » وأنه قادرٌ على الدأب معه فى تحصيل العلم ، والأنكباب على الدرس ، ووصل المذاكرة والأطلاع ؛ ليكون له من وراء علمه وأطلاعه العُدَّة والعَتَاد فى تحقيق أمله الزاهر ، وإسعافه بطليته فيما يرجوه لنفسه من مستقبل ناضر .

ولعلكم سائلوني عن نوع الدرس الذي أكتب عليه صاحبنا أثناء حياته «التغرافية» ووقت قيامه بتلك الوظيفة التي تشبه من كل ناحية حياة الوظائف الكتابية . ولستُ بياخل عليكم التحدث في شيء من الإسهاب في هذا الصدد ، إذ شدّ ما يحتاج شبابنا عامة سواء كانوا من الراغبين في حياة الوظائف ، أم من الطامحين في حياة الحرية والاستقلال ، حياة الجهاد والإنتاج ، حياة الاعتماد على النفس وشقّ الطريق لها بالمجهود الفردي لا التوظيف الحكومي — شدّ ما يحتاج شبابنا إلى الاقتداء « ببوك » وترسم خطواته ، وأستنان سنته ، وتتبعه في مسيره وشقّ نفس طريقه .

إن « بوك » قد أحبّ القراءة ، وأكتب عليها بشوق قائم ، وحبّ هائم ... ولكنه أختصّ النوع الذي يفيد ويغني ، ويرشده ويهديه ... وهو تاريخ حياة الأبطال ... ولا سيما أولئك الذين ارتفعوا من ضعة وأثروا من مترّبة ، وظهروا من غير أصول فارعة ، وتسابقوا في غير أرومة ، وأشتهروا بارادة هي من حديد ونار ، وعزيمة وثابة لا يُشقّ لها غبار !

إنه فقير ذاق الأمرين من فاقته ، وتجرّع الصايين من خصاسته ، وما هو بغني ولا نبيل ليعتمد في شقّ طريقه على سؤبان^(١) ثرائه ، وعراقه أسرته ، وهو بحاجة إلى الكفاح وإلى التذرع بعُدته ، وهو متلهّب شوقا إلى أن يكون صاحب المقام الأوّل في أمته ، الأمر الذي حدا به إلى استيعاب سيرة العظماء من أبناء جلدته ، وإلى قراءة تاريخ حياتهم حيث يجد اللذة التي لا تعد لها لذة حينما يقف على بداية متواضعة مثل بدايته ! .

أتعرفون ماذا كان يقرأ وفيما كان يطالع ؟

(١) في الأمالي للقال : سؤبان ثراء وبرعية مال يقال عن إصابة العي والثروة

لقد بحث - وبحث طويلاً - حتى عثرت يداه على دائرة^(١) المعارف الأمريكية الجديدة . يَدَّ أَنْ ثَمَنَها فوق طاقته ... كلا ! بل كانت ثمنها مما يحتاج الى إيمان فكرته ، وقوى إرادته ، وصادق رغبته ... كان ذهنه بحاجة إلى شهى الغذاء ولذيذه ، كما هو بحاجة الى متاع اللذة ... والقراءة لعمركم هي ذلك الغذاء وتلك اللذة للذهن الانساني ؛ ما في ذلك ريب ولا شبهة ريب ... فلماذا إذن لا يحتزل من طعام البطن ولذتها بما يسعفه بطلبته في طعام الذهن ولذته ؟

على أن الذهن بحاجة بعد كدّ اليوم وعمله إلى الراحة والتنعّم بلذتها ، والاسترواح برياضتها ، والاستمتاع بنسماتها ، بقدر ما يحتاج الجسم إلى مثل تلك الراحة في الرياضة . فلماذا لا يقطعُ طفلنا مسافةَ الأميال الخمسة من منزله إلى دار التلغراف ، ومن دار التلغراف إلى منزله سيراً على الأقدام ، لا ركوباً في السيّارة أو الترام ، حتى يوفرّ أجر الركوب وهو فوق هذا قد نال الحُسنيين : نعمّ بريضة الجسم ، وتمكّن من الحصول على ما يروّض به الذهن ويرينحه ، والقراءة لعمركم من خير الوسائل وأنجعها إذ تجدى على الذهن وهو يرتاضها ويستسيغها رَوْحاً ولذّة وحُبوراً .

أجل ! إنّ ذلك كله ما فعله صاحبنا بنصّه وفصّه . مع مباشرة واستمرار ، مع الإخلاص والوفاء في المضيّ قدماً لا يلوى على شيء ، مؤدياً على أتمّ الوجوه واكملها واجبات الليل والنهار ، حتى حصلتْ يَمْنَاهُ على دائرة المعارف الأمريكية الجديدة ، فحظي بحصولها واقتنائها على غاية المُنَى ومُتعة الأوطار .

(٩)

والآن سأحدّثكم في إيجاز واختصارٍ عن مشروع جديد قد ولّته قراءاته المتواصلة في توارىخ العظماء ، وسير الزعماء ، وفذلِكَ الأبطال ، وأعمال الأقطاب

وكان ذلك المشروعُ لعمركم مما أذاع صيتَ بطلنا الصغير ونَشَرَ اسمه ، وأكثر معارفه ، وأغزر مكاسبه .

أتعرفون ما هو ذلك المولود الجديد ؟

ليس من ريب في أن روحه قد تحمست وأزدادت حميةً ونشاطاً حينما وقف من سير الأبطال على أنهم في طفولتهم كانوا مثله وصنوه ، وأنهم إنما أثروا بكدهم وأرتقوا بجدهم ، وفاقوا الأقرانَ بمثابرتهم ، وبدؤوا الأتراب بأعمالهم

وليس من ريب في أن الاستعداد النفسي كان موجوداً في الأصل ، وأن التزعة كانت فطرية ، وكل ما فعلته القراءة أنها أذكّت منه تلك الروح الفطرية ودفعته الى الشروع في جمع ملخصات عن تلك التواريخ وطبعها في بطاقات صغيرة توضع في علب « السيجارة » !!

لم يكتب « بوك » بما أصاب من علم ومعرفة بسير العظماء من دائرة المعارف الأمريكية الجديدة . . . بل كتب بنفسه الى الأحياء من هؤلاء الزعماء ، طالباً منهم موجزاً عن حياتهم ، وطرفاً من صحف أعمالهم . وكم ارتاحوا لمطلبه ، وبادروا بإجابته الى سؤله ، وتأيدوه في مهمته .

وقد تسألوني كيف خطرت « لبوك » فكرته تلك وما منشؤها . . . ؟ والأمرُ ميسورٌ تفسيره ، وليس فيه تعميةٌ ولا غموضٌ ، ولا سرٌّ ولا إبهام ، لأنه ليس بلغزٌ ولا أحجية . بل هو جدٌ ساذج في يسر وسهولة .

لقد عثر في علبة « سجائر » على صورة ممثلة هيفاء . ولما قلب البطافة وجدها بيضاء ، ففي لمحة بصرٍ حضرته فكرةُ كتابة الموجز التاريخي عن البطل أو البطلة .

« أي شبابنا الناهضين !

« عليكم أنفسكم فقوموها ، وقلوبكم النابضة فبالعلم عمروها ، وأيديكم اللدنة

فبالعمل قوّوها ، وعزّما تكم المضاء فبمُرْهفِ الإرادة انهضوها .
« أى شبّا بنا الناهضين !

« بادروا الى العمل الصالح ما استطعتم ، واتركوا التردّد ما قدرتم ، واقتحموا
الأبواب ما أمكنكم ، وتجشّموا الصّعب أتى كنتم .
« أى شبّا بنا الناهضين !

« شمّروا عن سواعد الجد ، واعملوا فى صمتٍ وسكون ، اعملوا فى مغداتكم
ومراحتكم عملَ المحسنين ، لا عمل الهازلين ، وأخلعوا جلابِ الحياء المزرى بهمتكم ،
المنتقص لكرامتكم ، والمُخمد لحماستكم إن كنتم فى النُجج المؤزر راغبين ، وفى
التبريز المؤمل طالبين .

بهذه الموعظة الحكيمة عمل شابنا الجاد ، فبحث ونقب حتى عرّف اسم
الشركة التى تطبع تلك البطاقات . وكان الكميّ الجريّ فى عرض مشروعه على
الأنظار . ولم يرح غرفة مديرها حتى أبرم اتفاقا بإعطائهم مائة من تلك الفذلكات
متضمنة طرّفا قيّما من توارىخ الزعماء والأبطال ، على أن يتقاضى ثمانى رياتٍ عن
كل واحدة ، وسرّعان ما نجح المشروع ، فطالبته الشركة بمائة أخرى . ثم بمائة
ثالثة . . . وهكذا دواليك .

كثُر العملُ على صاحبنا ، فلم يقهر ولم يخذل ، ثم فى الوقت نفسه كان ثاقبَ
النظر ، رجيحَ الحصة فلم يتكالب على العمل بحُمقٍ الأشعبيّ . بل رأى أن إسعاف
الشركة بطلّباتها المتواصلة يستدعى أيدياً عاملةً أخرى الى جانب يده ، فلم يتردّد فى
الاتفاق مع أخيه على إعطائه جنيها عن كل مُوجزٍ يقدّمه اليه لطبعه على ظهر
البطاقة ولم يحجم عن الاتفاق مع لفيفٍ آخر من الصّحفيّين فى إمداده
بما يحتاج اليه . . . وهكذا استطاع « بوك » أن يمدّ الشركة بتلك الفذلكات دون

أَتَقْطَاعَ ، وَكَلَّا كَثُرَتِ الْأَيْدِي الْعَامِلَةُ مَعَهُ كَلَّا تَضَاعَفَ رِبْحُهُ وَاتَّسَعَ صَيْتُهُ وَنَبُتَ مَكَانُهُ .

تلك بديهية طالما تدق على أنظار الشيوخ ، فهم لعظيم جدواها من الغافلين . وهكذا استطاع هذا « الحمولى » مُوزِعُ المياه ، أو إن شئت بائعُ الليمونادة الناقعة لغلة الحرّ أن يكون حمال أعباء ، وطلّاع ثنايا ، وأن يتاح له فرصة إمداد العالم الأمريكى المنسحق الأرجاء بعلم مستطاب ، وعرفان مستساغ ، مع سهولة تناول ، ومتعة ناظر ، وفي مجانية ثمن .

(١٠)

لَتَعْلَمَنَّ شَبَابُنَا ، رِعَاكُمُ اللَّهُ . وحاطكم بعنايته ، أن المشروع الصغير بخدمته بالعمل المستمرّ ، يخلق مشروعاً أكبر ، والعمل الناجح بالذّاب عليه ، والاستمرار فى أدائه ، يُنتج عملاً أكثر نجاحاً ، وأغزر توفيقاً .

لقد تفتّح المجال على مصراعَيْه أمام « بوك » وأنهالت عليه الطلبات من كل صَوْب ، وأزدحمت أمام ناظره العروض من كل حَدَب ، حتى اضطر صاحبنا أن يتعلّم الاختزال فى مدرستين فى آنٍ واحدٍ ، ليُتقنه على أسرع وجه . . . وهنا يحذر بنا أن نقف وقفة إكبارٍ وتقديرٍ إزاء تلك الإرادة الحديدية فى اكتساب العلم واكتساب الوقت معاً .

أجل ! لقد تعلم بطلنا الصغير فنّ الاختزال فى مدرستين فى آنٍ واحدٍ ، ولم يتبطّر على عمله بدار « التلغراف » بل جعله بَعْضَ نصيب عمله النهائى ، إلى جانب عمله التاريخى ، وأما فى الليل فدرس للاختزال ، وقراءة لتواريخ الأبطال ، مع إعداد نفسه ليكون صحفياً بارعاً ، ومُنشئاً خطيراً .

أى شبابنا الناهضين ! تعلموا ، رِعَاكُمُ اللَّهُ وَيَا كَم : « أَنَّ الْكِفَاءَةَ تُطْلَبُ وَيُنْقَبُ

عنها أنني وجدت . والرجل الكفء تسمى إليه أسراب الأعمال ، وتنهال عليه أمطار الطلبات وديم العروض » . وهكذا كان شأن صاحبنا المؤرخ الصحفي الشاب ، فقد احتاجت الصحيفة المحلية إلى علمه ، كما احتاجت إلى اختزاله ، وعهدت إليه أن يبعث إليها بخطبتين سيُلقِيهما رئيس الولايات المتحدة في « بروكلن » ، ولكن « بوك » الحديث العهد بالاختزال ، لم يستطع التقاط كلمات الخطيب السريع الإلقاء ، فضاعت منه كلمات ومجمل ، وهو يريد ألا تفلت فرصة أخذ الخطبتين كاملتين بنصهما وفصهما . ليكون عمله متقناً ، ومجهوده كاملاً ، خدمةً للصحيفة التي ندبته ، وبناءً لمستقبله الذي ينتظره .

أتعرفون ما كان منه ؟

هل خدع نفسه ، وخدع أصحاب جريدته فبعث بما وصل إليه ، واكتفى بما سطرت يمينه ؟

هل اقتنع بما وصل إليه مجهوده ، أو تلكأ هنا وهناك ليسأل زملاءه من مخبري الصحف عما التبس عليه وفاته ؟

كلا وربكم ؛ بل تفرّس في شخصية رئيس الجمهورية ، فوجد فيه عظمة العظيم ، وبطولة الرجل الكبير ، والعظيم لعمركم دوماً يميل إلى استحضار العزمات ، ويحسّ بنبوغه على معين الكفايات ، فذهب إليه رأساً وأدلى إليه بمجمل حاله ، وأفهمه أن مستقبله الصحفي متوقف على إظهاره خطبته كاملة غير منقصة ولا مبتورة ، وأخيراً سأله في رشاقة وكياسة أن يسمح إليه بصورة من خطابه . . . !

ولقد تفرّس فيه الرئيس من نبرات صوت كلماته ، ومن سُؤله وإلحاحه . . . الشاب الطموح للعلى ، الراغب في الرقي ، المخلص في أداء الواجب ، فأسعفه بما يريد وناولَه ما يرغب .

وهكذا أستطاع بوك الصغير أن يكون الصحفي الوحيد الذي نشر في صحيفته الخطاب الكامل لرئيس الجمهورية من بين الصحف جميعاً .

(١١)

الصحفي بنشأته يخلق الظروف للتحديث إلى القراء بكل طريف ومُستحب ، ولا ينتظر التواهم حتى تسنح له ، بل هو يخلق في السماء ، ويضرب في الأرجاء ، باحثاً مُنقّباً عن كل مغرية من الأخبار ، وكل مُثيرة للخواطر ، وجذابة للأنظار . فهو في انتقال وأرتحال ، وإدبار وإقبال ، لا يعرف للسكون معنى ، ولا للخمول طعمًا ، وإنما هو النشاط المستمر ، والعمل الدائم .

لقد سافر شابنا إلى « بوسطن » في إحدى الإجازات ، قابل الكاتب الأمريكي النابه « أوليفر وندل هولمز » ثم اصطحب مع مؤلف « هبواتا » المؤلف المعروف المستر « لونجفلو » إلى المسرح ، رفيقاً وزميلًا . . . ثم تحدث إلى مُدبّج البحوث وكاتب المقالات المستر « رالف والدو أمرسن » . . . ثم قابل العديدين من الشخصيات البارزة ، وحمة التراعات النابهة ، حتى أُتيح له أخيراً رئاسة تحرير مجلة « بروكلن » المحلية التي ازدانت بظهور مقالات قيمة لأسماء بارزة في عالم الصحافة والبيان .

يبد أن عمله النهاري في « دار التلغراف » لا يتفق في طبيعته وعمله الصحفي ، فسعى الشاب سعيه الموفق بمعاونة رئيسه في التلغراف حتى عثر على وظيفة بدار أخرى للنشر والإعلانات .

والجميل هنا أن رئيسه لم يتردد في معاونته على ترك عمله ، والأنخراط في عمل آخر أكثر ملاءمة لميوله ، وموافقة لتزاعاته ، بدلاً من وقوفه عثرة في طريقه ، فكان نعم المعين والمساعد ، ونعم الظهير والموازر ، ونعم الرئيس ساعة الحاجة ،

وكان في تصرفه الحكيم دليلٌ آخر ينطق في وضوح وجلالٍ، على أنَّ المروءوس كان متحلياً بأطيب الخصال، وأنبل الصفات .

ويظهر أنَّ الجهودَ العظيمةَ التي بذلها صاحبنا في إصدار المجلة في ثوبٍ قشيب من الإتيقان، وإقبال الكثيرين على قراءة بُحُوثِ كتَّابها المتعدِّدين، كان من شأنها إغراء سريٍّ من السَّراة على شراء مجلة « بروكلن » لا لغاية فنية أو صحفية، وإنما لتكون مصدرَ عملٍ لأبنه . . . وكانت النتيجة طبعاً أن أصبح « بوك » بلا عملٍ ليليٍّ فماذا كان منه يا تُرى ؟

هل اكتفى بما كان يُصيب من رِزْقٍ في عمله اليومي بدار النشر والإعلان ؟ كلا ! فقد مات والده وأضحى في عنقه مسئوليةٌ مزدوجةٌ من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى فإن « لبوك » شخصياً وجهةَ نظر، كان شديدَ التدقيق في الاستمساك بها، والجري على سننِها، والعمل بكل ما أُوتِيَ من قوَّة وحولٍ على تنفيذها — تلك كانت ضرورة قيام الشخص بعملين ليُدِرَّا عليه رزقين، وليُصيبَ من ورائهما أجرين .

لقد أصبح بوك الخبيرُ بأمر المقالات وكتَّابها، العليمُ بشئى البحوث وأصحابها، الواقفُ على حاجيات الصحف وأذواقها، المطلِّعُ على طلبات القراء ونزعاتهم، فلماذا لا يفتح مكتباً أو نقابةً تأخذ على عاتقها جمع المقالات، وتوزيع صور منها لتُشر في وقت واحد، ولا سيما أن في ذلك نوعاً طريفاً ليس له فيه من مزاحم ولا مُنافس . ثم هو على أحسن صلةٍ بشيوخ البيان، وأئمة الصحافة، وفي مكتبته أن يُفيد ويستفيد، بل في قيامه بذلك العمل الخطير خير عوضٍ له عن عمله الصحفي السابق الذي هو ضيقُ النطاق، قليل الأرزاق .

وهذا ما فعله صاحبنا ووفقَّ إليه، وافتتح لأجله مكتباً في نيويورك ذاتها . . .

وهناك أيضاً اشترك مع دار « سكريبنر » للنشر والإذاعة . وهناك أيضاً فكر في مشروعه الهام صدقاً ، مشروعه الذي عاد عليه بطائل الأرباح حقاً ، نعى به إصدار جريدة نسائية ، كانت الأولى في البلاد الأمريكية ، ولا غرو فمن غير « بوك » يكون مصدر مشروعات ، وصاحب تقنيات ، ومُنتج مقترحات !

لقد رأى بنافذ بصيرته . وسديد نظرته ، أن البحوث النسائية ، وموضوعات الجنس اللطيف بحاجة إلى عناية وتوحيد ، وجمع وترتيب ، وتنسيق وتبويب ، فمن غيره يكون ابن يَجِدُّها وصاحب عُذْرَتها ؟

ألم يكن « بوك » هذا هو نفسه ذلك الطفل الصغير صاحب مشروع « الليمونات » ويعمها بينما كان اللدات والأقران حملة ماء قراح ، فبذم في نفاسه السيد بتقديم أشهى المشروبات التي تُردُّ الأرواح ، في أجمل آنية وأنظف أقداح ؟

أتعرفون ماذا كانت سنه وهو المضطلع بكل هاتيك المشروعات ؟

لقد كان بوك حينذاك في الحادية والعشرين ، ولم ينهزم أمام تعدد أعماله ، وشتى واجباته ، بل رتب أموره ، وأكثر الأيدي العاملة معه ، وشارك أخيه « وليم » في مكتب الصحافة الذي أفتحه ، واشترك مع « سكريبنر » في دار النشر ، وأستخدم الأقلام البليغة ، والرءوس المفكرة ، وأصحاب الأذواق السليمة في إصدار مجلته النسائية . . . كل ذلك وهو في الحادية والعشرين من عمره .

أليس في ذلك ما يدل على الكفاية النادرة ، والقرينة الوقادة ، والعزيمة الوثابة ، والإرادة الماضية ، والشخصية البارزة ، والروح القويمة ، والنفس الكبيرة ؟

ثم أليس في ذلك كله البرهان القاطع على ما ذهبنا إليه أولاً من أن الصحفي بالنشأة يخلق الظروف للتحديث إلى قراءاته ، غير منتظر للنواهل حتى تسنح ، بل هو يُخلِّق في السماء ، ويضرب في الأرجاء ، لا يعرف للسكون معنى ، ولا للخمول طعماً

أجل ! والله إن الصحفي وغير الصحفي ممن امتاز بالمواهب الفائقة ، ومن أشربت نفوسهم معاني الرجولية والحياة ، ليعمل في كدٍّ وأجتهاد ، وفي نشاطٍ ومثابرةٍ وأتقاد ، حتى يصل إلى المطلوب ، ويحقق كلَّ مرغوب ، وهو يُحِيلُ من العسرِ يُسرًا ، ومن القفرِ نباتًا وثمرًا .

(١٢)

توقّل « بوك » في سُلّم الرقي ، وتدرّج في درجات التقدم فزاد إرادته ، وتضخّمت أعماله ، وذاع صيته ولم يتوان لحظةً عن مضاعفة جهوده ، والإكثار من منتجاته بل أخرج كتيبًا مصورًا في خمس وأربعين صحيفة كل هذا وهو لم يعد بعدُ ميعة الشباب ، وريق الصبّا . إلى أن سعى إليه المستر كرتس صاحب مجلة السيّدات المنزلية التي تصدر في فيلادلفيا ، وكانت بحالٍ زكود وموت ، يطلب إليه أن يتولى رئاسة تحريرها ، ومعنى ذلك أن يترك أعماله العديدة في نيويورك ، وأرباحه فيها مضمونة ، ومركزه فيها ثابت ، وقدمه فيها راسخة فإذا كان منه ؟

أمّا ما كان يُنتظر من سواه « العاديين » فمعلوم طبعًا ، وهو الرفض بلا ريبٍ لذلك العرض الموهوم الرّبح ، المشكوك النّجاح ، لأنّ روح المخاطرة تنقصهم ، وصدق الفراسة تُعوّزهم ، ونور الايمان يفتقرهم ، وفضيلة الاعتماد على النفس لم تُعمر قلوبهم . و « بوك » على تقيضهم ؛ ولكنه مع ذلك رأى أن يأخذ بالحزامه والكياسة أمره ، فجنح أولًا على درّس العرض ، ودرس أسباب الفشل ومُهيئات النجاح وكان من جرّاء إيمانه في درسه ، وتوفّره على بحثه ، أن قبل العرض ، وتخلّى عن كلِّ عملٍ في يديه ، ونزح الى فيلادلفيا عجيب والله أمرُ هذا العصاميّ ؟

إنه الفِرَاسَةُ مُجْتَمَعَةٌ، والدَّكَوَةُ مُنْطَلَقَةٌ، والجُرْأَةُ مُتَوَثِّبَةٌ، والشَّجَاعَةُ مُتَحَفِزَةٌ والروحُ مُتَوَقِّدَةٌ، بل هو الحَزَامَةُ والحَصَافَةُ، والإِرَادَةُ والأَصَالَةُ، لا يعرف للتردد معنى، ولا للتشكك استساغة، وليس للوهن ولا للتضاؤل أو التشاؤم لديه طعمٌ ولا مذاقٌ.

لقد سافر الى « فيلادلفيا » وأكبت على عمله الجديد إكبابَ الراغب في إحيائه، والعامل على نجاحه، وطرق كلَّ بابٍ لِرَواجِه، وبذل كلَّ جُهدٍ لتدعيم أركانه، وتقوية صُرُوحه، وأستخدم الأقلامَ النابهة لتذيع الملح والطُرفَ، وتنسيق المقالات والتثقف . . . وأستمرَّ في رئاسة تحرير تلك المجلة — التي نعلم عن أهميتها وقوتها وسعة انتشارها في وقتنا الحاضر ما نعلم — حوالى الثلاثين عاماً حتى أصبحت أولى المجلات النسائية في العالم قاطبةً.

أتعرفون أىَّ مجهودٍ صَحْنِيَّ بذَل ؟

نعلم أن إدارات المطبوعات، ودُور الصحافة الحكومية في البلدان الغربية، تجمع بين جُدرانها الخُبراءَ والأساتِيزَ والفنَّيِّينَ والعلماءَ، لِيُمِدُّوا بِمَعْلُومَاتِهِمْ كُلَّ مُسْتَفِيسٍ وَسَائِلٍ . وهم جُهَيْنَةٌ كُلٌّ فَنٍّ وَبَابٍ، وجهابذة كلِّ فرعٍ وَعِلْمٍ . ولكنَّا لم نكن نعلم قبل درسنا لتاريخ حياة « بوك » أن صحيفةً واحدةً تُعْنَى بأن تجمع بين أركانها أمثال تلك المجموعة المتقاة من خيرة الكفايات لتكون على الدوام في خدمة السائلين والسائلات، من القارئ والقارئات، فلا غرو إذن أن تتدرج صحيفته بدلاً من (٤٤٠,٠٠٠) بين قارئ وقارئة إلى درجة كان يوزع معها من أعدادها حوالى مليونين .

(١٣)

استمرَّ « بوك » في جُهوده الصحفية ثلاثين عاماً إلى أن اعتزلها عام ١٩١٩ لا ليُخلدَ إلى الدَّعة والراحة، بل ليشقَّ طريقه في البحث والتأليف لِيُخْدَمَ الشَّبابَ

بوقفهم على أسباب النجاح ، وليهديهم إلى وسائل التوفيق ، وليثبت في أرواحهم اللدنة رُوحه القوية المضطربة حياة وحمية ونشاطاً .

ولعلكم قد عثرتُم في أنباء بعض الصحف أن جائزة پولتزر مع المدالية الذهبية كانتا من نصيب كتابه « كيف أصبح ادوار بوك أمريكياً » . ولكنني أود أن أوجه نظركم السديد ، ورغبتكم المتعطشة الى كل نافع ومفيد ، إلى أن صحافينا العظيم لا يزال حتى عامنا المنصرم يخرج للقراء كتباً قيمة من تعاليمه السامية آخرها « ربما . . . أنا » وقبلها أصدر كتابه المعروف « ثلاثين وثلاثين » وقبلها أصدر كتابه الممتع « شخصان » . . . إلى غير ذلك من المؤلفات التي تبدأ من سنة ١٨٩٥ « شطر النجاح » والتي لا تزال المطابع تُطبعها بديماً فرائدها ، وجيل فوائدها حتى الآن .

على أنه من الضروري أن تعلموا أن بائع « الليموناة » وموزع المياه قد استطاع في سنة ١٩٢٣ أن ينشئ لجنة أمريكية للتحكيم في السلم ، مع تقديم جائزة قدرها ١٠٠,٠٠٠ ريال لمن يقدم أحسن مشروع عملي تستطيع باتباعه الولايات المتحدة أن تشترك مع غيرها من الدول ، للمحافظة على السلام في العالم ، على أن تدفع نصف الجائزة عند قبول المشروع من المحلفين ، ونصفها الآخر عند صدور قرار النقابة بالاعتماد . وقد نال تلك الجائزة الدكتور ت . ا . ليفومور العضو بجمعية السلام بنيويورك .

(١٤)

في كتاب « ادوار بوك » عن تاريخ حياته ، وفي سلسلة كتبه التي كتبها أخيراً ، يشعر قارئها بروح الحياة العملية تمشي في عروقه ، ثم يقف بعد فترة وأخرى على أصدق النصائح ، وأسد المواعظ التي تفتح أمام ناظره طريق الأمل ، وأبواب العمل

تعالوا معي إلى قوله في تاريخ حياته : إنه لم يعتمد في أداء واجباته على مواقيت الساعة ، ولكنه كان يؤدي تلك الواجبات على أكمل الوجوه وأحسنها ، غير ناظر لما يتطلبه أداؤها من ساعات ، وما تتطلبه من أوقات .

ثم تعالوا ، رعاكم الله وكلاًكم بعنايته ، ودققوا النظر في شتى تصرفاته ، ومنحى حياته ، وكيف يقطع الثواني واللحظات من نفيس وقته ، وكيف يفتق الحيلة ، وينحت من جلود الزمن ما ينفع عليه بجزيل النفع ، وعظيم الجدوى في روحاته وحياته ، وفي إصباحه وإمساءه . وكيف لا يتبطر على عمل أيّا كان نوعه ، وكيف يقدم في جرأة وشجاعة ، وفي كياسة ولباقة ، على كل ما يجدي عليه بعد إتمام فحسه ، وأستقصاء بحثه ، وزنته الصادقة لأوجه نفعه التي يجب أن تربو دوماً على أوجه ضرره .

بل أنظروا إلى طريقته في معيشته إزاء كثرة أرباحه وطائل مكاسبه . ترون أنه لم ينظر البتة إلى زيادة دخله فيزيد في إنفاقه . . . بل كان كلما إزداد ربحه عمل على الزيادة في الاقتصاد .

على أني آمل أخيراً أن يستغل طالب النجاح ثمين وقته ، وتوفر صحته ، وزهرة شبابه ، وأفانين علمه ، وقوة تصوره كما استغلها جميعاً ذلك الصحفي العصامي ، الذي يجب أن تكون حياته درساً لشبابنا ، وقبلة لأنظار أبنائنا ، ومثلاً حياً يترسمه صحفيونا وكتابنا .

مول تاريخ عصامي كبير

الاميركي فرانك ولوورث

صاحب الملايين وآلاف المتاجر

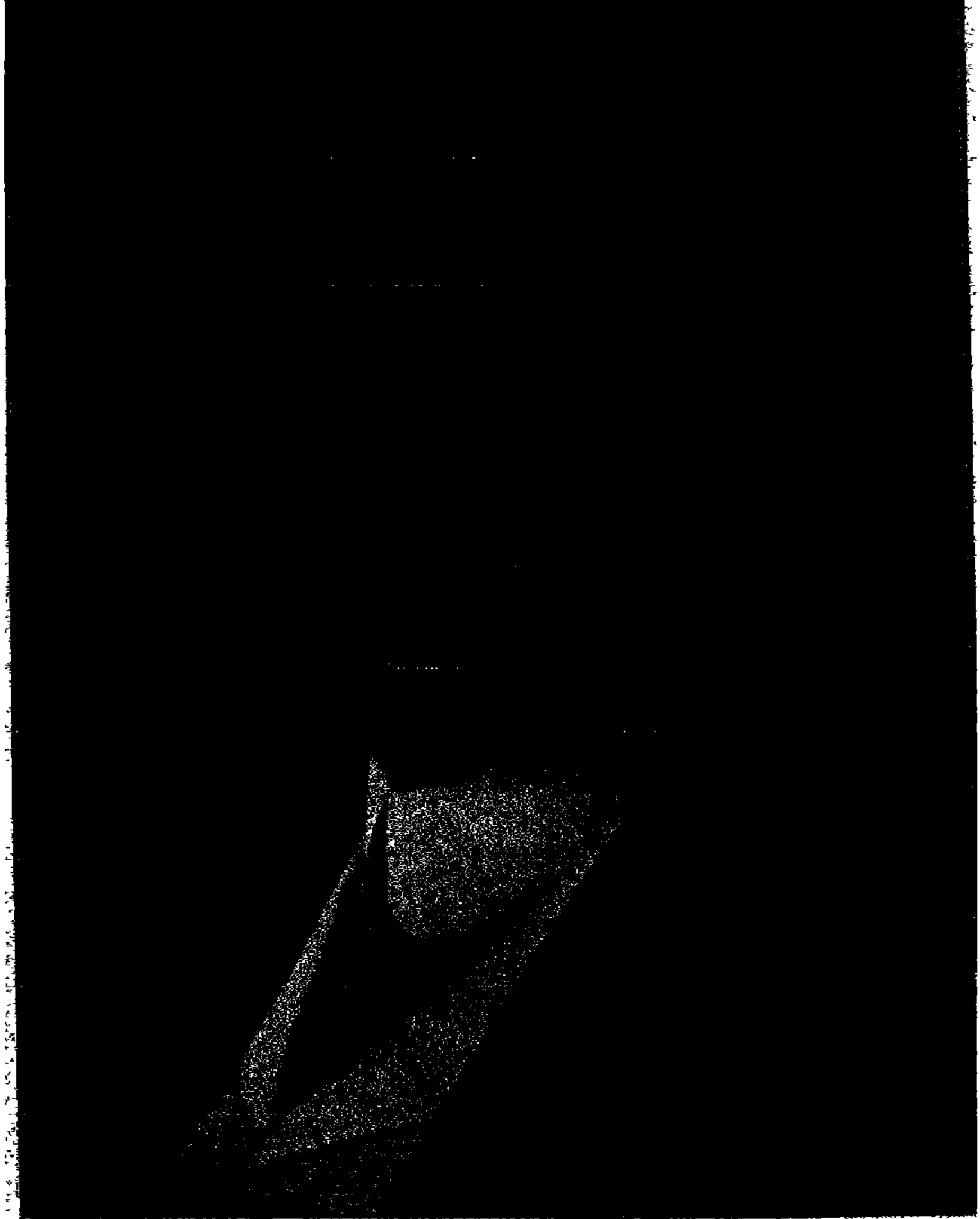
(١)

هذا درسٌ ضروريٌّ لشباننا ، لا لأنه يُرشدنا إلى الطريق السلطاني المعبَّد لجمع الثروة والمال ، ولا لأنه يتعلق بعصاميٍّ أميركيٍّ أرغم النجاح على أن يُدَّعِن لإرادته صاغراً مطأطئ الرأس ، ولا لأن نواحي البطولة فيه متعددة وبارزة في وقت واحد ، وإنما لأنه من النوع الذي يجب اعتباره بخلاصة التاريخ وزبدته ، وجوهره وعصارتَه .

لم تقم فلسفة التاريخ على ذكر الحروب وأشلاء القتلى ، ولا على إثبات المواقع والأنكسارات ، والتغلُّبات والأنتصارات ، ولا حُكم أمة على أمة ، ولا فتح دولة لدولة ، ولا استعباد شعب لشعب .

كلا ! لم تقم فلسفة التاريخ على شيء من ذلك كله ، ولم تقم على إغارة ملكٍ بجحافله وجيوشه على منافس له أو على زميل ، ولا على قيام أسرة وأقراض أسرة ، ولا على اغتصاب قائد أزمّة الحُكم من ملك توقَّل سدة الحكم إما بالوراثة أو بالغلبة أو بالانتخاب أو بالخط وأبتسام الدهر القلب الحوّل . . !

إنما قامت فلسفة التاريخ على عبره وعظاته ، وحكمه وآياته ، قامت على تفهّم حياة الشعب ودراسة شئون تقدّمه وفلاحه ، وسعادته ونجاحه . قامت على الوقوف على أسباب رُقَى الأمة اجتماعياً واقتصادياً وأدياً وسياسياً . قامت على الدراسة الدقيقة لحياة الزعماء الحقيقيين . قامت على الرغبة الصادقة في الاقتداء



فرنك ولوورث

الصادق للمثل الصادقة . قامت على الحرص في الاستفادة من تجارب الغير ،
وصُور الحياة لِمِحَن الغير وسعادة الغير .

(٢)

الحياة قد تكون عَذْبَةً التكاليف ، ميسورة الأعباء ، وقد تكون ثَقِيلَةً مَقِيَّتَةً
مُسْتَعَصَاة .

ولكن الرجل الصبور الدؤوب يَخْلُقُ من أجاجها عَذْوَبَةً ، ومن عُسرِها يَسْرًا
ومن شامس صعبها كلَّ سهل ذلول !

الرجل الناضج المكتمل لمعانى الرجولية هو الذى يُمَسِّكُ بقبضة إرادته القوية
الشكيمة دَفَّةَ سفينة الحياة ، فلا تَحُورُ نفسه أمام زوابعها وأعاصيرها ، وأمواجهها
وجلاميدها . إنه يتخطى بحكمة ولباقة . وصبر وَجَلَادَةٍ كل ذلك فى حِزَامَةٍ وأصالة
حتى يصل إلى بر السلام ، وشاطئ النجاح ، ومرسى تحقيق الرغبات والآمال ،
وصول واقع ماموس ، وحق محسوس ، لا سراب خيال ، ولا معسول مقال .

وهكذا كان الرجل العِصَامَى الكبير ، « فرانك ولوورث » صاحبُ ناطحات
السحاب بنيويورك ، والمالكُ لألْفِيٍّ محلِّ تجارى فى الولايات المتحدة وانجلترا ،
وصاحب الملايين من الجنيهات ، والمعروف لدى ملايين الملايين من عملائه
العديدين المستفيدين من مشروعاته ومجهوداته .

(٣)

التجارُ منّا وغير التجار ، الشباب منا والكهول ، الأبناء والآباء ، المُعْدِمُونَ والأغنياء ،
السُّوقَةُ والأعيان ، الكلُّ بحاجة لأن يفهمَ بطلنا الأميركى « فرانك ولوورث »
من صميم الصميم . الكلُّ بحاجة أن يَحْتَرِقَ بثُقُوبِ بصيرته ، ونَفَازِ ذكاوته ،
ما وراء المال والثراء ، وما وراء دكا كينه التى بلغت الألفين ، وما وراء ناطحات

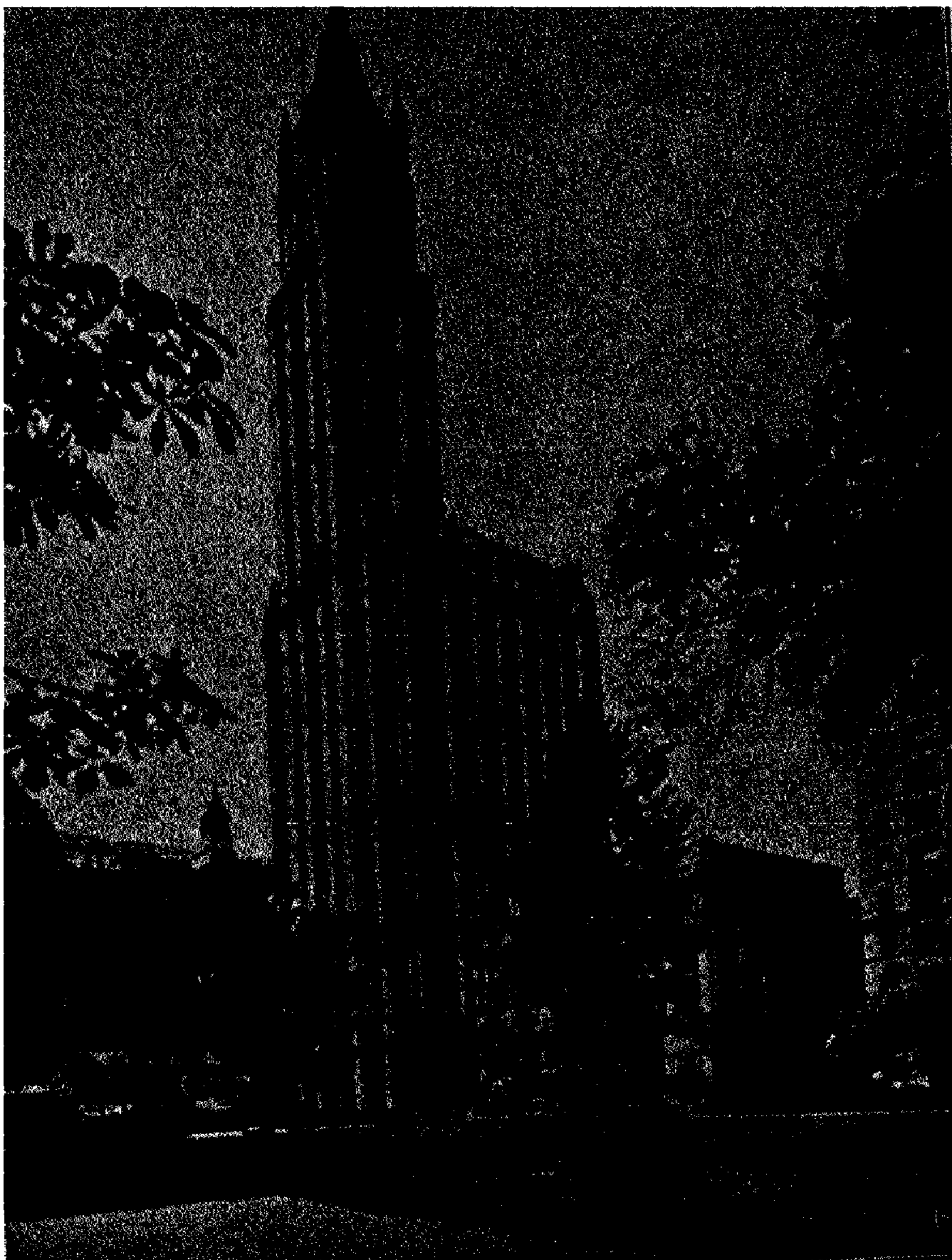
سحابه وصُروح بنيانه . وما وراء شهرته وجاهه وبُطولته . الكل بحاجة لأن يدرس هذا العصامي الكبير في فشله . في فقره . في تصميمه . في عدم أنهمازه ، في ثقته بنفسه . في إيمانه بنجاحه ، في مؤابته . في جهوده في إمساكه وصباحه . في عدم دَعته وراحته ، في حركته ونشاطه . في دأبه وأستمراره . في إكبابه على العمل نَجح أو فُشل ، وأخيراً في اقتطاعه أمد ترقبه للنهز والفرص . في العمل فيما أتاحه حاضرُه بلذة المُعدِّ لنفسه ما هو أرغدُ وأهنأ في مستقبله .

الواقع أن حياة « فرنك ولوورث » مليئةٌ بتلك المثل العليا ، والواقع أنها مَرعةٌ بأبلغ الحلول سَداداً ، وأكثرها رَشاداً ، وأعمها توفيقاً ، وأجداها نفعاً .

(٤)

في مزرعة متواضعة « برودمان » بولاية نيويورك وُلد عصاميُّنا الكبير في ١٢ أبريل سنة ١٨٥٢ وما كان يُهمكم ولا يهمني معرفة يوم ميلاده ، ولكن الذي يُهمكم ويهمني أن تسمعوا منه وصفه الصادق لحال أسرته في سِنِي طفولته كما حكها لنا بلسانه الأستاذ ب . ث . فوربس في أحد كتبه « الرجال الذين بهم حياة أميركا » قال : « كنّا فقراء ، فقراء جداً إلى درجة أني لم أعرف البتة معنى الحصول على « معطف » يقيني زمهرير البرد القارص ! » وقال في مكان آخر : « لم أعرف مطلقاً كيف أزرع ، ذلك لأنه لم يكن في مُسكنتي شراء نعل الزَّجج ، فلقد كنت أمضي السنة في حذاء واحد من جلد البقر . بل الواقع أنني كنت أقضي نصف السنة مُتعللاً ، ونصفها الآخر بلا حذاء !

ولقد قضى « ولوورث » أيامَ دراسته الأولى وهو يتحرق شوقاً إلى العمل وإلى تحقيق حلمه الجميل ، وهو أن يحصل على عملٍ كبائع في متجر . ولما بلغ السابعة من عمره انتقلت أسرته من قرية رودمان إلى « بند » الكبرى



ناطحات السحاب بنيويورك

بنفس ولاية نيويورك وفي « بند » الكبرى وُضِع الحجرُ الأساسى لتكوين شخصية « ولوورث » التاجرِ العصائى الكبير

(٥)

تسائلونى عن ماهية ذلك الحجر الأساسى الذى كوّن شخصية ولوورث فى « بند » الكبرى وإنكم لتفترضون طبعاً ضرورياً من الأعمال والتجارب مرّ بها ذلك الصبى المَعدَم الذى كان يئنّ تعباً ونصباً تحت عبءِ غِرارة البطاطس الثقيلة الوزن التى كان يحملها لأبيه من المزرعة إلى سُوق البلد لبيعها ، والعيش على ما يجنيه وراء ذلك من ربح ، وإنكم لمحقون بلا ريب فيما تفترضون ، ومحقون طبعاً فى أن الفقر يحدو إلى العمل . وأن العمل يُكوّن الشخص . وأن الثبات على المكاره وأحتمال الأعباء ، يُنبئان تلك الدّوحة الباسقة التى تمدّنا بخشبها المتين ، لنصنع منه سُلّم العظمة ومدارج البطولة .

لقد كان ذلك الحجرُ الأساسى عبارةً عن فرصةٍ يحترقها الكلُّ ، لأنها لا شىء ، ولكنها كلُّ شىء . تلك هى فرصة اتصّاله بناظر محطة « بند » الكبرى .

ولا يُهولنكم اسمُ ناظر محطة تلك القرية ، فى تلك الأيام فما كان فى منزله اليوم ولم يكن تحت إشرافه غير عربة واحدة متواضعة ، تافهة الأجر جداً ، حتى أنهم كانوا يسمحون لعاملها أن يشتغل بعمل آخر ، فكان يفتح متجرّاً بسيطاً فى المحطة ويضع فيه صبيّاً بلا أجر أو بأجر طفيف .

اتصل عصامينا بمتجر ناظر المحطة وقبل الاشتغال فيه من غير أجر . وربما دهشتم عن تسميتكم لهذه الصلة بأنها الحجرُ الأساسى لتكوين شخصية . وهى التى لم تدّر عليه مالا ولا ربحاً . ثم هى مع هذا حقيرة وتافهة وصاحبها أشبه ما يكون بالخدام الأجير والكمّ المُهمل . ولكن يجب ألا يفوتكم أنها هى الفرصة الأولى

التي أتاحت له بطريقة عملية تعلم البيع والشراء للمرة الأولى . ولا يغرّبني عن ناظركم أنها هي الفرصة الأولى التي غرست في نفسه بذور حبّ الأتجار والاستغلال ، وربما جاز لكم من غير تورّطكم في المبالغة والإغراق إذا افترضتم أن بطلكم العظيم قد بدأ بالفعل في ذلك المتجر الفقير الذي لا يبيع بأكثر من شلنات قليلة جداً في اليوم كان مهد آماله ومصدر مشروعاته .

ستقولون إن بطلكم العصاميّ قد درس في مدارس عامة ، وإنه قد تخرّج في مهديّ تجاريّ في « وارتون » بنيويورك عام ١٨٧٣ وإن تعليمه المدرسيّ جعله مستعداً بالنزعة والدراسة للعالم الاقتصاديّ ، والكفاح في الوسيط التجاريّ ، وهذا من الصواب بمكان ، ولكن لا يفوتنا أن اشتغاله بلا أجر في ذلك الحانات الحقير عند ناظر محطة « رودمان » خلق من ذلك الاستعداد قوّة عملية ، وصبغ تلك النزعة بالصبغة التجارية الحقّة .

(٦)

سلسلة تجارب الحياة أجزلُ نفعاً من سلسلة معارك الكتب . والإنسان الكثيرُ التجارب في تعلم مستمرّ ، وفي سني دراسة متواصلة . ثم هو متواصلُ النّجاح ، موافقُ الخطّوات ، إذا كان متيقظاً إزاء وابلِ الحوادث ، مستفيداً من قديمها في جديدها ومن الحقّ أن ثبت هنا أن « ولورث » كان من ذلك النوع المستفيد من خبرة أمسه في عمل يومه . أنه كان يقظ الذهن والنظر معاً . وأنه من صنف أولئك الرجال القليلين في الحياة الذين يُعدّون للمستقبل عدته ، والذين لا تقعد بهم لذة الحاضر دون احتمال المكروه في سبيل لذة أوسع نطاقاً في المستقبل ، والذين يستهينون بأحتمال ألم الحاضر دفعاً لألم أبلغ في المستقبل ، والذين يشربون الدواء بغضاظته وقذاه في سبيل شفاء عاجل ، وثوب من الصّحة قشيب كامل .

أجل ! هو من ذلك النوع تماماً. فقد جَدَّ واجتهد حتى وفَّر لنفسه خمسين ريالاً من لا شيء ، بل وفرها مما هو أغلى من كل شيء ، فمن إرادته أقطمها ، ومن دمه صاغها ، وبحرارة قلبه ، وأوار حماسه ، وجذوة توقده كوتنها ، لتكون عُدةً فيما أخطه لنفسه من مُستقبل تجاريٍّ خَلِيق بكفايته ، جدير بنشاطه .

أتعرفون ماذا فعل بها ؟

هل اشترى بها أسهماً تضيف إلى تلك الريالات التي لا تساوي عشرة ربحاً لا يزيد عن بضعة قروش في السنة ؟

هل غامر بها في شراء ورق يانصيب حملت له في ادرانها الثروة بالهيل والهيلمان ؟

هل اشترك مع الغير بها وهو لم يعد الحادية والعشرين من عمره في فتح متجرٍ صغير كالذي عمِل فيه عند ناظر المحطة ؟

كلا ! فإنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، ولكنه بحث عن محلٍّ تجاريٍّ عظيم الشأن ، وقبل أن يشتغل فيه لمدة ثلاثة شهور بلا أجر ، وأعدَّ نفسه أن يعيش من رأس المال الذي في حوزته . أعدَّ نفسه أن يعيش من الخمسين ريالاً التي اقتصدها في مدى عشر سنوات . والتي اكتسبها من مختلف الأعمال سواء أكانت من المزرعة أم غيرها .

لعلكم تسألوني عن معنى هذه المخاطرة من شابنا العِصاميِّ الكبير ؟

إن معناها سام جداً . معناها الثقة بالنجاح ، وتوفرها عند ذلك الصبيِّ الطريِّ الإهاب . معناها المُجازفةُ بكل ما يملك ، والتفتيرُ على نفسه في إقامة أودها بما لا يتجاوز ثلاثة ريالات ونصفاً أسبوعياً لمدة الثلاثة الشهور التي قبل الاشتغال فيها بلا أجر ، وترك الحكم على مستقبله والبَتَّ في كفايته للمقادير ، بل تركها لهمة

ونشاطه ، وثقته في اكتساب ثقة غيره ، وعطف غيره . وتقدير غيره .

ألم يكن من الجائز — اذا لم يكن أهلاً لثقته في نفسه ولصدق فراسته — أن يعود أدراجه الى بلده ومسقط رأسه مفلساً مُشرداً مُتسولاً ؟

ولكن الإيمان الصحيح صادق الفراسة . سديد الحكم . مأمون المغبة . مُشجع الثمرة . عادلُ الجزاء .

(٧)

مضت سنتان ونصف على صاحبنا وصل فيهما راتبه إلى ستة ريالات في الأسبوع ، وهو راتب ، وان كان قليلاً لمن كان في مُنتصف الرابعة والعشرين من عمره يَدَّ أن الخبرة التي نالها من وراء الأشتغال في ذلك العمل كانت في حدِّ ذاتها كبيرة المدى ، عظيمة الجدوى .

لقد تَفَتَّحَ أمامه بابُ السَّعة في الرزق رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، والتحق في عمل جديد يدرُّ عليه عشرة ريالات في الأسبوع .

طَفرة لا بأس بها من حيثُ الراتب ومن حيث العمل . ويظهر أن صاحب المتجر الجديد قد بدأ يُسِيء الى صاحبنا في المعاملة وفي انتقاض الراتب . بل قد انتقص الراتبَ فعلاً ريالين كلَّ أسبوع . ويظهر أن صاحبنا رأى نفسه مظلوماً ومُرْهَقاً . ويظهر أنه من الكاظمين الغيظ الصابرين على المكاره . ويظهر أن إرادته ، وان كانت قد تغلَّبت على كلِّ صُعوبة وأذى ، لم تستطع أن تغلَّب على حاله الصحية التي ساءت كثيراً ، والتي اضطرته إلى اعتزال ذلك العمل .

وكان صاحبنا قد تزوج حينما بلغ راتبه عشرة ريالات . وكان لابد له من إعالة أسرته من ناحية ، واكتساب ما يُقيم به أود حياته من ناحية أخرى . يَدَّ أنه قد

ضاق ذَرْعًا بالتاجر وأصحابها بعد ما ذاق الأمرين من سوء معاملة صاحب المتجر الأخير، فماذا فعل ؟

الرجلُ العظيمُ يَخْلُقُ الفرص . أو هو على الأقل يخلق من ظرفه الحالك شعاعاً من النور ، أو هو على الأقل يمهّد وسط الجبال والأشواك طريقاً للسير والترّحال . الرجل العظيم لا تَقُلّ حَدَّ إرادته الشدائد والكوارث ، والأمراض والمحن . إنه في صراعٍ مُستمرٍّ معها ، أو هو في معالجة ومُواتاة ومُجالدة ومُباشرة لِعُقْدِها ومشاكلها ، وإِحْنِها وشدائدها .

لقد ساءت أعصابُ صاحبنا فلماذا لا يذهب الى الريف . ثم لماذا لا يشتغل في الريف ؟

ولكن بأي شيء يشتغل في الريف ؟
أليس في مقدوره أن يُقيم في مزرعة يُنبِتُها ، أو يعيش من خضرواتها . ثم يَرَبِّي فيها الطيور الداجنة ، وَيَسْتَغْلِيها للحدِّ الأقصى ؟
وهذا ما فعله . وهذا ما أَلْجأته اليه الظروف القاسية من زوجية جديدة . وصحة مريضة . ومُعاملة سيئة . وأهتضام للحقوق والكفَايات .

ومن هنا استطاع صاحبنا أن يستخرج من جُلُود الزمن الصلْد ماءً رَوَى تُربته وأقام أَوْدَه . وليس بهائم أن يكون الماء أجاجاً أو غير أجاج . نَميراً أو غير نَمير . فقد أُنْفِيَ فيه ما يَشْفِي العُلّة ، وينقَع الحُرقة ، ويُنتج الثمرة ، ويُسعف الطَّلْبة !

(٨)

الرجل الكُفء لن يُهْضَم حَقُّه ، وإن هُضِم حقه رَدَحًا من الزمن فلن يُهْضَم طويلاً ، وإن هُضِم طويلاً فلا مفرّ من الإعتراف بفضله وما قام به من جليل الخدمات للإنسانية عامّة ، ولجيله ودولته خاصّة بعد مماته .

قد يُعْمَطَ حقَّ الإنسان ، أو يُحَطَّ من قدره ، ويُنتقص من شأنه . والأشمل والأعم ، أن يَعْتَوِرَ طريقَ العَظِيمِ الصَّعَابِ والمُضَاقِ ، ويكتنف سبيله الوعورُ والمهالكُ ، وتنزل بساحته الكوارثُ والشدائدُ . ولا ريب في تسَلُّقه لها ، وأَحمالها بأعبائها ، ونفوذها في صُلدها ، وتقنيتها لجلُودها ، وإذا بته لحديدها . وربما يستريح في نهاية تطوافه وينعم بطيب الأُحدوثة ولذة تحقيق الآمال والرغبات . وقد تنعم ذريته وأُمته ويُحرم هو . يَدَّ أن المحقِّق الذي لا يحِلُّ شكاً ولا ريباً أن غُبار الشدائد يَنْقَشِعُ أخيراً ، وأن العدالة المُتَّدة الخُطوات تصل لصاحبها إن حياً وإن ميتاً .

لقد مرت شهورٌ أربعة على مَراهقنا العِصاميِّ ، وهو يَفْلَحُ الأرضَ وينبت الخضرَوات ، ويُرَبِّي الدواجن والفراخ . . . مضت عليه شهور أربعة وهو يَنْحِت رِزْقَه من صخر الزمن المُغالِب نحتاً لا يَنِي ولا يَكِلُ

إنه متزوجٌ . ومُسْتَوِل عن زوجته . ثم هو مملوءٌ حياة وحرارة ونشاطاً ، فكيف يَسْتَكِنُ ، وأنَّى له الدَّعة والركون !

العمل لا يَعِيبُ مهما كان نوعه . وصاحب الكفاية يُعترف بكفايته إذا ترك مكانه خالياً . . . أو إذا شُغِل مكانه بسواه ، وبضدّها تَتَمَيَّزُ الكفايات أليس كذلك ؟ أجل ! لقد شُغِل مكانه في المتجر الأوَّل عاملٌ آخر ، ولكن أصحابَ المتجر بعد أن شاهدوا وجَرَّبوا وقارنوا بعثوا رُسلهم إلى عصاميِّنا وعَرَضُوا عليه عشرةَ رِيات كلَّ أسبوعٍ ليعودَ إلى عمله في قسم الملابس .

فلنذكر إذن أن العامل لن يُهْضَمَ حقُّه طويلاً ، ولن يُعْمَطَ شأنه طويلاً ، ولنذكر أن الاعترافَ بالجميل مهما كان بطيء الخطوات ومهما كان سُلْحَفِيَّ الطبيعة ، فهو بمثابة وَاصِلٍ إلى هدفه ، عائدٌ إلى وَكْرِهِ ، لا يُدْثُ بموطنه . مهما كان الزمن وطال به الأمد .

(٩)

يقول مؤرخو ولوورث إنه قاسى طويلاً .
يقولون إنه كان يبدأ عمله فى المتجر من الساعة صباحاً ، ويمكث أمام منضدته
إلى العاشرة ليلاً .

ولكن ذلك العمل المُضنى وما قاساه وذاقه . ولكن دأبه ونصبه ، وعناءه
وتعبه ، كل ذلك كان له الفضل الأول فى تكوينه وتخريجه وفى نجاحه وتوفيقه .
لقد اشتغل مُراهقنا فى ذلك المتجر اشتغال المخلص لواجبه ، المُحب لعمله
المُتَشَقِّق لفته ، وأستمرّ فيه الجادّ الدّؤوب إلى سنة ١٨٧٩ حيث بدأ فى تحقيق
خياله الأسمى . وما كان ذلك الخيال سوى فتح متجر يبيع من الأصناف والحاجيات
ما يُقدَّر ثمنه بخمسة (سنتيمات) أى حوالى ثلاثة بنسات ، وهذا ما يوازي
١٢ مليماً تقريباً .

وقد فتح صاحبنا بالفعل أول متجر له فى « يتكا » بمقاطعة نيويورك من ماله
الخاصّ بعد أن أقام بتجارب فى بيع تلك الأصناف فى المتجر الذى كان يشتغل فيه
ونال كل تشجيع من صاحب ذلك المتجر المستر « مور » الذى مدّه ببضائع
ليبيها لحسابه تبلغ قيمتها السبعين من الجنيهات .

(١٠)

على أن شهوة الجمهور فى شراء تلك الأصناف الرخيصة الثمن قد خمدت نوعاً
— فلا غرابة إذن أن يفشل عمل ولوورث فى المتجر الأول — ولا غرابة فى أن
يرجع ولوورث إلى المستر مور صاحب متجره الأول آسفاً كبير القلب .
وأنتم وأنا — كلنا كان ينتظر أن « مور » يُصدم بأخبار فشل مشروع ولوورث .
وأنتم وأنا . كلنا ينتظر أن « مور » لا يمدّ ولوورث بمَعونة مالية جديدة . ولكن

« مور » الذي تأكد من بولورث وكفايته ، والذي وثقَ بنشاطه وأمانته ، لم يتردد في تقديم كلِّ ما يحتاج اليه من بضاعة ومال لفتح متجر آخر في لاندكاستر بمقاطعة « بنسلفانيا » وكان نصيبُ ذلك المتجر النجاحَ الكلى .

فتحَ متجرًا ثالثًا ففشل فيه . فتح رابعًا فنجح . وهكذا استمرَّ قدمًا في فتح المتاجر طبقًا لمشروعه إلى أن وصلت متاجرُه إلى الألفين ، وبلغ رأسُ ماله حوالى ستة ملايين من الجنيهات حين حَضَرَتُهُ الوفاةُ في جلن كوث في ١٨ ابريل سنة ١٩١٩

(١١)

من أين هذه الثروة المُتَدَقِّقة تَدْفُقُ الطوفان ؟ .

ألا إنكم على حقٍّ إذا ما قلتم انها من إرادته القوية . إرادته التى شَيَّدَتْ لنا ناطحة سحابه ، تلكم التى كَلِفَ « كاس جلبرت » بإخراجها له ، والتى يبلغ ارتفاعها ٧٦٠ قدمًا وفيها ٥٧ دورًا . والتى لا يزيد عنها فى الطول إلا بُرْجُ ايفل فى باريس أجل ! انها من إرادته القوية . إرادته التى لم تنهزم إزاء فشله المتواصل ، وصدماته المتوالية . إرادته التى حَثَّتْ عليه ألا يَنِيَّ ولا يستريح ، ولا يقوم بإجازةٍ مدة سبع سنوات . إرادته التى خلَّفت له من السبعين جنيهاً التى اقترضها والتى أضاعها عَدَمُ نجاح المشروع أولاً رأسَ مالٍ مَكَّنَ وَرَثَتَهُ فى عام ١٩٢٠ من أن يبيعوا من أصنافه تلك ما بلغ مقداره ٩١٨,٩٨١,١٤٠ ريالاً ومن أن يربحوا فيها ٩,٧٧٥,٢٥١ ريالاً أى حوالى مليونين من الجنيهات فى سنة واحدة . إرادته التى أدَّتْ على شركتهم تلك فى العام الذى قبله ربحاً مقداره ١٠,٣٦١,٥٥٧ من الريالات شبابنا الناهضين : تعلموا غير معلّين أن النجاح من الفشل ، والصواب من الخطأ ، والفوز من الخيبة . . . تعلموا أن مصدر البطولة هو فى الايمان الخالص . فى المثابرة الدَّوْبَةِ . ولتثقوا ، رعاكم الله ، أن سرَّ الرِّعَاةِ فى احتمال المكاره ، ومُجَالِدَةِ الخطوب ومستحصد الهمة ، ونفوذ العزيمة ، وقوَّةُ الإرادة . . .



بوکر و شنجاق

مول مرب شعی کیر

بوكر وشنجتون

(١)

لا تكون المدنية كاملة إلا إذا كانت الإنسانية كاملة . وكما الإنسانية في كمال المساواة بين أفرادها . وربما كان من الحق أن نقول : إن الصراع القديم بين الأم وأترابها من جهة، وبين بعض الأفراد وبعضهم من جهة أخرى ، ينطق وحده بما أصاب الإنسانية في الماضي من نقص محسوس في توافر المساواة العادلة حين ذاك . وربما كان من الحق أيضاً أن شبه الصراع الحاضر ينطق بانتفاء المساواة الكاملة بين مختلف الألسنة والعقائد والألوان .

على أنه من الحق الجدير بكل تقدير ، والخليق بكل اعتراف ، أن الثقافة الكاملة وذووع الثقافة ينتجان طمأنينة التسامح التي يثبت أركانها ، ويعمل على توطيد دعائمها ، سهولة المواصلات بين مختلف الشعوب . كما أنه من الحق الجدير بكل تقدير أن نعترف بأن انتشار الاختراعات الحديثة ، وسهولة استعمالها ، وذووع استخدامها ، مما يؤدي مدارجة إلى تذليل عقبات يؤثبه لها ، ومما يعمل على التقريب في كل شيء : في المسافات والأبعاد . في الصلات والاحتكاكات . في الاجتماعات والملابسات . وربما يجوز لنا القول أو التكهن بالقول : إن اختلاف الألسنة والعقائد والألوان آخذ في التضاؤل والزوال من حيث زنة الأشخاص ، وكفايات الأشخاص وإن القيمة الحقيقية للرجل ستكون أكثر ارتباطاً بمقياس جهوده وإنتاجه وعمله ، من مقياسها بلغته وديانته وجنسيته . .

تلك حقائق عامة يؤيدها التاريخ في الماضي القريب والبعيد، وهي في الحاضر ميسورة مستساغة لا تتطلب منك برهنة ولا تدليلاً .

على أننا لم نصل إلى تساؤل أثر اختلاف الألسنة والعقائد والألوان من حيث زنة الأشخاص وكفاية الأشخاص في غمضة طرف . ولم يكن الطريق سهلاً مُعبداً بطبيعة الفطرة وطبيعة الاجتماع . وإنما كانت ثمت قُرْبانات عديدة، وضحايا وفيرة، تقدمت بها الإنسانية راضية أو كارهة، في سبيل العدالة العامة، أو المساواة العامة، أو في سبيل انتصار الفكرة على أقل تقدير . وربما كان من الحق أن نقول : إنَّ الإنسانية لا تزال في مُتصف الطريق ، ولكن من الحق أيضاً أن « بوكر وشنجتون » قد وقف حياته المُنتجة، وشخصيته العاملة في سبيل الانتصار العملي لتلك البديهية العادلة التي تُقرر أن القيمة الحقيقية للرجل هي أكثر ارتباطاً بمقياس جهوده وإنتاجه وعمله، من مقياسها بلغته وديانته وجنسيته .

بل إنَّ حياته المُنتجة، وشخصيته العاملة لتَنطِقان في كل أثر من آثاره، وكل منْحى من مناحي تصرفاته بصحة تلك البديهية . وتنطقان أكثر من ذلك بأنَّ العبقريَّة تهبط على مَنْ تشاء، وفي أي بقعة تشاء، وأنها ليست احتكاراً للجنس دون جنس، وليست أسيرة لدولة دون أخرى، وإنما هي مُشاعة للعاملين، ميسورة للمُحسنين؛ وأنها في تناول كل صائد ماهر، وعامل قادر . وتنطقان أكثر من ذلك بأنَّ البطولة الحققة لا تُكتسب بالميراث، ولا بالمجد التالذ والطارف، أو الحسب والنسب، ولا بزُخرف المديح وقصيد الشعر، ولا بجمال الجاه ونُصرة المال وحُسن البَشَرَة، وإنما بالعمل الصامت . العمل المُستمر . العمل المُجدي . العمل الذي يُنطق الافواه من حيث لا تريد، ويُطلق الألسنة من حيث لا تقصد،

وَيُكْثِرُ الْآتِبَاعَ وَالشَّيْعَةَ، وَيَكْسِبُ الْأَفْسَدَةَ وَيَمْلِكُ الْقُلُوبَ . وَأَخِيرًا يَحْتَرِفُ مَا أَمَامَهُ بِالْحَقِّ لَا بِالْبَاطِلِ .

(٢)

وإنك لو أجدت في حياة « بوكر وشنجتون » الزعيم الأمريكى الأسود ما لا تجد إلا القليل منه في الزعماء البيض ، لأن زعامته قد قامت بالعمل المتواضع ، والإيمان المتواضع ، والفكرة المتواضعة . ولست في حاجة إلى أن أقول لك إن الزعامة الخالدة متواضعة في كل شيء ، وإن الزعيم الفذ من يفتح لك الباب على مضراعيه لتدخل إلى قلبه ، ولتعاشره في ساحة نفسه ، ولتغدو وتروح في خلجاته وتفكيراته ، ومسراته وإضاقاته ، وأناته ولذآذاته .

لست في حاجة إلى أن أقول لك : إن الزعامة الخالدة لا تشعر بهنة ، ولا يعلق بها وضرر ولا دنس ، إذا أطلعك على ما يعثور طريقها من صعب ، وما يقف في سبيلها من عقاب ، لأنها وهي تذل ذلك كله بمرهف إرادتها ، وتكتسحه بتيآر عزمتها ، تشعر بواجبها المقدس أن تصف لك الداء والدواء ، وأن تخلص في تشخيص الحالة لترسم النفوس العالية ما اختطت لنا من خطط ومعاير ، وسبل ومناهج ، لأنها أنارت السبيل وبددت الديجور^(١) !

وأخيراً لست في حاجة إلى أن أقول لك : إن القشور تعصفها الرياح ، وإن الزخرف تحرقه أشعة الشمس ، وإن الطلاء لا يبقى مع الزمن . وإنما هو اللبأ قد كتب لجوهره الخالص كل حياة وخلود وبقاء .

الإنسانية تمر في طرق من ضعف وخور ، ونقص في المال والجاه ، وتتمر في أدوار من الجهالة والعوز ، وليس لها من نجاح إلا بعد فشل ، ولا من قوة إلا بعد هون ، ولا من ثراء إلا بعد إضاعة ، ولا من نشاط إلا بعد فتور ، ولا من

توفيق إلا بعد شَطَط . فلماذا لا يطَّلَع الإنسان على حقيقة زَمِيله الإنسان ، ولماذا لا تُقَدِّم لمرضى الإنسانية العلاجات الصحيحة لأمراض الانسانية الحقبة بلا بَرَقْشَة ولا تَزْوِير ؟

الإنسانية بحاجة إلى « العلم والعمل » فلماذا لا يكون المُتَمَدِّينُ عاملاً إلى جانب علمه . والإنسانية بحاجة إلى التَّكَاتُف العام بين أفرادها ، فلماذا لا يعيشُ الناسُ في وفاق ووئام . والإنسانية بحاجة إلى ضروب شتى من الإصلاح الروحي والعلمي واليدوي ، فلماذا لا تقف أوقاتها لذلك كله بدلاً من الطَّلَوات الكاذبة والتكاليف الكاذبة ، والأوضاع الكاذبة . !

ويظهر أن الشرق في نهضته بحاجة إلى أن يقف على تاريخ ذلك الزعيم العملي الكبير لا لأنه زِنجِيٌّ أسود قَادَ أُمَّةً وحرَّرَ شعباً ، ولا لأنه بطلٌ متواضعٌ يُعِيطُ لك اللثام عن حقيقة نفسه ، وَيَقِفُك على دقائق حياته ، ولا لأنَّ حياته مرآة نقيّة للخُلُق النقيّ ، ولا لأنَّ إرادته حديدية لا تكلّ ولا تني ، ولا لأنَّ جُهوده أبديةٌ لا تخمد ولا تَفْتُر . لا لهذا فقط ، ولا لما هو من طبيعة هذا فقط . وإنما لأنه مُرَبِّ شعبٍ لا مثيل له ، قد أمتاز « بالعلم والعمل معاً » . . . وفيهما معاً نجاحُ الإنسانية ، واستقلالُ الأفراد ، وتحريرُ الشعوب .

(٣)

يقول لنا « بوكر وشنجتون » : إنه وُلِدَ إمّا في سنة ١٨٥٨ أو ١٨٥٩ في مَزْرَعَة مقاطعة فرانكلي بـهـرجـينـيا ، وإنه لا يذكر المكان تماماً ، ولا تاريخ الميلاد بالدقة . وإنما يذكر أنه وُلِدَ عبداً رَقاً ، ويذكر أن بداية حياته كانت شقيةً بَعِسة ذاق فيها الأَمْرَيْنِ . وأنه كان يقطن كوخاً من الحطب حقيراً مع والدته وأخيه إلى ما بعد الحرب الأهلية وقبما أعلن تحريرُ العبيد جميعاً .

ثم هو لا يذكر عن جُوده لا القليل ولا الكثير، وجماع ما سمع به همساً في أحياء زملائه العبيد أن القوم قد احتملوا سوء العذاب في ثقلهم من إفريقية إلى أمريكا حيث يبعون السائئة، وأن والدته فيما يفترض قد استرعت بشخصها نظراً مولاهما الذي اشتراها كما يشتري حصانه أو بقرته

ثم يقول لنا: إنه لا يعلم عن أمر والده شيئاً!

أجل! إنه لا يعلم عنه إلا اليسير مما تناقلته الأفواه. فقد زعموا أنه كان رجلاً من البيض كان يعيش على مقربة من مزرعة القوم، وأنه لم يحفل بشأن ولده «بوكر» هذا وأغفل أمره. ولم يحمل له ولده إزاء هذا الإهمال منه سخيمة ولا حقداً، بل اغتفر زلته ورثى لفعلته، وعزاها إلى سطورة التقاليد المتبعة حين ذاك. أما والدته فقد ذكر عنها أنها كانت طاهية المزرعة. وقد سرّد لنا سرقتها لصغار الفراخ من ساداتها وأستحضرها لأطفالها ليلاً تطعمهم ما لم يذوقوه. فقد كان طعام العبيد خبزاً وإداماً. وقد دافع عن سرقتها دفاعاً منطقياً برّر به ظروف فعلتها وأسباب تصرفها قائلاً: إنها كانت هي نفسها ضحية من ضحايا نظام الرّق وقتئذ. ولم يذكر لنا «بوكر» أنه نام على سرير إلا بعد إعلان التحرير، وأما قبل ذلك فقد كان ينام مع أخيه الأكبر جون، وأخته «اماندا» على فرشة قش على الأرض، وبعبارة أدق كانوا ينامون فوق الثرى على خُلجان قدرة مهلهلة

(٤)

ماذا كان يفعل في طفولته؟

لقد كان القوم يستخدمونه فيما أرهقه، وفيما قد ترك في نفسه المعذبة الكسيرة الأثر العميق والذكرى الممضة

يقول لنا بوكر عن تلك الفترة التي قضاها في براثن الرّق: إنه كان صبياً قليل

الجُدْوَى ولكنه مع طراوة إهابه قد ناط به القومُ عمليةَ التنظيف وحمَلَ المياه الى المزارعين في الحقول ، كما ناطوا به الذهب كل أسبوع بالحنطة لطحنها على بُعد أميال ثلاثة من المزرعة

ويقول لنا بوكر : إنَّ القوم كانوا يضعون الغلال له على ظهر الدابة ويقسمونه على جانبيها لسهولة حملها . وكثيراً ما يحتلّ التوازن بين قسمي الغلال في الغرارة فتسقط ويسقط معها من على ظهر الحصان . قال : ولما لم أكن بالقوى القادر على إعادة وَضْع الغرارة في مكانها . فكثيراً ما كنتُ أنتظر الساعات حيثُ أنا الى أن تتاح فرصة مرور عابر طريق يأتي لتقديم يد المساعدة في محنتي . وكنتُ أقضي ساعات الأنتظار في « البكاء والعيول » وأخيراً يذكر لنا عودته من المطحنة متأخراً في الليل ، ومبلغ فزعه من مقابلة الجنود الفارين الذين لا يرحمون آذان الغلّة السوداء ، وما ينتظره في المزرعة من صنوف التأنيب أو الضرب جزاء تأخره الاضطراري

وهذا نمطٌ مما مرّ بطفولته ينطق بما هو من معدنه ، وما هو على شاكلته . وعظاء الرجال أشقياء في طفولتهم ، وكبار الأرواح قد صُهرت في مهودها ، وعُذبت في تجاريبها . وتكوين القادة لا يكون في فرُش وثيرة ، وبُسْطٍ ممهدة مغروسة على الجانبين بالأزهار والورود ، بل بالحسك^(١) والأشواك والقتاد^(٢) !

(٥)

ستقول لي ماذا تعلم « بوكر » حينما كان عبداً ؟ وإني أنتظر هذا السؤال منك ، وأترك الزعيم يتكلم بصراحته فإنه يميّط لك اللثام عن حقائق جديدة بالاعتبار .

(١) الحسك : أسلاك كالشوك تعمل من الحديد تلى حول المسكر لتثقب في رجل من بدوسها من الحيل والناس الطارقين له . وهي المعروفة الآن « بالأسلاك الشائكة » . وهذه تسمية متجوز فيها فان أصله نبات ذو شوك (٢) القتاد : شجر صلب له شوك كالابر .

يقول لنا «بوكر» : إنه لم يدخل مدرسة أثناء عبوديته ، وإن كان يذكر أنه ذهب مرة يحمل لسيدته الصغيرة كتبها حتى باب المدرسة . وقد قال صراحة : إن سعادة جنات النعيم في نظره حين ذاك أن يدخل المدرسة وأن يدرس كما تدرس التلميذات في غرفة التعليم ، وليس من شك أن ذلك المنظر ترك في نفسه ولها وهياماً ، وحرقة وضراماً ، أكثر بلا ريب من ذلك الأثر العميق الذي ناله من جاذبية « الكعك » وشهى منظره ولذيذ ما أكله ، فقد استلب منه اللباب ، وأسأل منه اللعاب . وكم عقد خناصر الرجاء أن يعمل على أكله يوم يتم تحريره ، تلك كانت أمنية القصوى يوم كان في الرقّ صبيّاً

ومن صريح اعترافات « بوكر » أثناء تلك الفترة من حياته أنه لم يجلس على خوان واحدٍ وأفراد أسرته ، وإنما كانوا يأكلون أكل الحيوانات الخارسة ، كلّ يلتمهم نصيبه التهاماً ، وينفرد به قعوداً وقياماً وكذلك يعترف لنا أنه قد عهد إليه في القيام بعمليات شدّ الحبال تهوية الحجرات في منازل أسياده

يقول لنا « بوكر » : إنّ أوّل ما تعلّمه هو عدد « ١٨ » وكان لكلّ عاملٍ عددٌ يوضع على نتاج عمله اليومي ، وكان ذلك العدد رمزاً لعميد أسرته ، ومن ثمت حَسَرَ الصبيّ عن ساقه في حفظ الأعداد واستيعابها ، ثم تدرّج منها الى الكتابة والقراءة ويذكر لنا أن أوّل كتاب حصل عليه كان كتاب التهجئة تأليف « وبستر » وشدّ ما كانت دهشته من كيفية حصول والدته على هذا الكتاب له

ونظراً الى عدم وجود أحدٍ من أبناء جنسه يعرف القراءة والكتابة في النواحي القريبة ، فقد صمّم الولد أن يبذل جهده بنفسه في حفظ تلك الأوليات ويعترف لنا أنه وإن كانت والدته أميّة لا تعرف من الكتابة والقراءة شيئاً ،

يبد أنها كانت واسعة الآمال ، طموحة لأن يتبوا أولادها مكاناً علياً . وأنها شاطرت ولدها في طماعيته في التعلم ، وعملت في تعييد الطريق له ليُسَعَف بطلّيته وكم كان « بوكر » يتضائل خَجَلًا وَوَجَلًا كلما اقترب منه شخصٌ من البيض ممن يعرفون القراءة والكتابة ، فقد كان شديد الرغبة في السؤال عما لا يعلم ، والوقوف على ما لا يعرف ، وكان إذ ذاك قد التحق بمنجم ملح ، وهناك اجتمع بأحد زملائه السود في مدينة « مالدن » ممن تعلم القراءة والكتابة في « أهيو » وقد شاهده يقرأ في صحيفة وحوله جمهورٌ من المستمعين رجالاً ونساءً ، وكلهم شديدو الرغبة في تعرف ما تحتويه الجريدة من الأخبار والأبناء . وكان له من ذلك المنظر الذي ملأه أسى وحُزنًا ، ومن منظر سيّداته الصغيرات اللاتي احتمل لهنّ كتبهنّ الى مدرسة المزرعة ما ألهب ألهوبه ، وأضرَمَ جذوته ، وأثار فيه كمينَ ميله الطبيعي الى تعلم القراءة والكتابة ، وحدّا به الى ما ينزع ويهيم من الإكباب^(١) على التحصيل بنهم وتصميم جديرين بكل إعجاب . خليقين بكل تقدير

ومن الحتم علينا هنا أن نشير إشارة صغيرة الى ما في احتكاك الأطفال الصغار بالمثل العليا عامة من الأثر العظيم في طبع تلك الصّور المنتجة من نفوسهم اللدنة^(٢) المفتونة بما تشاهد في محيطها الصغير

نفوسُ الأطفال أكثر ميلًا الى المجد وأستساغة لمعانيه . وهي بطبيعة عدم مرانها ، وعدم اصطدامها بصعاب الحياة ، وعدم تذوقها لخيبات التجارب تستسهل العقاب ، وتثب بخيالها السريع الى ما لا تصل اليه الرقاب . فهي في طُمَاحها وعدّوها الى الذروة من كل شيء ، وهي في وثبّتها وعدم تشذيبها وتعليمها ، وهي في عدم تقيدها بأعبارات الأخلاق والعادات والطقوس ، هي في كل ذلك أقرب لُدونة

ومُرُونَةٌ وَأُسْتِسَاغَةٌ لِتَشْرَبَ تِلْكَ الصُّورَ الْعَالِيَةَ ، وَتَعْشَقُهَا وَأَقْتَدَاءُ بِهَا وَجَرِيًّا
فِي مَنَاجِيهَا

فَلَا غَرَابَةَ إِذْنٍ وَقَدْ رَأَى « بُوكر » مَنَظَرَ سَيِّدَاتِهِ الصَّغِيرَاتِ وَهِنَّ نَظِيفَاتٌ
كَالْمَلَائِكَةِ ، مُكَبَّاتٌ عَلَى التَّحْصِيلِ كَالطُّيُورِ الْمَغْرَّدَةِ ، يَقْرَأْنَ كَتَبَهُنَّ كَالْبَلَابِلِ
الشَّجِيَّةِ ، وَيَفْهَمْنَ مَا لَا يَفْهَمُ ، وَيَعْلَمْنَ مَا لَا يَعْلَمُ ، أَنْ يَتَحَسَّرَ عَلَى حِرْمَانِهِ مِنْ ذَلِكَ
النَّوعِ مِنَ السَّعَادَةِ وَلَا سِيَّامَهْمَتِهِ الَّتِي تُذِلُّ ، فَهُوَ إِمَّا فِي الْمَنْجَمِ أَوِ الْمَلَّاحَةِ ،
وَإِمَّا فِي طَحْنِ الْغَلَالِ أَوْ شَدِّ الْمَرَاوِحِ أَوْ حَمْلِ مِيَاهِ الشَّرْبِ لِمَنْ يَرِيدُ ارْتَوَاءً وَسُقْيَاً
بَلْ لَا غَرَابَةَ إِذْنٍ وَقَدْ شَاهَدَ بِعَيْنِهِ تَقْدِيرَ أَبْنَاءِ جُلْدَتِهِ لِمَنْ قَرَأَ لَهُمْ صَحِيفَةَ الْأَخْبَارِ
فَقَدْ احْتَاطُوا بِهِ وَفُتِنُوا بِعِلْمِهِ . وَأَعْجَبُوا بِشَخْصِهِ . وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ مِنْ دَوَاعِي إِذَاعَةِ
صِفَاتِ الْبَطُولَةِ وَنَشْرِ مُحَمَّدٍ الْخُلَّالِ مَا تَلَقَّاهُ مِنْ تَقْدِيرِ النَّاسِ لِصَاحِبِهَا وَأَحْتِرَامِهِمْ لَذَوِيهَا
مُسْتَحِيلٌ إِلَّا تُرْغِمَ النَّاسَ صِفَاتِ الْبَطُولَةِ عَلَى أَحْتِرَامِهَا . إِنَّهَا تَغْزُو الْقُلُوبَ
غَزْوًا بَلَا أَسْتِئْذَانَ وَلَا تَعَمُّدَ ، وَبَلَا مَحَابَةَ وَلَا مُدَاهَنَةَ . إِنَّهَا تَفْتَحُ الْمَعَاقِلَ وَتَصِلُ
إِلَى الصِّمِيمِ . لِأَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ مَهْمَا كَانَتْ فِي الْحِمَاةِ مِنَ الْمَادِّيَّةِ وَمِنْ الشَّهْوَانِيَّةِ ،
لَا تَزَالُ تَحْنُ إِلَى الْمَعَانِي الرُّوحِيَّةِ ، أَوْ لَا يَزَالُ لِلْقَبَسِ الرُّوحِيِّ فِيهَا ، وَلَوْ فِي لَحْظَاتٍ
قَصِيرَاتٍ ، وَفِيَنَاتٍ مَعْدُودَاتٍ ، حَتَّى إِلَى مَعْدَنِهِ ، وَتَحْلِقُ إِلَى سَمَائِهِ ، وَأَوْبَةُ إِلَى
وَكْرِهِ . فَلَمَّاذَا إِذْنٌ لَا يَنْزِعُ « بُوكر » وَرُوحَهُ هَذَا مَعْدَنَهَا ، وَتِيَاكَ تُرَبِّتُهَا ، إِلَى
مَا يَتَّفَقُ وَقَبْسَهُ الرُّوحِيَّ وَكِيَانَهُ النَّفْسِيَّ ؟

بَلِ الشَّاذُّ وَالْغَرِيبُ أَنْ يَقَعَ غَيْرُ مَا وَقَعَ ، وَيَحْدُثُ مَا لَمْ يَحْدُثْ . أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟

(٦)

وَاللَّجَرِيَّةُ حَسَنَاتُهَا وَمَبَاهِجُهَا . وَمَهْمَا قَالُوا عَنْ كِبَوَاتِهَا وَعَثَرَاتِهَا فَإِنَّهَا النَّعِيمُ
الْمُقِيمُ ، وَالْمُثَقِّفُ الْأَمِينُ ، وَالسَّاعِدُ الْيَمِينُ .

الحرية إذا فهمت على حقيقتها ، وأستظلّ الناسُ بظلّها الوَرِيف ، فإنّها تخلقُ منهم الخلقَ الهائئُ السعيد ، فلا حُرُوبَ ولا خِصامَ ، ولا سَخِمةً ولا صِدامَ . لقد أُعلنَ التحريرُ للسود . وقد تركَ السودُ كلَّ شَيْءٍ مما يُذَكِّرهم بماضيهم ، حتى المزارعَ التي كانوا يعملون بها ، حتى الأسماءَ التي كان يُدْعَوْنَ بها ، وخلقوا إهابَ الرِّق وجلبابَ العبوديّة ، وأستنشقوا الهواءَ الطَّلَق ، وتركوا العنانَ لكلِّ ما يشتهون . ثم عادوا أدراجهم إلى مزارعهم وهم أكثرُ نشاطاً ، وأوقدُ جَذوةً وأشدُّ حميّةً .

بل إن خِدْمَتهم الماضيةَ لسَادَتهم البيض جعلتهم أقدرَ وأكفأ . وتركت البيضُ أقلَّ جَلَدًا وأضعفَ عزيمةً .

بل إن العملَ له نعيمُه فهو يصقلُ النفوسَ كما يصقلُ الأيدي ، والناجحُ في الحياة هو بلا ريبِ العاملُ فيها ، الدَّوِبُ على الاضطلاع بتكاليفها ، الصبورُ على مكارهها ، المعنُ مُضِيًّا في أحوالِ أعبائها .

ولقد بُدئَ الآن في المناقشة في ضرورة تعليم السود ، وفكر الجنرال ارمسترنج وغيره في فتح معاهد لتعليم السود . وأخذ هؤلاء السودُ يَفِدُون زَرَافَاتٍ ووَحْدَانًا على تلك المدارس ، وكلهم عطاشٌ إلى نَمِيرها ، وكلهم حَنِينٌ إلى ورودها . حتى الشيوخُ وهم في العِقدِ الخامسِ من سِنِي حياتهم يريدون قراءة الكتابِ المقدسِ لِيَلْقُوا اللهَ سَعْدَاء ، وليستقرُّوا في لحودهم سعداء .

فماذا كان نصيب « بوكر » من تلك الحركةِ التعليمية وليدةِ الحركةِ التحريرية ؟

(٧)

خيبةٌ مُمِضَةٌ صُدِمَتْ بِأثرها السيِّئُ نفسيةُ طفلنا الوثابةُ ، وروحُه النَّهْمَةُ بالعلم والتعليم . تلك الخيبة هي موقف زوج والدته منه .

لقد فتحت مدرسة في « كناوها » وكان طفلنا يشتغل حين ذاك في « الملاحه » ويظهر أن الزوج تبيّن من عمل بوكر في منجم الملح في عدّة الشهور التي اشتغل فيها به أنه مصدر نفع يدرّ عليه صباية من المال هي بمثابة أخلاف رزق لديه

يقول بوكر : « لما فتحت تلك المدرسة أبوابها قرّر الزوج أنه لا يستطيع التخلّي عني ، وكان لقراره سحب غيوم تراكت على كل آمالي ومطامحي . وشدّ ما عانيت من جرّاء قراره ، لأنّ مكان عملي كان على طريق المدرسة حيث كنت أشاهد التلاميذ يروحون ويغدّون إليها .

« وزادتني تلك الخيبة تصميماً على أن أتعلم شيئاً على أيّ وجه ، وبأية طريقة . فأقبلت برغبة شديدة على امتلاك ناصية كتاب التهجية ، ولقد واستنى والدتي في خييتي تلك ، وبحث بكل ما في مقدورها على ما يبهجنى ، وعملت جهدها على إيجاد وسيلة لتعليمي ، فقامت بعد برهة من الزمن في إعداد المعدّات لتحصيل دروس ليلية بعد قيامي بساعات العمل نهاراً . وكنت شديد الترحيب بتلك الدروس الليلية ، وأقبلت عليها أيّما إقبال ، وحصلت في خلالها أكثر مما يُحصل التلاميذ في ساع نهارهم ، ولقد كان لي من تجاربي فيها أن آمنت بجزيل جدواها وعميم نفعها ، وعملت فيما بعد على تعميمها في هامبتون وتسكيجي

« على أن قلبي الصغير كان نزاعاً إلى ضرورة الذهاب إلى المدرسة النهارية ، ولذلك لم أترك فرصة تمرّ دون اقتناصها إلى أن فُزت أخيراً بطلّبتى ، وسُمح لي بالذهاب إلى المدرسة نهاراً بضعة شهور على شريطة أن أستيظّ مبكراً وأشتغل في الملاحه حتى الساعة التاسعة صباحاً ، ثم أعود مباشرة إليها بعد الظهر عند انقضاء العمل المدرسي لأشتغل فيها ساعتين أخريين »

من جميل ذكريات بوكر في هذا الصدد ما كان يلقاه من صعوبة في الوصول

إلى المدرسة في التاسعة تماماً ، وهي بعيدة عن مكان عمله الذي حتم عليه البقاء فيه إلى التاسعة ، فماذا يعمل ؟ لقد كان في مقر عمله ساعة حائط ، وكان زملاؤه العمال جميعاً يعتمدون عليها في ضبط ساعاتهم وفي أمور عملهم . وكان بوكر مضطراً للحاق بموعد مدرسته ، وهو مضطرب أيضاً للبقاء في العمل حتى التاسعة ، وكان ميله الطبيعي للدرس وتحصيله ، والمواظبة على حضوره شديداً وقويّاً . فوصلت به الحيلة إلى أن يقدم عقربي الساعة دقائق معدودة تمكنه من الوصول في الموعد المضبوط إلى فناء المدرسة . وأخيراً لاحظ العمال اختلال الساعة واكتشفوا فعلته فقفّلوا باب الساعة بإحكام ، فلم يكن له بدٌّ من إعانت نفسه للمحافظة على الوعدين .

(٨)

ولقد اتصل طفلنا بعد هذا بخدمة سيدة طيبة القلب ، شديدة المراقبة ، دقيقة العناية بالنظافة والنظام ، وهي زوجة الجنرال لويز زوفير . فلاحظت ميله إلى التعلم ونزوعه إلى التحصيل ، فعملت على مساعدته في لحظات فراغه على فهم ما استغلق عليه . ثم كان افتتاح مدرسة همبتون التي افتتحها الجنرال ارسترنج ، وكانت تبيع للسود العمل لاكتساب نفقات تعليمهم . وهي بعيدة عن قريته بعداً شاسعاً . إذ كانت تبعد عن مالدن خمسمائة ميل . ولكن النفوس العظيمة تستسهل الصعاب من الأمور ، والإرادات القوية لا تثنيها الشدائد ، ولا تقف بها دون تحقيق أملها العقبات ، بل إن النفوس العظيمة تستمرى المرّ في طريق الأمل ، وتستعذب الصعب في سبيل الغاية ، ثم هي من بعد ذلك لا تقنع إلا بالثمر الجني والطعام الشهيّ !

أجل ! لم يكن في حوزة فتانا تقود تُعينه على قطع مرحلته . فلماذا لا يقطعها بإرادته ، ولماذا لا يشتغل أثناء سفرته ، فإما ربح يُمكنه من ركوب قاطرة

السكة الحديدية ، وإما أمتطاي لنعليه وركوبه لقدّميه .

وذلك ما فعله طفلنا فقد قام من تَوّه ولحظته يقطع المَهايم والقِفار ، في البُكور والأسحار ، إلى أن وصل إلى مدينة رتشمند وهو خالي الوفاض ، وقد ذاق الأمرين ، ورأى ألواحاً فوق حُفرة الشارع العام وقد لعب الكرى بمعاقد الأجفان ، فانتظر هنيئة حتى انقطعت السابلة ودَفَنَ نفسه في تلك الحُفرة ليُريح بالنوم جسمه اليقظان . وبُحث عن عملٍ في يومه التالي ووُفِّق إلى سفينة تُفرِّغ مَحولتها ، فواظب على العمل فيها نهاراً ، والنوم في الحفرة ليلاً إلى أن وفّر بإرادته وعمله وإكبابه ومُواظبته ما مكنه من السفر إلى همتون بالسكة الحديدية طبعاً . وإلى ما هو أكثر من ذلك ، إلى توفير نصف ريال فوق ما يُريد .

(٩)

جميلٌ جدّاً أن تقرأ اعترافات بوكر عن أثر دِقّة مسر روفر من نفسه ، ومبلغ عطف والدته عليه ، ومقدار تَلَهُّفه على التعليم ، وشِدّة رغبته في أن يكون كأولاد البيض لباساً وهنداماً ، وعِلماً وعرفاناً ، وشَغَفِهِ بأن يلبس قُبعة مثلهم . وجميلٌ أن تقرأ أحتدائه « للقبقاب » وارتدائه لما يُشبه القِباط . وجميلٌ أن تقرأ ما خطّه عن عَوَزه وفاقته . ولكن أجمل من ذلك كلّهُ أن تؤمن بأن نجاحه كان بقوة إرادته !

لقد وصل إلى همتون بادي الفاقة ، سيّء الحالة ، فكلفه أساتذة المدرسة تنظيف حجرة الدراسة فسَرَّعان ما أخذها وكنسها مرةً وثانيةً وثالثةً ورابعةً

أجل ! لقد كنسَ العُرْفَة أربعَ مرات فرأوا من هذا المخلوق العجيب عملاً عجيباً عَطَّفَ القلوبَ الجامدة عليه ، فأكبروه مع رثيث هِنْدَامِهِ وقبلوه مع حَقارة شأنه . بل إن نفسَ هذا التصميم منه في إتقانه كلَّ ما يُكَلِّفُ أداءُهُ ، وتلك العناية الطبيعية المنفرسة فيما بين جنبيه لهما السرّ في قبول مسر روفر له دون غيره ، وفي

بقائه في خدمتها دون سواه مع صرامتها ، وهي المعروفة بتغيير الخدم بين حين وحين .
وربما كان نفسُ هذا التصميم منه في إتقانه كلَّ ما يُكلِّفُ أدائه مما صَغُرُ أو عَظُمُ ،
قلَّ أو جَلَّ ، هو السرُّ الوحيد فيما كتب له من نجاح في مهمته في الحياة ، وفَوْزُه
في رسالته للإنسانية عامَّة وبنى جنسه خاصَّة .

أنظر ما يقوله بوكر في هذا الصدد بالحرف الواحد : لقد مَسَحْتُ حَجْرَةَ
الإلقاء ثلاث مرات . ثم أمسكتُ بريشة التنظيف ومررت عليها أربعاً .

أجل ! لقد مَسَحْتُ الخشب الذي حول الحائط ، وكلَّ مَكْتَبٍ وَمِنْضَدَةٍ
وَقِمَطرٍ ، وكلَّ قطعة من الرياش والأثاث رفعتها من مكانها الأصلي ونظفتها ، كما
نظفت كل رُكن من أركان الحجرة تنظيفاً تاماً . وكنتُ أشعرُ بأن مستقبلِي
يتوقف على الأثر الذي سأتركه من نفوس أساتذتي في تنظيفي للحُجْرة . وعند
ما انتهيتُ من مهمتي أبلغتُ ذلك للمديرة ، وهي سيدة من « ينكا » تعرفُ أين
تنظرُ إلى موضع الغبار . فلما أبلغتها دخلت الحُجْرة وفحصت أرضها وأفنيتها ،
وَأَمْسَكَتْ بِمَنْدِيلِهَا وَمَسَحَتْ بِهِ الخشبَ في الحائط والمكتب والمقاعد . ولما عجزت
عن العثور على أثرٍ من الغبار لا على أرض الغرفة ، ولا على أثاثها قالت في سكون :
« أظن أنه في الإمكان دخولك للمعهد »

« ولقد كنتُ ساعِئِدُ أسعدَ مخلوقات الله على وجه البسيطة . لأنَّ غسَلَ تلك
الحجرة كان بمثابة امتحانٍ لِقَبُولِي بالجامعة . وإنني أعتقد أنه ما من شابٍ دخل
امتحان القبول في الإلتحاق بجامعة هارفرد أو ياييل ، وأحسنَّ بسرورٍ أكيدٍ كالذي
أحسستُ به .

« لقد مررتُ في امتحاناتٍ كثيرةٍ بعدئذٍ ، ولكنني كنتُ أشعرُ دائماً أن ذاك
الامتحان كان أدقَّ امتحانٍ مررت فيه » اهـ

ثم انتقل تلميذنا الكبير في اعترافاته الى بيان نوع حياته في همبتون ، وكيفية صداقته لمس ماري ماكي الناظرة ، وتقديره لخدمات الجنرال ارمسترنج صاحب ذاك المشروع ، وبيان أوجه كدحه وأجتهاده في العمل ليتسنى له إتمام الدراسة . وعطف أخيه عليه ، ووفاة والدته الرؤوم مما تجده مفصلاً في تاريخ حياته الذي كتبه بنفسه بعنوان « من العبودية » مما لا يخرج عما اقتبسناه لك في تلك اللوحة الموجزة . والذي يهمننا توجيه النظر إليه مبلغ حرص الرجل العظيم على إتقان كل عمل يُعهد إليه به مهما كان نوعه ، ومهما كانت طبيعته . ليس بهام ولا كبير خطر أن تكون كاتباً أو واعظاً ، قائداً أو طبيباً ، خادماً أو زارعاً ، صانعاً أو عاملاً — مهما كانت طبيعة أعمالك — وإنما الهام أن تؤديها على أكمل الوجوه ، وأن تُخلص في القيام بها . الهام أن تشعر بمسئوليتك في إتقانها وتخرجها كما ينبغي وكما يجب ، إذا فعلت ذلك وآمنت به في صميم نفسك ، فأنت الرجل العظيم حقاً .

لا عاب ولا تقيصة في نوع العمل ، وإنما العابُ والتقيصة في أداء ذلك النوع من العمل على وجه ناقص ، وبروح فاترة ، وحمية خامدة . كل شيء يتوقف على الكيفية لا على الشكل على الجوهر لا على القشور : في العمل ، في الإخلاص ، في المظهر . ولعل هذه الصفة دون غيرها هي أساس بطولة العظماء ، لأن مصدرها الإيمان بما في عنق المرء من مهام . والإيمان هو أس النجاح . وليس من شك أن رائد التبريز هو التفاني في الإخلاص ، والمواظبة على العمل ، والمضي في سبيل تحقيق الغاية ، والاستهانة بكل صعب ، والصبر على المكاره ، واحتمال كل أذى لأجل المبدأ أو في سبيله .

(١٠)

حياته الدراسية والعملية في همبتن كانت صحيفة مشرفة له ، وقُدوة خليقة بالإكبار من كل طالب علم وعمل . فلقد أستهان بشئ صنوف المتاعب من عوز وإضاعة ،

وَعُسْرٍ وَفَاقَةٍ ، وَقَصْرٍ يَدٍ عَنْ كُلِّ مَا يَقِيمُ النَّفْسُ وَيَكْسِي الْجَسَدَ ، وَحَيْرَةِ الْمَعْدَمِ وَعَجْزِ ذِي الْمَتْرَبَةِ

صُعُوبَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ : فِي تَحْصِيلِ الْقُوَّةِ . فِي التَّسَرُّبِ بِالرِّثِّ مِنَ الثِّيَابِ . فِي اقْتِنَاءِ الْكُتُبِ وَالْمَرَاجِعِ . فِي دَفْعِ أَجُورِ الدَّرْسِ وَالْإِقَامَةِ . يَدَّ أَنْ هَذِهِ الصُّعُوبَةُ الْبَالِغَةُ فِي حَرَجِهَا وَعُسْرِهَا . وَتَعَبِهَا وَعِيبِهَا . وَحَسَاكُمَا وَقَتَادَهَا . وَحَلَاكُمَا وَظِلَامُهَا — كَانَتْ الْبَوْتَقَةُ الْحَكِيمَةُ ، وَالْمُثَقَّفَةُ الرَّشِيدَةُ ، وَالْمَرِيَّةُ السَّيِّدَةُ . فَقَدْ خَرَّجَتْ مِنْهُ الْعَامِلَ الدُّيُوبَ ، وَكَوْنَتْ مِنْهُ حِمَالُ الْأَعْبَاءِ الصُّبُورِ . وَأَنْضَجَتْ فِيهِ الْإِرَادَةَ النَّافِذَةَ الْمَضَاءَ ، الْحَادَّةَ الْغَرَارَ . وَأَتَمَّتْ لَدَيْهِ صِفَةَ الرَّجُولِيَةِ الْجَلْدَةَ ، الْمُسْتَهِينَةَ بِمَا يَعْتَوِرُ سَبِيلَهَا مِنْ كَثُورِ الْعُقَبَاتِ

أَجَلْ ! لَا يَكُونُ الْعَظِيمُ إِلَّا مَا يَتَرَاكُمُ فِي طَرِيقِهِ مِنْ كَثْرَةِ الْخِيَاثِ وَالْفُشْلِ ، وَلَا يَنْضَجُ إِلَّا مَا يَلَاقِي فِي سَبِيلِهِ مِنَ الْمَرْتَقِيَّاتِ الْوَعْرَةِ الْمُسْتَعْصَاةِ ، وَلَا يَتِمُّ لَدَيْهِ صِفَةُ الرَّجُولِيَةِ الْجَلْدَةِ إِلَّا مَا يَمَانِيهِ مِنَ الْمَكَارِهِ وَالنَّقْصِ ، وَمِنْ تَبَارِيحِ تَكَالِيفِ الْوُجُودِ ، وَأَوْضَاعِ الْاجْتِمَاعِ ، وَتَقَالِيدِ الْوَسْطِ ، وَحَطَامِ الْحَيَاةِ

أَلَا إِنَّ فِي الْحُلُكَةِ وَالظَّلَامِ . فِي الْفَاقَةِ وَالْإِعْوَازِ . فِي الْمَتْرَبَةِ وَالضِّيقِ . فِي الدَّفْعِ وَالْجَذْبِ . فِي الْعُدْمِ وَالْجَذْبِ — فِي هَذَا كُلِّهِ تَخْلُقُ حِيلَةُ الْإِنْسَانِ وَيَدُ الْإِنْسَانِ مِنَ الظَّلَامِ نُورًا ، وَمِنْ الْفَاقَةِ ثَرَاءً ، وَمِنْ الْعُدْمِ عَمَلًا . كَذَلِكَ تَفْتَقُ حِيلَةُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْجَذْبِ خَصْبًا ، وَمِنْ الْعَدَمِ وَجُودًا ، وَمِنْ الشَّدَةِ لِينًا ، وَمِنْ السَّكُونِ حَرَكَةً ، وَمِنْ الرَّمَالِ جَنَانًا ، وَمِنْ الْأَطْفَالِ رَجَالًا ، وَمِنْ الرِّجَالِ أَبْطَالًا !

لَقَدْ اضْطَرَّ بُوْكَرٌ إِلَى بَيْعِ بَذْلَتِهِ . ثُمَّ إِلَى رَهْنِ سَاعَتِهِ . فِي حَيَاتِهِ الْأُولَى . وَلَمَّا أَتَمَّ دَرْسَهُ وَنَالَ مِنْ أَسْبَابِ الثَّقَافَةِ وَالتَّهْذِيبِ مَا أُيْقِظَ فِي نَفْسِهِ الشُّعُورُ بِأَنَّهُ إِنْسَانٌ . وَأَنَّهُ خُلِقَ لِيَكُونَ إِنْسَانًا نَافِعًا أَحْسَنَ بَعْثٍ عَظِيمٍ مُلْقًى عَلَى كَاهِلِهِ . ذَلِكَ أَنَّ يَمْعَلَ

ما في مقدوره ليجعل رفاقه السود مثله في الإنسانية ، بدلاً من تركهم كماء مهملاً
كبعض المقتنيات ، أو دونها قدراً وخطرًا

(١١)

ما ألدّ نعمة العمل . بل ما ألدّ نعمة الشعور بالواجب ! ألا إنّ نعمة الشعور بأداء
الواجب مصدرها راحة الضمير . والضمير إما أن يكون جامداً لا حرّاك به ولا
حياة فيه ، ولا نبض ولا حرارة . كلاً ! بل يكون وقتئذٍ مصدر راحة عَفْنَةٍ يتقرّز
منها الجميع . وإما أن يكون جنة نعيم أو نار الجحيم . ولعمركم ليس أفضل ولا أنبل
من سعادة الضمير أو عذابه . سيان طبعاً هناء الضمير أو عناؤه ، لأنهما دليلان على
الحياة . على النبض والحرارة . على الحساسية والشعور . على المحاسبة والاحتكاك .
وأخيراً على الخلق والكرامة والإيمان والعدالة . على فهم ما يجب وما لا يجب ،
وتعرف ما يليق وما لا يليق

ألا إنّ الأمة التي يُحسّ قادتها بما عليهم من واجبات وتبعاتٍ ويعملون من
حياتهم العملية مثلاً ناطقاً وقُدوةً صالحةً ، لهم وحدهم عنوان نهضتها ، ورمز حياتها .
ومصدر سعادتها ، وموئل قوتها . ذلك لأنّ حياة الأمم بالعمل قبل أي اعتبار .
وبالعمل وحده تُقاس الكفايات وتمتاز الشخصيات . ولشعب عارف بما عليه من
واجبات وتبعات عامل بها أقدر شأنًا في مُعترك الحياة من شعب صارخ بما له من
حقوق . لأن الكلام يضيع في أرجاء الهواء ، وأما العمل فحركة ونماء ، وحياة
وبقاء . وتقدّم وأرتقاء

وقد كان « بوكر » مثلاً أعلى لتعرف الواجب ، وقُدوة سامية للعمل المنتج ،

والحركة الدّوبة

لقد فتح مدرسة لتعليم ثلاثين طالباً من لا شيء . فتحها بأقل من ريال ورهن

ساعته وواصل مَعْدَاتَه بِمِرَاحِهِ ، وساعد كلَّ أسود وسوداء على التعلُّم في مدرسته أو في هِيتِن . وعَمِلَ على إتاحة فُرْصِ النِجَاح ، والعمل لكلِّ راغِب من أبناء جِلْدَتِهِ . ثم ماذا ؟

لقد وقف « بوكِر » على سرِّ النِجَاح من أول لحظة . لقد فهم الجوهرَ لا العرض . فهم أنَّ المطلوبَ من العلم هو الإعداد الحقيقى لمعترك الحياة الحقيقى . فهم أنَّ المدرسة يجب أن تكون صورةً مصغرةً من ميدان الحياة ، وأنها يجب أن تُخرج رجالاً للمِزَاجَةِ في مناكِب الحياة بأسلحة الحياة . فهم أنَّ التعلِيم الظاهرى لا يُفيد بل يضر . فهم أنَّ النظريات بحاجة إلى العمليَّات ، فماذا فعل ؟

إنَّ مدرسته بحاجة إلى بنايات جديدة وعدَدٍ ومُعَدَّات . وأدواتٍ وجِهَازات . ومَقَاعِد وحُجُرَات . فلماذا لا يشترك التلاميذ في إعداد ذلك جميعه . بل لماذا لا يقوم التلاميذُ بمُخْتَلَف الصناعاتِ سواء أكانت للمدرسة أم لحاجات الأهلىن ؟ لقد نفرَ بعض الآباء من خُطتِه ، ولكن إرادته الحديدية نجحت في النهاية . وقد فشِل في بناء قَمِينَةٍ ضَرَب الطوب وغيرها أولاً وثانياً ولكنه نجح أخيراً

لا امتهان في العمل . بل المجدُ كلُّ المجد في العمل . وفي نِجَاح العمل تقدَّم البشرية المطَّرد . وبقدر التضحية يكون الجزاء . لقد نام في العراء حينما كان طالباً وضَاقَت المدرسة بطلَّابها ، وقبِل مع رِفَاقهِ سُكْنَى الخيام إرضاءً لرغبة « ارمسترنج » في قبول عدد من السود يزيد عما تحمله حُجُرَات المدرسة ، فلماذا لا يتقدم طلاب مدرسته بمثل نوع عمله

لذلك رأى أن يَخْلُق على غِرَّارِهِ هو ، وعلى خُلُقِهِ هو ، وعلى مِثَالِهِ ونشأته من تلاميذه رجالاً مُتَدَرِّعِينَ بِسِلَاحِ العمل وخالقِ التضحية ، مُدَرِّبِينَ على العمل والكِفَاح في الحياة بِسِلَاحِ العمل

أجل ! لقد كلف بوكر وشنجتون طُلَّابَهُ العديدين بكل أنواع العمل ، وأفهمهم بطريقة عملية أن العمل وإن قلَّ قدره ، وصَغُر شأنه تاجٌ يَشْرَفُ صاحِبَهُ . كلهم ضرب الطوب ، وعمليات البناء . كلهم مُختلفَ أنواع الصناعات والزراعات

لقد صمَّم « بوكر » على قرْن العلم بالعمل . صمَّم على أن يتعلَّم الطالبُ النظرياتِ من الكتب ، والعملياتِ من صناعات الوسط الذي يعيش فيه ، والذي سيعيش فيه . صمَّم على أن يخرج الطالب من معهده نافعاً لنفسه ، معتمداً على جهده ، مكتسباً رزقه من يديه ومن عقله . ثم تَابَرَ على ذلك إلى أن تمَّ على يديه إنشاء مدرسة شاهقة البنايات والملحقات للعلوم ومختلف الصناعات ، أوجد بها حوالى الأربعين معهداً ، وما يزيد على ألف طالب ، وقد بنى طلبتها كنيسة لهم

(١٢)

وهل اكتفى « بوكر » بذلك ؟ . هل قنع بإفادة ألف طالب ؟
لقد رأى أن أُمته فيها ما لا يقلّ عن عشرة الملايين من أبناء جلدته . وهم قد خيَّم الجهلُ عليهم بِجِرَانِهِ . وهم فى مَترَبَة مُودية ، وحالة مهلكة . ورأى أنهم بحاجة إلى رُسُل وهداة من خريجي مدرسته الذين اعتادوا العمل ، وقرنوا العمل بالعلم ، والذين أنضجت التجارب عقولهم والعمل أيديهم ، والذين تهذبت أخلاقهم ونبلت ميولهم . فبذل الجُهدَ الجَهِيدَ فى جمع المال لتلك الغاية . وأسّس المدارس الليلية والنهارية . وخرَّج رجالاً عاملين ونساءً عاملات . وعلم الرجال الهندسة الزراعية والعلمية والعملية وشَتَّى أنواع الصناعات : من مُهَمَّات البناء ، ومنتجات الزراعة والصناعة . كالجبين والحلوى ، وأنواع الحدادات والحياكة والتصوير . كما علم النساء جميع ما تحتاج إليه المرأة فى منزلها وحياتها الخاصة .

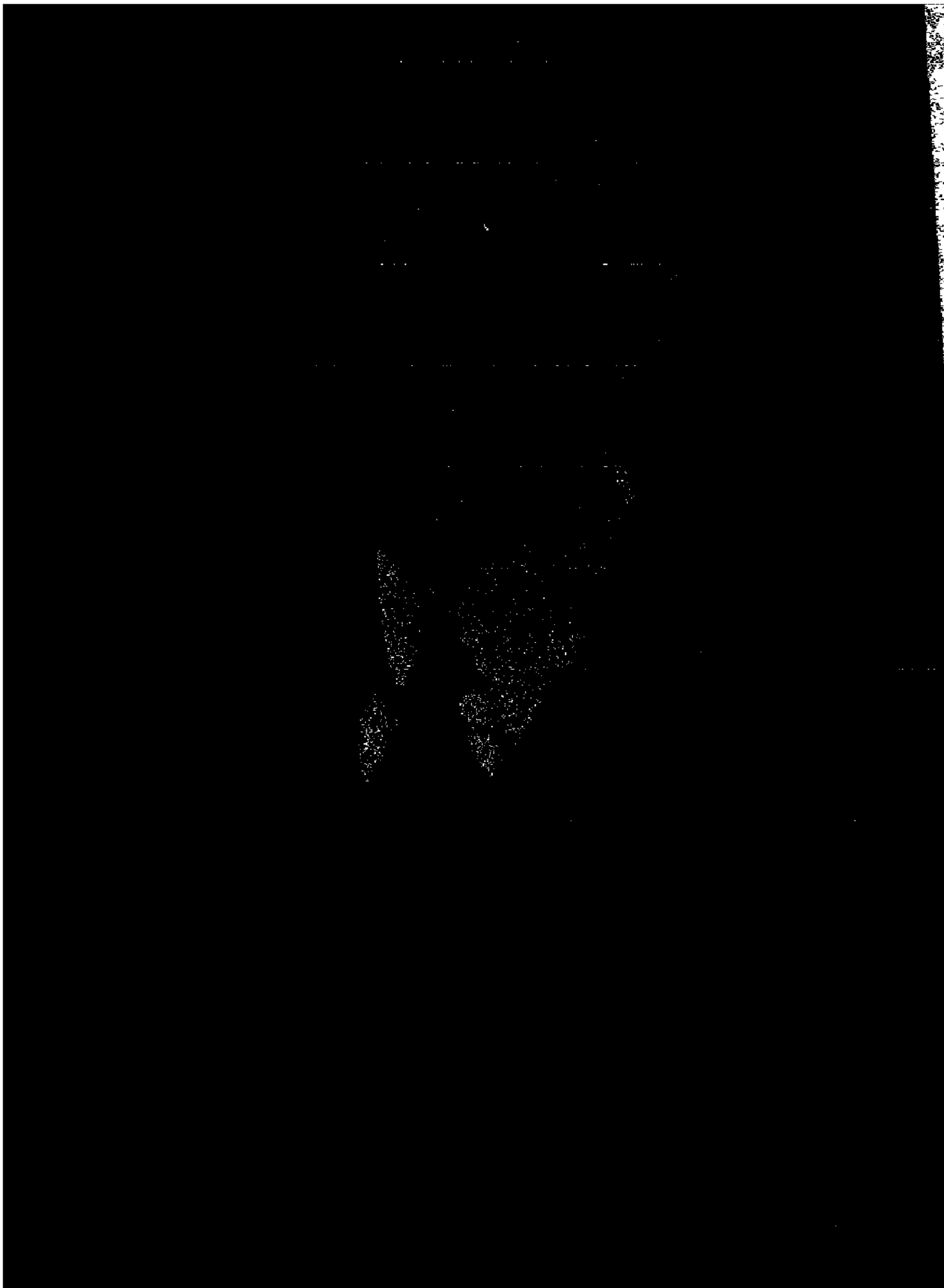
من طريف نتائج تعليمه أن معملًا من معامل الزبدة والجبين أعلن عن حاجته إلى عامل للزبدة فتقدم إليه شاب من السود من خريجي معاهد بوكر، فرفض أصحاب المعمل استخدامه لأنه أسود، وهم لا يشغلون إلا البيض. فقال لهم الأسود: إنني جئت إليكم لا لتستخدموا لوني بل لتستفيدوا من عملي وتجربتي، فسمحوا له بالمكث بينهم مدة أسبوعين، على أن يحكموا بعدها.

ثم عُرضت زبدة المعمل من صناعة الأسود في السوق بعدئذ، فتدرج ثمنها في الزيادة أسبوعًا بعد أسبوع. وزاد الإقبال عليها مما أدى إلى استمساك القوم بعاملهم الأسود الجديد.

وهكذا استمرت معاهد بوكر على تخريج الأكفاء من رجالها السود ونسائها السود. وكان لاحتكاك هؤلاء وهؤلاء من أبناء رهطهم وبنات جلدتهم أحسن الآثار في ترقية شعبهم علمًا وعملاً.

(١٣)

وكم كنت أود أن أخطبكم عن بوكر الخطيب، وبوكر السياسي، وبوكر المؤلف، وبوكر المربي، وبوكر الزوج، وبوكر الأب؛ ولكنني أجتزئ لكم بما أسلفته من حياته العاملة، وأمل أن يكثر بيننا هذا الصنف من الرجال، وأن يعم في ربوعنا هذا الصنف من التعليم. كما أرجو أن يجد شبابنا من إرادته الذخيرة الصالحة لآمالهم الصالحة.



هنری فورد

مول بطل عصامى وزعيم فى الصناعة

هنرى فورد

(١)

حياة المرء جزء من حياة أمته ، وحياة أمته متصلة الحلقات بحياة المجتمع الإنسانى ، فإمّا أن يكون عالّة على أبناء جنسه إن أساء صنعاً وأفسد أمراً ؛ وما كان الإنسان لو تدبّر وكان من المهتدين بكم مهمل خُلق ليترك سدى بدداً لا يعى ما يُراد ويُشاد ، وما كان بكيان مُستقلّ ليطلق النفس على ألسانها ، وإنما هو مُسىءٌ بجموحه الأتراب والأخذان ، والشجراء والأقران ، ثم هو عابثٌ فى عبثه ذاك بمصلحة الأوطان ، مُعتدٍ أثيم على حقوق زميله الإنسان . وما كانت الحياة لعمركم بدار لهوٍ وعبث حتى نضيع فيها عُقُوقاً شديتنا ، وخِدرَ غرارتنا ، وكنّ صبوتنا فيما لا يعيد ولا يفيد . وإِنما هى دار جدّ وعمل ، إن أهملنا فيها قاسيناً أهوالاً تشيب النواصى ، وعانينا إعساراً يُزِيل الرواسى . وتجرّعنا صابها وعَلَقَمَهَا وكُنّا فيها من الهالكين . . . ! وإمّا أن يكون الإنسان إن أحسن وأفاد ، وأبلى وأجاد ، مصدرَ نعيم مُقيم . ومُتفجّر خيرٍ جزيلٍ لنفسه وذريته ، وآله وعشيرته ، وأمته وإنسانيته .

وحياة « هنرى فورد » مترعةٌ بشيِّءٍ المواقف . ومئات البشواهد ، بما فى مقدور العضو النافع من خدمة المجموع خدمةً خالدةً ، إن كانت قد عادت بجزيل جدواها على شخصه الفانى ، وأفراد أسرته الزائلين بما أصاب لهم فى سِنِي

جهاده من هَيْل^(١) وهَيْمان ، وسَبَد^(٢) ولَبَد ، ومال ونَشَب ، فقد عادت على امته والعاملين معه من شيعته بأجزل الثمرات ، وجنى المكافآت ، كما عادت على الإنسانية بما هو أبلغ وأسمى ، وأعم وأجزى ، وأشمل وأوفى .

أجل . . . ! حياة « هنرى فورد » درسٌ خَصِيبٌ في فلسفة الحياة العاملة الرشيدة ، قَمِينٌ بإنعام نظركم ، وحِصاة تفكيركم ، ومتحفز همّتكم ، ومتوثب إرادتكم . وهو درسٌ خُلِقَ بليغٌ ، تنطق حروفه قبل حوادثه ، بما في مُكْنَةِ الرجل الجلد الدئوب أن يكون بإرادته الصادقة ، وإيمانه الخالص ، وثِقته في ذخيرة نفسه ، وقوى إرادته ، وأُعتماده على مجهوده الفردى لا على طارفه وتالده ، ولا على نِجاره وأرومته ، ولا على حَسَبه ونَسَبه ، وعَقَّاره ونَشَبه ؛ بل على عمله المتواصل ، وإنتاجه المُجْدَى ، وَيَقْظَتَه وسَهْرَه ، في مُكْنَتِه أن يكون : « أُمَّةٌ في رجل ، ورجلاً في أُمَّة ، وعزيمة مُرْهَفَةٌ في إهاب ، وإهاباً صُلْداً قوياً قد قُدَّ من صُلْبٍ وحديد ، وقوّة وأيد ، وأُترَعَ بما فوق الأرض من عَزَمَاتٍ ماضيات ، وهَمَمٍ مُتَوَاصِلات ، وعِبَرٍ وعظّات ، وآثارٍ مُنتِجات »

بل هي دَرَسٌ قِيمٌ من فلسفة العمل المُثْمِر في الحياة . كُلُّهُ نُورٌ وَهُدًى ، وحكمةٌ وحِجْبِي ، وسَدَادٌ ونُهْي ، تَهْيِبٌ بمن اتعظ وأتق : « أَلَا إِنْ الْوَقْتَ مِنْ ذَهَبٍ ، فحذار من تركه سُدًى »

بل هي اللسانُ الناطق لكل مَنْ تراخى وتناعى ، وتوانى وتقاى ، ولكل سادرٍ في مرعى بطالاته ، قد أَمَعَنَ في تِيهِ إهمالاته ، وسَدَل ثوبَ تقصيراته . وهي الناصحُ الصادقُ لكل جامعٍ في خَزَعِلاته ، مُضَيِّع ثمين أوقاته ، مُفْنٍ في

(١) الهيل والهيمان كناية عن المال . ويقال لم يصب فلان هلة ولا بلة أى لم يصب شيئاً

(٢) السبد واللبد كناية عن المال أيضاً . وأصل السبد : الشعر . واللبد : الصوف

شهوات النفس ولذا ذاتها الفانية سني حياته وجماع تفكيراته . وكأني بها تصيح في وجه كل وباء ، من أمثال هؤلاء^(١) :

أنا النذير لكم مني مجاهرة
فإن عصيتم مقالى اليوم فأعترفوا
كترجعن أحاديثاً ملعنة
من كان في نفسه خوفاً يطلبها
أقيم عوجته إن كان ذا عوج
كما يقوم قدح^(٢) النبعة^(٣) الباري^(٤)

كفى لا ألام على نهي وإنذار
أن سوف تلقون خزيًا ظاهر العار
لهو المقيم ولهو المذليج السارى
عندي فإني له رهن بأصهار^(٥)

(٢)

حياة « هنري فورد » هي من المثل العليا ، الناطقة في قوة وجلال ، بما لفضيلة الصبر ، وقوة الاحتمال ، والاضطلاع بياهظ الأعباء ، وثقل التكليف من أثر ملبوس في نجاح الرجل الجلد الصبور . وهي في الوقت ذاته من المثل الحية لما ينتجه العمل الكثير ، واليقظة الساهرة ، والعناية المتوفرة ، والالتفات الدقيق الذي لا يلهو ولا ينام ، من ربح دائم ، وهناء قائم .

وإذا كان « نابليون بونابرت » قد قال كلمته الماثورة : أن لا « مستحيل » في العالم ، وأشار إلى ضرورة محو هذه الكلمة ، وإزالتها من معجم اللغة ؛ فإن حياة « هنري فورد » اليومية — لا ماثور أقواله فحسب — قد أثبتت بما لا يترك ريباً لمستريب ، ولا غبار شكٍ لمتشكك . أن العمل المتواصل ، والصبر المستمر يوصلان صاحبهما إلى تحقيق كل ما يرجوه ، وإبراز كل ما يتخيله . وإن لم

(١) انظر أبيات قيس بن رفاعه في كتاب الأمل لأبي علي الفاي ح ١ ص ١١ طبعة ثابئة دارالكتب

سنة ١٩٢٦ . (٢) أصح القوم : برزوا الى الصحراء ، أى بلا استتار ولا امتناع .

(٣) القدح : السهم قبل أن يسوى (٤) النبعة : الفوس (٥) الباري : الذى يبرى السهم

يَسْمُ بِهِ ذَكَاءَهُ فَوْقَ الْمُسْتَوَى الْعَادِيّ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ قَرِيحَةٍ نَادِرَةٍ وَقَادَةٍ ،
أَوْ فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ نَقَادَةٍ .

لَقَدْ كَانَ « هِنْرِى فُورْد » ، صَاحِبُ الْمَلَايِينِ ، وَمَخْتَرَعُ النُّظُمِ الْحَدِيثَةِ فِي عَالَمِ
النَّقْلِ الْمِيكَانِيكِيِّ — فِي طِفْلُوته — ، وَهُوَ لَا يَزَالُ ابْنُ ذَلِكَ الْمَزَارِعِ الْكَادِحِ
الْبَسِيطِ فِي عَمَلٍ مُسْتَمِرٍّ ، كَمَا كَانَ مِثْلًا نَادِرًا فِي الْإِيْمَانِ بِمَشْرُوعَاتِهِ الَّتِي بَدَأَتْ صَغِيرَةً
مِثْلَهُ ، وَنَمَتْ مَعَ الْعَمَلِ وَالِدَّاءِ نَمَوْ جَسْمِهِ ، وَكَانَ لَا يَنِي وَلَا يَغْفُلُ فِي تَعَهْدِهِ لَهَا ،
وَمُوَاطَبَتِهِ عَلَى إِتْقَانِهَا ، وَسَهَرِهِ عَلَى رَأْيِ صَدْعِهَا ، وَإِصْلَاحِ خَلَلِهَا ، وَتَقْوِيمِ مَعْوَجَّهَا .
وَمِنَ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ إِذَا مَا تَغْنَى النَّاسُ بِوَفِيرِ ثَرَوَتِهِ ، وَوَسِيعِ نِعْمَتِهِ ، وَكَبِيرِ آثَارِهِ ،
وَعَظِيمِ آلَائِهِ ، تَخْلِقُ بِهِمْ أَنْ يَدْرُسُوا حَيَاتِهِ ، مَنْقَبِينَ بَاحْثِينَ ؛ وَجَدِيرٌ بِهِمْ أَنْ
يَتَفَهَمُوا سَامِيَّ صِفَاتِهِ ، وَنَبِيلَ سَجَايَاهُ ، وَفَلَسَفَتِهِ ، فِي حُذْيَاهُ وَعَطَايَاهُ ؛ وَقَيْنٌ بِهِمْ أَنْ
يَتَغَنَّوْا بِمَا لَهُ مِنْ هِمَّةٍ قَعَسَاءَ ، وَمَا رُكِّبَ فِي جَسْمِهِ الْهَزِيلُ مِنْ عَزْمَةٍ وَمَضَاءَ ، وَلِزَامٍ
فِي عُنُقِهِمْ أَنْ يَذْكُرُوا أَنَّ « فُورْدَ » الْمَالِيَّ الْعَصَامِيَّ ، وَالْمَخْتَرَعِ الْاجْتِمَاعِيَّ ، كَانَ مِنْذُ
اللَّحْظَةِ الْأُولَى فِي أَوَّلِيَّاتِ أَيَّامِهِ فِي الْحَقْلِ ، ذَهَابًا فِي تَصَوُّرِهِ إِلَى جَوَازِ الْإِسْتِغْنَاءِ
عَنِ الْحَيَوَانِ فِي الزَّرْعِ وَالْحَرْثِ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَحُلُّ النَّفْسَ بِأَنَّهُ فِي مَقْدُورِهِ أَيْضًا إِمْدَادَ
الْعَالَمِ بِلَبَنِ صِنَاعِيٍّ يَصْنَعُهُ لَهُ مِنْ مِهْمَلَاتِ الْأَعْشَابِ ، وَنَفَايَاتِ الْحَشَائِشِ .

(٣)

شبابنا الناهضين :

لَسْتُ أَعْدُو سِدْرَةِ الْحَقِّ إِذَا مَا قُلْتُ إِنَّكُمْ لَا مَفْرَ مَقْتَنَعُونَ بَعْدَ إِطْلَاعِكُمْ عَلَى
« كِتَابِ حَيَاتِي وَعَمَلِي » الَّذِي وَضَعَهُ فُورْدٌ عَنْ نَفْسِهِ بِمَعَاوَنَةِ أَحَدِ أَصْدِقَائِهِ مِنَ الْكِتَابِ
الْمُسْتَرِ « صَمُوِيلِ كِرُوْتِر » وَأَصْدَرْتَهُ مَطْبَعَةُ هِينْمَانِ عَامَ ١٩٢٢ بِأَنْ عَصَامِيْنَا الْكَبِيرِ
« هِنْرِى فُورْد » قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْمَالِيِّ الَّذِي لَا يُشَقُّ لَهُ غُبَارٌ ؛ وَالسِّيَاسِيِّ الْمَحْنَكِ ،

والمصلح الموفق ، والمستنبط البارع ، والمُحسِن المثقَّف ، والمرشد الخطير . ولست أرتابُ البتَّة أن كل مطلع على صحفه الثمينة سيخرج منها وقد آمن بأن الرجل ليس بطالب مال ، ولا ساعٍ بمنكبيه فى الأرض وراء الثروة فحسب ، بل هو مصلح إنسانى أشرب قلبه الكبير حبَّ الإنسانية فعمل على نفعها ، وسعى سعيه المجدى إلى تخفيف ويلاتها وترفيه متاعها ، وإلا فلماذا وقد جمع البلائين من الجنيات ، وبلغ من الحياة حوالى السبعين لا يزال يكدح كدح الشاب اللدُن الطموح ؟ . ثم لماذا يغيرُ نُظم عمله ، ويُخرج للعالم من مصانعه فى السنتين الأخيرتين مقدار ما أخرجه فى عشرين سنة سلفت ؟ ثم لماذا يؤلف ويكتب ويعظ ويرشد ؟ ثم لماذا استمرَّ فى عمله حتى استطاع أن يصنع الى يومنا هذا ما يزيد على الخمسة عشر مليوناً من السيارات ، ثم هو لا يزال يعمل على تحسينها . ويبذل قصارى الجهد فى إتقانها ورُخص ثمنها ليسهل على الجميع اقتناؤها .

(٤)

أنتم لا تحفلون كثيراً بأن تعلموا أن عصاميكم الخطير قد ولد فى ٣٠ من يولييه عام ١٨٦٣ فى مزرعة والده المتوسط الحال بقرية « ديربورن » بمقاطعة متشيجان بالولايات المتحدة . ييّد أنكم تحفلون كثيراً بأن تعلموا طرفاً من طفولة عصاميكم الذى كان يأمل والده أن يتخذ ولده الشئون الزراعية مثله ، فكاشف بذلك المستفسرين من الجيرة والأصدقاء . كما تحفلون بأن تعلموا بأن مزرعة والده الراحل الكريم قد أضاف عليها ذلك الابن النابه الذكر ، عظيمُ القدر ، الشئ الكثير من المزارع المجاورة لينشئ عليها جميعاً مصانع سياراته التى أسعدت العالم وأسعدته . وقد تحفلون أيضاً أن تذكروا مبلغ استهزاء الصبية وتهائف الكبراء من السيارة الأولى التى صنعها شابنا النابغة . وكانت ، لعمركم . أشبه شئ . بمدكة الطرق

البخارية^(١) ولكنكم تحفلون أيماً حَفِيل بما جُبِلت عليه نفسُ فورد منذ نشأته من جلادة وكفاح ، وبسالة وسعة أعطان ، وغير ذلك من صفات الرجولة القويّة الفدّة التي ساعدته على تحطيم ما اعتور طريقه من صعاب كأداء ، وتحفلون أخيراً بالوقوف على أسرار تقدّمه ، ونجاحه من درسم لسجاياه ، وتعرفكم لمثابرة ومواظبته ، وتفهمكم لإيمانه في نفسه ، وثقته في كفايته ، وأعماده على قدرته ، وتقديره لتفكيره ، وإتقانه لأعماله

لقد ظهر ميلُ هذا العصاميّ النابه منذ ريق الصبا وميعة الطفولة إلى المسائل الميكانيكية ، وتجلّت نزعاته إلى البحث والاستقراء ، وتفهم كلّ شيء على حقيقته ورده إلى نصابه وأصله ، وكشف اللثام عن علله ومسبباته منذ نعومة أظفاره . ولعلكم قد اطلعتم فيما كتبه مؤرخو حياته عنه أنه صنع وهو في مدرسته دولاباً دقيق التركيب تديره المياه المنحدرة ونصبه إلى جوارها ، كما صنع آلةً بديعة الصنع لدرس الحنطة والحبوب . صنع ذلك كلّهُ في تلك السنّ التي يلهو فيها أترابه الأطفال فيما لا يُجْدَى ولا يفيد ، وفيما ينفق وطبيعة أعمارهم المَرِحَة الطائشة . بل لعلكم قد قرأتم عما فعله أثناء سَفَرَة قصيرة له إلى دترويت — تلك المدينة التي أضحت نابهةً بنباهته ، عظيمة لمعظمته ، وعلمتم لماذا وقف إزاء تلك القاطرة المشوهة الشكل ، القبيحة الهيئة التي كانت تقطع الطرقات بلا خيل تجرها ، ولا دوابّ تسوقها ، وإنما تسير بمحرّكات بخارية كأنّها قاطرة من قُطُر السكة الحديدية . لقد وقف صاحبنا اللبّق الحصاة ، المشهوم^(٢) الفؤاد ، إزاء تلك القاطرة فاحصاً دارساً ، مستفسراً مستفهماً ، وقد أمطر مهندسها وسائقها بأسئلته عن كيفية صنعها وطريقة تركيبها . وإني لمفترضٌ ما تفترضونه من عدم بخل المهندس أو السائق عن الإدلاء إليه بما يطلب ، ووقفه على ما التبس عليه . ذلك لأنه لزامٌ في عُتُق العالم تعليم

(١) وابور الرلط (٢) المشهوم الفؤاد : أي الدكي النبيه .

الجاهل ، وفي عنق العارف تعريف من لا يعرف ، ومكانة العلم في إذاعته ، وفضل العرفان في إفاضته ، وخطر الإنسان بمقدار تفهعه وإفادته .

إن قبر العلم في الصدور ، مدعاة لدفنه في القبور . والأمة الحية الناهضة من يأخذ فيها متعلمها بيد جاهلها ، وقويها بناصر ضعيفها ، ويحذب شابها على شيخها ، ويعطف سريها على فقيرها . وأخيراً هي المتصلة الحلقات ، الوثيقة العرى ، المتينة الشائج ، رُوحاً ودمًا ، وعلمًا وعملاً ، وقلبًا وقلبًا ، وعاطفة وحساسية .

أتعرفون ماذا كان من جرّاء تفهمه لطريقة تركيب تلك القاطرة ؟

لقد مرّت سنوات قليلة على رؤيته لها للمرّة الأولى ، وقد حَسَرَ عن ساقه ، وعَصَرَ لُبَابَ ذهنه ، وصنع من تلقاء نفسه مثيلتها . وما صنعها إقتناعاً منه بأنها المثل الأعلى للسيارة التي يريدّها ، أو التي أرادتّها جهوده ومثابرته ، أو التي أخرجها للناس إخلاصه وإتقانه . وإنما صنعها ليُرْضَى نَهْمَتُهُ ، وكمين لهْفَتُهُ ، وعميق رَغْبَتُهُ .

لقد قلتُ لكم إن « فورد » شديدُ الإيمان بكفايته . وليس معنى الإيمان بالنفس انتفاخ الأوداج ، وازورار الجنب . ليس معناه الشموخ بالأنف ، وتصعير الخد . ليس معناه التيه والغرور . فلعمركم إن لقاح الأولى العمل والدأب . وأمّا الثانية فإنها قدّاحة البوار والهلاك . وفي الأولى القطوف الدانية ، والثمرات الجنية وفي الثانية السراب الكاذب ، والخيال الزائف . وفي الأولى النجح المؤزّر . وفي الثانية الفشل المطبق .

وليس بِمُعْرِقٍ ولا مبالغ إذا قال قائلكم وقد ملأه إيمان فورد بنفسه إكباراً وإجلالاً : « إن الإيمان هو فورد ، وفورد هو الإيمان » وإلا نخبروني ، أسعفكم الله بطلبتكم وحقق لكم بُغْيَتَكُمْ . ماذا يكون حال « فورد » لو تراجع إلى الوراء إزاء استخفاف جميع الجيرة والمعارف من سيّارته الأولى التي كانت هدفَ أزدراءهم ،

ونصب تحقيرهم ، وموضع تهانفهم ، ومحط استهزائهم ، ومرمى أحجارهم ؟
 إنَّ دخل فورد قد بلغ حوالى ٤٠٠,٠٠٠ من الجنيهات فى الأسبوع . وإنَّ
 أجور فورد لعماله وصناعه قد وصل فى السنة الواحدة إلى ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من
 الجنيهات . فحدثونى ، لعمركم ، أكان فورد واصلاً تلك الذروة من الجاه العريض ،
 والمال الوفير ، والقدرة الفائقة ، والعظمة الباسقة ، لو لم يكن مؤمناً بنفسه منذ
 اللحظة الأولى ؟

أليس من الحق أن تقول إن سرَّ عظمة العظيم كين فى نفسه . فبمقدار إيمانه بما
 فى نفسه من ذخيرة غنيّة ، وثروة خصيبة ، ومعين لا ينضب ، وكفاية لا تُوهن ،
 وإرادة لا تتخوّر ، وجُرأة لا تهزم ، بمقدار ما يصيب فى سِنى عمله ، ومتباين
 مشروعاته ، ومتواصل أعماله ، وهو يسير قُدماً إلى الأمام لا يلوى على شىء من
 تقدّم وفلاح ، وتوفيق ونجاح . ما فى ذلك شك ولا ريب .

(٧)

كم كان العالمُ سيخسر الخسارة الفادحة التى ليس إلى تلافيتها من سبيل ،
 لو أن شابنا العصامى الذى وُفق يوماً فى فكّ ساعة وإعادة تركيبها ، والذى قد بلغ
 من هيامه بأمر الساعات أن قد جمع من أنواعها المختلفة ما يزيد على الثلاثمائة ساعة ،
 وتخصّص فى أمر إصلاحها وتركيبها حتى فكّر جدّاً فى مشروع صنع ساعات
 رخيصة الثمن ، يبيع الواحدة منها بحوالى عشرين قرشاً ، والذى قد بدّ صنّاع الساعات ،
 وهو فى سنّ السابعة عشرة من عمره ، وكاد يكون مثل « صامول انجرصل » الأمريكى
 صاحب مصنع الساعات الرخيصة الثمن . تقول : كم كان العالم سيخسر الخسارة
 الفادحة لو أنصرف صاحبنا إلى الساعات وشئونها ، بدلاً من السيارات ومحركاتها ،
 والصناعات الكبيرة وشبّتى مراققها ؟

ولهيامه بالميكانيكات قصة : فقد تفقده آباؤه يوماً وقد غاب عن أبصارهم ، فشدَّ ما كانت دهشتهم إذ وجدوه فى جُرن الحِنطة وقد تصبَّب عرقاً ، وهو مستغرقٌ فى فكِّ الساعة وتركيبها بأدواتٍ من صُنع يديه ، وكان العليم بالفِطرة بدقائقها ، وأدواتها الصغيرة كافة .

أجل ! لقد هام بالميكانيكات هُيام الولِّه الصبِّ ، والمحِبِّ الدنف . وكان لا يعرف للعب مذاقاً ، ولا للهو طعماً ، ولا لإضاعة الوقت استساغة . وكان الوقت لديه كل شىء ، والعمل الدائم مهمة الإنسان الطبيعية . وما خُلِقنا سُدًى ، وما تُركنا عباهاً مناهلاً بلا عملٍ ولا غاية .

أليس من الممتع المشجى أن تعلموا أنه وهو فى الثالثة عشرة من عمره الحافل بجلائل الأعمال وكبارها ، وعظائم الأمور وهامَّها ، ومُجدى المنتجات ونافعها ، قد شدَّ حيازمه ، وقدح زنادَ تفكيره فى تركيب آلةٍ متحركة ليضعها فى درّاجة رفيق له حتى يستغنى بها عن إدارتها برجليه ! وبعبارة أوضح ، فكَّر فى تلك السنِّ الطائشة فى اختراع « المتوسىكل » !

أليس فى ذلك الدليلُ الناطق ، والبرهانُ القاطع على أن هنرى فورد قد بُعث فى الحياة ليكون المخترع الماهر ، والعامل النافع ، والصناع البارِع ، والعصامىِّ التقدير ، والمصلح الاجتماعى الخطير ؟

قد تعلمون من قراءاتكم فى تواريخ حياته ، أن عصاميتكم الشاب كان يتعلَّم من الشئون الزراعية ولا يعيل إليها ، وتعلمون أن أباه لم يُفلِح فى جذبِه إليها مع ما بذله من قُصارى الجهد فى تحبيبه إليها ، وترغيبه فيها . وتعلمون أنه استمرَّ فى التعلُّم بالمدرسة إلى أن بلغ السابعة عشرة حيث التحق بعدئذٍ تلميذاً فى مصنع هندسىِّ محلى . وأنَّه مَهَرَ فى عمله الميكانيكى قبل انقضاء مدة ثلاث السنوات المقررة للتمرين

وتعلمون أنه التحق بعد إتمام مدة التمرين مع المندوب المحلى لمصنع « وُسْتَنْجَهْوَس »
 لبيع قاطرات كالتى رآها فى الطريق منذ بضع سنوات ، ولكنه قد يَلْذَّ لكم أن
 تعلموا لماذا ترك إصلاح الساعات وصناعتها بعد أن حذقها وهو فى الخامسة عشرة
 من عمره ؟

لقد رأى أن مجال تقدّمه من ناحية ، ومجال خدمته للإنسانية من ناحية أخرى
 إذا ما تخصص فى الساعات وإصلاحها سيكون ضيقاً ، وكانت همته قصيّة المرمى
 بعيدة المطمع . ورأى على النقيض أن باب المستقبل مفتوح على مصراعيه أمامه
 إذا ما وجه فى العمل فى صناعة تلك القاطرات البخارية التى وإن كانت معتلةً مختلةً ،
 فإنها لاغتلاها وأختلاها بحاجة إلى التحسين ، وفى تحسينها التقدّم المطرد ، وفى
 تقدّمها المطرد العملُ المنتج ، وفى العمل المنتج الربحُ المتزايد .

على أن حميته للعمل ، وإكبابه عليه ، كان من شأنهما أنه لم يتردد فى الاستمرار
 — فى سواع فراغه من عمله النهارى مع المندوب المحلى لمصنع « وُسْتَنْجَهْوَس »
 للقاطرات البخارية — على عمل الساعات وإصلاحها لأحد تجارها ، فأصاب ربحاً
 وخبرة ، كما أنه استفاد بفراغه أيما إفادة فى صنع قاطرة بخارية على طراز خاصٍ
 وطبقاً لتفكيره الخاص .

ولقد كان من جرّاء تلك الحميّة النادرة المثال ، وتلك الهمة البعيدة المنال ، أن
 حُدِبَ عليه رؤساؤه ، وأحبّه قُرَناءؤه ، واطرد تقدّمه ، وذاع بين العمال صيته ، ثم
 نبه شأنه ، وارتفع قدره ، وتوطدت فيه ثقة الجميع ، وأُشْرأبت نحوه الأعناقُ من
 كل صَوْبٍ حتى أصبح رئيسَ مهندسى شركة « اديسن » صِنُوهُ فى النبوغ ، ومثيله
 فى المثابرة والإكباب على العمل النافع للإنسانية ، المرفّه لحالها ، المُسْعِدِ لَبَنَائِهَا .
 كانت الفكرة الأولى التى بدّهت « فورد » وهو لا يزال الصبيّ المرح الذى

يُشْرِفُ بنظره الساذج على المروج والحقول ، والأجمات والمزارع ، أن كَمًّا كبيراً من عملها يقوم به الزَّراع بأنفسهم ، وأنهم يبذلون من قُوَى سواعدهم المفتولة ما لا مدعاة له ، وما يمكن الاستفادة به فيما هو أهم وأدق .

وكان يحلم منذ تلك السن المبكرة باختراع آلة رخيصة الثمن تكون فى تناول الجميع لأداء تلك الأعمال الثقيلة الآلية . وكان يعتقد أن خير ما تخدم به الإنسانية إنما هو فى استعاضتها بأمثال تلك القُوَى الميكانيكية عن تلك القُوَى الإنسانية المضيفة سُدَى . لاسيما والإنسان شَدَّ ما يحتاج إلى وقته الثمين ليصرفه فى غير ذلك من الشئون المدرة عليه جزيل النفع وعظيم الجدوى .

ولعله من الحق أن نفترض من غير أن نعدو الواقع والصواب أن هذا الحلم الشهى ، وذلك الأمل المعسول صرفاه عن أمر الساعات وصناعتها . ولعل إيمانه الصادق بنفع ما أرتأه أدَّى به إلى أهتبال الفرص المتاحة ، وأنتهاز السوانح العارضة ، والعمل فى دأبٍ وجَلَدٍ حتى يُحقِّق حلمه ، ويُبرز فكرته .

أجل ! لقد عُرضت لهذا الشاب الكادح فرصة قيمة ، لم يدعها تُفلت من يديه . وتلك آلة انجليزية تعرف بنوع « أَو »^(١) تدار بالزيت المتبخر تصدرت إلى المقاطعة التى يعيش فيها . وكانت بحاجة إلى تصليح خلل طرأ عليها . ومن غير فورد فى مُكنته أن يقوم بالتصليح والرأب ؟ من غيره قد رُكبت فى نفسه جلادة البحث ، وأحتمال صنوف الأذى فى الدرس والفحص فى غير ملل ولا كلال ؟

فى سنة ١٨٨٥ استطاع « هنرى فورد » ، الذى انتهز فرصة دراسة آلة « أَو » التى تدار بالزيت المتبخر ، والذى أسعده طالعه الرغيد بما جُبلت عليه نفسه الدؤوب من حب المِران فى مثابرة وسعة أعطان ، والشغف بالتجربة تلو التجربة ،

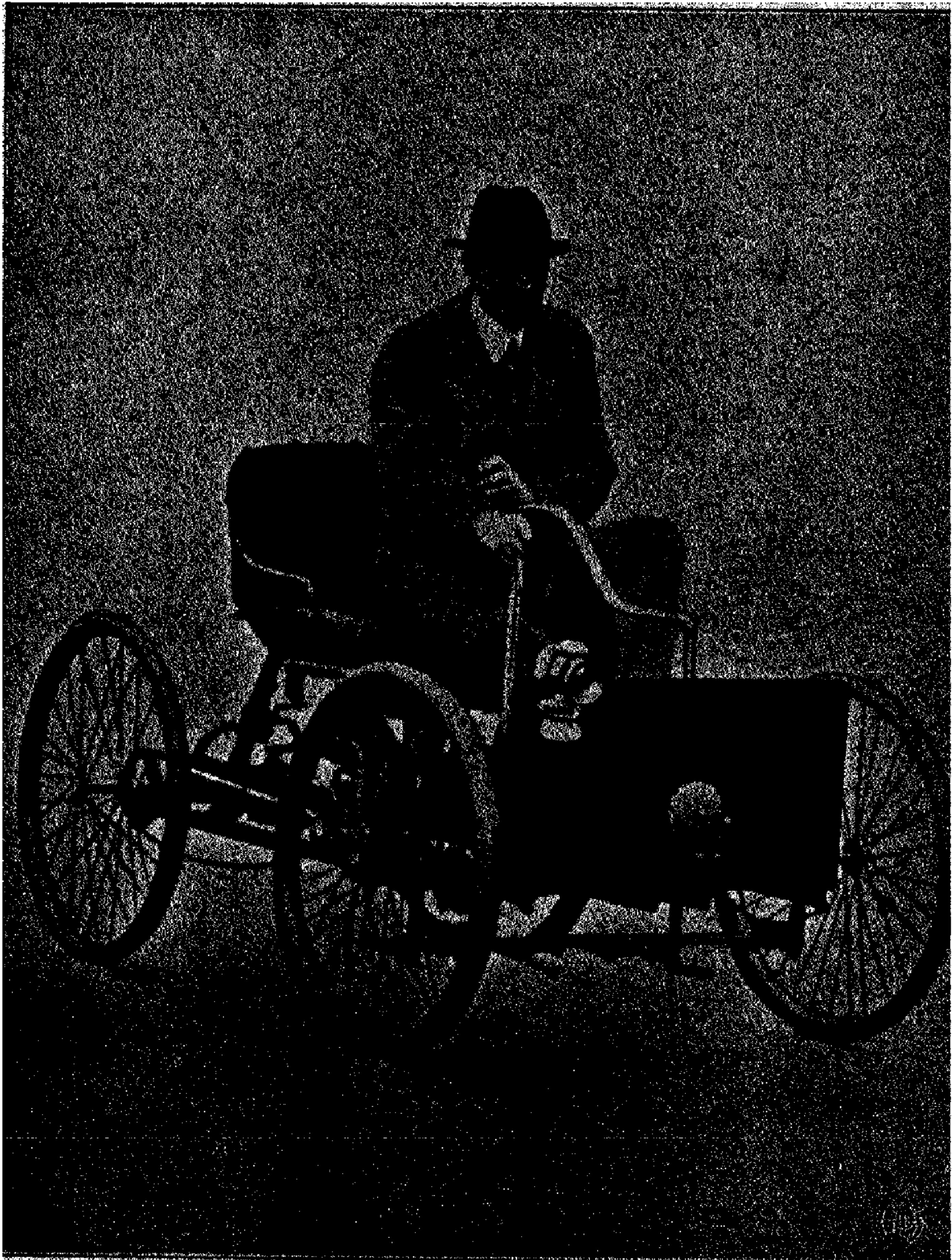
والامتحان إثر الامتحان إلى أن يسفر عما يرضى ويقنع . استطاع فورد أن يضع على غرار تلك الآلة وقواعد تركيبها آلةً تُشبهها .

وإذا كانت تلك الآلة الأولى قد استخفت بها الأهلون ، ولم تحرك فيهم ساكنة ، ولم تُثر لديهم الاحتفال والاهتمام . ونظروا إليها نظرة العايب المستهتر ، والمزدري المستخف ، وأعتبروها دُمِيَّةً يُلْعَبُ بها ، ولُعبةً للتسلية والتلهي ، فإنها كانت الحجر الأساسي الذي بُنِيَ عليه مستقبل فورد في العالم الصناعي .

على أن فورد بإلحاح من والده ، اضطرته ظروف الأحوال ، إلى العودة إلى مزارع الأسرة حيث قد وهبه الوالد أربعين فدانا من أطيان الأخشاب على شريطة أن يترك الميكانيكيات ، حيث كان يعتبرها الوالد مضيعةً لثمين أوقات ولده الكفء وأذعن فورد لتلك الإرادة رَدْحًا من الزمن . ولا نعلم إن كان قد أذعن لها كارهاً متبرماً ، أو طائعاً مختاراً . وإنما نعلم أنه قد نرح إلى الأرياف وتزوج فيها . ونعلم أنه اخترع آلةً بخارية لقطع الأخشاب بأطوال معينة . ونعلم أنه إلى جانب إتقان عمله الزراعي ، وأستخدامه للوسائل العلمية والطرق الميكانيكية في تخفيف عبء العمل على نفسه وعلى معاونيه ممن يفلحون الأرض ويحرمونها ، فقد خصَّص جماع أوقات فراغه ، وسواع راحته في قراءة الكتب الفنية التي تبحث في موضوعه القيم الجليل ، ونعلم أن إيمانه كان قوياً ووطيداً بقرب ذلك اليوم الذي سيستخدم فيه العالم سيارة تنهب الأرض نهباً . كما نعلم أنه قد صنع آلة أخرى تُدار بالزيت المتبخر ، وأنه استخدمها في مزارعه ، وأنها كانت كثيرة النفع له ، عظيمة الجدوى لديه .

أتعرفون من أول من حمل تصريحاً بقيادة سيارة في الولايات المتحدة بأمريكا؟

ستقولون حَدْسًا إنه هنري فورد ، وإن فراسمكم لصداقة ، فقد صنع ما يصح بتسميته أتوموبيله الأول عام ١٨٩٣ ويقول بعض مؤرخيه : إن عصامينا الفذ



فورد في سيارته الأولى

لا يزال يحتفظ بذلك الأتوموبيل ، وأنه يعتز به ويحرص عليه ، مع ما بينه وبين نماذجه العديدة التي أخرجها بعدئذٍ ، والتي أكلَ فيها ما به من نقص وهنات ، ولا يزال يُمطر العالم المتمدن بوابل تحسيناتها الفينة بعد الفينة . ولكنه كخترع وعالم يرى في اختراعه الأول المولود الأول ، وهبة الطبيعة الأولى ، والحجر الأساسى الذى نبى عليه صرح اختراعاته ، وأدخل عليه متوالى إصلاحاته ، ومتتابع تحسيناته ، فعقد عليه خناصر الرجاء ، وتعهد بالتربية والنماء ، وأكبَّ عليه باحثاً مستقصياً حتى توصَّل إلى صنع أتوموبيله الثانى بعد ثلاث سنوات . ثم استمرَّ قُدُماً فى درسه وفحصه ، وتهذيبه وتشذيبه سبع سنوات أخرى فى جلد المؤمن بتجاريبه وبحوثه ، وفى صبر المطمئن إلى امتحاناته واختباراته ، وفى يقين الراسخ العقيدة بثمار منتجاته وخواتم استنباطاته .

وهنا موضع دعاية يجب ألا تفوتكم ، نغنى بها ما جرَّ عليه أتوموبيله الأول من معاكسة الجمهور ، وكيف عاق الحركات التجارية فى شوارع « دترويت » التى كانت صاحبة الحظ الأول ، فى أستماعها برؤية الأتوموبيل الأول ، فقد أجفلت منه الخيل ، وخافته الدواب ، وحسب حسابه السائقون ، وكان صهوة نطَّ وقفز من جمهور الناظرين . وكثيراً ما كان بعض العابثين من صبية ورجال ، يتغفلون من فورد لحظات تركه أتوموبيله أمام حانوت أو دار ، فيحاولون أمتطائه وتسيره ، ويختلسون إدارته وتحريكه ، حتى أحتال عليهم فورد بأختراع سلسلة وقفل حتى لا يفلت ولا يسير ، ولعله بسبب ما ناله من عنتٍ وإعياء سعى سعيه لدى عمدة دترويت حتى حصل على تصريح قيادته ذِيَّاك .

فلنذكر إذا ما ذكرنا أتوموبيل فورد الأول قصة التصريح الأول ، ولنذكر معها تهافت الصغار والكبار ، ولنذكر أيضاً حكاية السلسلة والقفل والعقال . . !

(١٢)

للمجدّ النشط ثمرته الجنية ، وللعامل الدؤوب مكافأته الشهية ، وللصبور اليقظ هبته الرضية .

لقد استطاع « فورد » أن يبيع سيارة من نموذج الأول بمبلغ مائتي ريال أمريكي أى بما يزيد قليلاً عن الأربعين جنيهاً . ونحن نعلم أنها كانت موضع الاستخفاف والتحقير ، والإيذاء والتشهير ، ولكنها كانت إلى جانب هذا عنوان الدأب ، وثمره المواظبة ، ونتاج المثابرة . كانت مولود الإيمان ، ولقاح العقيدة ، وعصارة التفكير ، ولُبَاب سهر الليل ويقظة النهار .

ولعلمكم سائلوني عما فعله فورد بربحه الأول وفيم صرفه ؟
شبابٌ وجدّةٌ ، وحياةٌ زوجيةٌ جديدةٌ تنو إلى الدمقس والحرير ، ثم هى بحاجة إلى « بلهنية »^(١) من العيش ، ومتاع للنفس الأمانة بالسوء ، ثم مِيعَة صَبِيٍّ ، وكنْ غَرارة^(٢) ، يسوم فيها أترابه سرح لهوهم ، ويسهمون فى خلالها مع الغواة بدلوهم ، ويحتسون فيها خمور شهواتهم ، ويعنون فى ثناياها فى ديجور لذاذاتهم .
يَبْدَأُ أن هذا صحيح فى جملة لمن كان صفر اليدين من عمل يشغله ، ومطلب أعلى فى الحياة يُقيمه ويُقَعده ، ورسالة هدى وإصلاح فى خدمة الإنسانية وقف لها نفسه الطموحة ، وكرّس لها حياته الثمينة .

لقد تسلمت معنى فورد الأربعين جنيهاً ، لتصرفها يسراه فى إخراج نموذج أكمل وأوفى ، وأخفّ وأعدى .

أجل ! لقد تسلم فورد الزوج الجديد ، والشاب القويّ ذلك المال الكثير بالنسبة لما تملكه يناه ، فصرف كل سنتيم منه فى درسه وامتحاناته ، وبذله فى تجاربه

(١) بلهنية العيش : رخاؤه وسعته (٢) الغرارة حداثة السن

واختباراته، مقتراً على نفسه التقير كله، قارع شَبَابَ نَزَوَاتِهِ، مُفِلٌّ تَطْلُعُ نَزَغَاتِهِ، مُقَلِّمٌ بِصَلَابَةِ إِرَادَتِهِ جَامِحَ شَهَوَاتِهِ، وَاصِلٌ فِي الْعَمَلِ الْمَتَّبِعِ جَمَاعَ أَوْقَاتِهِ، مَفْنٍ فِي الْفَحْصِ وَالدَّرْسِ مَضْنَى تَفْكِيرَاتِهِ .

لَقَدْ حَرَّمَ فُورْدَ الْمُضْطَرَمَّ السَّنَّ نَفْسَهُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبِيهِ مِنْ لَذَّةٍ وَقْتِيَةٍ قَدْ يُصِيبُهَا لِدَائَتُهُ مِنْ حُطَامِ الْحَيَاةِ وَمِبَاهِجِهَا إِذَا أَطَاعُوا قَتْنَ الْفِرَاقِ، وَمَفَاسِدَ الْمَالِ، وَاسْتِغْوَاءَاتِ الثَّرْوَةِ، وَنَزَوَاتِ الشَّيْطَانِ . وَكَانَ فِي تَصَرُّفِهِ السَّيِّدِ مُصَدِّقًا لِلْقَوْلِ الْحَكِيمِ : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، قَدْ أَهْمَهَا جَوْرُهَا وَتَقَوَّاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » . . . ١٥

(١٣)

نَعْلَمُ أَنَّ فُورْدَ يَشْغُلُ وَظِيفَةً رَأْسِيَّةً فِي شَرَكَةِ « اَدِيسِن » . وَنَعْلَمُ أَنَّ وَجْهَةَ نَظَرِ فُورْدِ فِي تَسْيِيرِ أَتُومُوِيلِهِ بِالْبَنْزِينِ دُونَ اعْتِمَادِهِ عَلَى الْكَهْرِبَاءِ، تَخْتَلِفُ كُلَّ الْخِتْلَافِ مَعَ وَجْهَةِ نَظَرِ جَمَاعَةِ « اَدِيسِن » الَّذِينَ يَرُونَ فِي الْكَهْرِبَاءِ الْعَمْدَةَ وَالْعِتَادَ . يَبْدُو أَنَّ « فُورْدَ » مَعَ تَقْدِيرِهِ التَّقْدِيرَ الصَّحِيحَ لِلْكَهْرِبَاءِ، وَجَزِيلَ نَفْعِهَا، وَعَظِيمَ جَدْوَاهَا، يَرَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى الْاعْتِمَادِ عَلَى اسْتِخْدَامِهَا دُونَ سَوَاهَا فِي الْقُرَى النَّائِيَةِ، وَالْمَدُنِ الْبَعِيدَةِ . وَيَرَى أَنَّ أَتُومُوِيلَهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي تَسْيِيرِهِ وَمَحَرَّكَاتِهِ كَيَانًا مُسْتَقِلًّا قَائِمًا بِذَاتِهِ، غَيْرَ مُعْتَمِدٍ عَلَى مَا عَدَاهُ .

اِخْتَلَفَ فُورْدُ إِذْنًا مَعَ رُؤَسَائِهِ بِشَرَكَةِ اَدِيسِنِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ . ثُمَّ اِخْتَلَفَ مَعَهُمْ فِي مَسْأَلَةٍ أَسَاسِيَةٍ أَخْطَرُ وَأَهَمُّ . تِلْكَ هِيَ نَزْوَلُهُ عِنْدَ إِرَادَتِهِمْ فِي تَرْكِ اخْتِبَارَاتِهِ وَامْتِحَانَاتِهِ فِي دَرَسِ مَخْتَرَعِهِ . وَفِي تَرْكِ مُوَاصَلَتِهِ الْبَحْثَ وَالِاسْتِقْرَاءَ فِي سَبِيلِ تَحْسِينِهِ وَتَعْمِيمِ اسْتِمَالِهِ .

لَقَدْ عَرَّضُوا عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُرَاقِبًا عَامًّا فِي شَرَكَتِهِمْ، صَاحِبَ الْقَوْلِ الْفَصْلِ،

والكلمة النافذة على شريطة أن يتفرغ لأعمالهم ، ويترك جانباً أمر أتومويله الذي نال من وقته وعنايته ، ومن دروسه وأستقصاءاته الشيء الكثير .

أطمعوه بالمال الكثير ، وأستغفوه بالراتب العظيم ، فماذا كان منه ؟
لقد كان بين أمرين لا توسط بينهما . إما راتب شهرى كبير يضمن له الرزق الواسع ، والمستقبل المريح ، والجاه العريض ، ويسعفه بما تحتاج إليه الزوجة الجديدة من مطالب ومغارم . وإما أن يترك وآلته رهن ما تحمله الظروف في طياتها من إخفاق يُحطِّمُه بكَكَلِه ، ويُدَيِّقُه الأمرين من تقلبات الدهر ، وتنكرات الأيام ، أو نجاح قد يُومِضُ وميضه في أفق الغيب .

على أن « فورد » كان ككل مخترع مؤمن باختراعه ، قوى الإيمان بنجاحه ، واثق من مستقبل أيامه ، مقتنع بماس حاجات الناس إلى استخدام أتومويله ، معتمدٌ أصدق الاعتماد على ذخيرة ارادته التي لا ينضب لها معين ولا يقل لها غرار ، فأثر أن يسخو بمنصبه الزائل ، وأن يشح باختراعه الخالد ، وأن يضحي بالعاجلة دون الآجلة ، فكان من المفلحين .

ولنترك الكلمة لفورد في تلك الساعة الحاسمة من تاريخ حياته الحافلة بالمعجب والملهش : « لقد كان على أن أختار بين وظيفتى وبين سيارتى ، فاخترت سيارتى ونزلت عن وظيفتى ، ولم يكن ثمت من طريق وسط بين الاختيارين ، لأننى كنت أعلم علم اليقين أن سيارتى مصيرٌ أمرها إلى النجاح الدائم ، فتركت وظيفتى فى الخامس عشر من أغسطس عام ١٨٩٩ وأقبلت على الاشتغال بصنع السيارات » اهـ .
وهنا يجدر بنا أن نثبت مع عميق التقدير وجميل الذكر ، ما كان من زوجه العظيمة إزاء تلك الساعة العصيبة من بته فى أمر مستقبله .

لقد كان من المعقول ، وهى الزوجة الشابة ، أن تهن وتخور إزاء مخاطرة زوجها

مركزه ووظيفته . وكان من المفترض أن تنصح له على الأقل بالتريث وإنعام النظر ،
بتدبير وجوه الرأى فيما يختطه ويختاره سيما والأمر متعلق بها وبه . بل هو متعلق
بمستقبل الأبناء قبلهما . فما كان منها يا ترى ؟

لقد كانت شديدة الإيمان بكفاية زوجها ، وطيدة الثقة بما رُكِّبَ فى نفسه
العالية من صفات الرجولية الكاملة . لقد كانت ترى فيه الرجل الجلد الصبور ،
والعامل الدؤوب الذى لا تُثقل له عين ، ولا ينام له قلب ، ولا تنى له يد .
أجل ! لقد كانت البلمم الموائسى ، والترىاق الشافى . كانت الزوج المعين ،
والشريك الأمين ، والساعد اليمين . كانت العين الكائلة ، والقُدوة الصالحة ،
والظهير المؤازرة . كانت الأمل الباسم ، والوجه الصّبور ، والقلب الرءوم .
كانت الكلمة العذبة الهنيئة ، والنعمة الرقيقة الشجية ، والحليلة الحذبة الوفية ،
والحوبة^(١) الحلوة الرضية .

لقد أيدته وشجّته ، ونفخت فى رُوحه الملهية قوى متصلة الحلقات من نفسها
المضطرم الوهاج ، فزادت حميته ، وألهبت ألهوبة ، وأوقدت بين جوانبه الحياة
النابضة جذوة حماسه ، ومتصاعد أواره ، فسعى فى الحياة ابنا صروح مستقبله
الركن ، ولتدعيم بنيانه المتين ، غير متردد ولا هياب . فكان لهذا الكمى الباسل
من تلك الزوج الجريئة خير معوان فى اقتحام يباب الحياة بقدم راسخة ، وإيد على
المكاره عظيمة .

(١٤)

إيمانه العظيم بذخر كفايته ، وثقته فى سداد رسالته ، يبعثان فى النهاية مع مُشاربته
وعدم تذبذبه على إيمان الناس بوفير موهبته ، وصحيح دعوته ، ويدعوان إلى سخائهم
فى تأييده ، وبسط يد المعونة فى تشجيعه والاخذ بناصره .

(١) الحوبة والشهلة والبعة والحيلة بمعنى الروجة انظر ص ٢٠ - ١ الأمل لأبي على الفالى

الناس مطواع لكل جرىء وشجاع . مُلبّون دعوة كل كميّ صناع ،
أشحاء بُخلاء مع كل جبان ملتانع !

تلك طبيعة الناس في كل آن وحين ، فكلهم في ركاب كل قوى صديد ،
نافرون من كل خوّار رعديد ، وهكذا كان حالهم مع « فورد » ، فأقبلوا بجمعهم
وأموالهم ، وأسسوا شركة للأتوموبيلات ، واختاروه من بينهم مهندساً لها
ورئيساً لحركتها .

استمرّ « فورد » كادحاً في تحسين أتوموبيله ، باذلاً قصارى الجهد في إتقان
سيارته ، عاملاً فكرته على طرق كل وسيلة وباب ، لترخيص ثمنها وتعميم استعمالها .
ولكن شركاءه وأصحاب الأموال في شركته كانوا يحفلون أيماناً حفيلاً برفع الأثمان
وتقليل العرض لأنهم يُجَارُّ أموال لا دُعاة إصلاح . فكانوا على اختلاف دائم
معه في تحديد الأثمان وفي إضافة الأرباح .

لقد كان حلم « فورد » وهو لم يعد الثانية عشرة من عمره ، أن يصنع آلاف
الأتوموبيلات ، ويجعلها بتمن رخيص بحيث تكون في تناول الجميع ، مكتفياً بالربح
التافه المستمر ، مغتبطاً برواج سياراته ، وانتشار آلاته .

ولكن القوم يرون تقيض رأيه ، فكان بين أمرين ، إما أن يستمرّ على مضضٍ
في العمل معهم ليستفيد في مشروعاته الخطيرة برءوس أموالهم ، وفي تلك الحالة
يَبْدُ مشروعه في نطاق ضيق من استعمال ضئيل المدى ، ويهبط عاتق المشتريين
بدفع أعلى الأثمان فيما يكلف الشركة التافه القليل . وإما أن يتركهم وشأنهم ويعمل
مستقلاً في حيزه وإن كان ضيقاً في بدايته إلا أنه مأمون المغبة ، مصيباً من ورائه
الأحدوثة الطيبة في النهاية ، وواثقاً فيه من الجرى على سننه هو ، لا على أرسان
سواه ولا طبقاً لمشئته غيره ، وعاملاً فيه مع إخلاص طوية وصدق نية لتنفيذ برنامج

عمله وأتباع سياسته الصناعية التى كان يدين بسدادها بالفِطْرة والسليقة ، ويؤمن بصحَّتها بالنشأة والطبيعة .

ولقد آثر نجوى قلبه ودعوة ضميره فاستقال من شركتهم فى مارس سنة ١٩٠٢ حيث صم فى حزمة وقوّة إرادة أن يشتغل مستقلا ، ويكافح فى المجال الاقتصادى منفرداً

(١٥)

لأجل المبدأ وفى سبيل نصرة المبدأ استقال فورد من شركة الاتوموبيلات التى إنما تأسست لأجل اتوموبيله هو ، والعمل باختراعه هو استقال لأنّ القوم عارضوه فى الجرى على سياسته التى كان يحرص عليها حرصه على تحسين اتوموبيله . وهم لا يريدون إلّا الربح الباهظ من ناحية . ثم هم لا يدينون بما يدين به من استقصاء البحث وموالاته ضروب الإصلاح ، وإنما يريدون العاجلة فى كل شئ : فى الربح المدرّ ، والبيع الدّبريّ ، والصنع الفجّ استقال لأنه يحرص على سُمعته وعلى فكرته قدر حرصه على الاخلاص فى عمله والإتقان فى مهمته . وموالاته البحث والاختبار ، حتى يصل إلى ما يحقق رغبته السامية فى الخدمة السامية .

ولقد كان لفورد صباغة من مال أحرزها بعرق الجبين أثناء اشتغاله مع شركة القوم وسابقتها ، فرأى أن يتعلل بها فى اقامة أود النفس والتبلىغ بقليلها مع شريكه حياته ، على أن يبذل قسطها الأوفى فى موالاته امتحاناته عساه يوفق إلى صنع سيارة سريعة العدوّ ، خفيفة الوزن ، متينة الصنع ، فى رخص ثمن وجمال هيئة ، ومتعة ناظر والعامل موفى جزاءه ولو بعد حين . فقد وصل « فورد » فى نهاية تطواف بحوثه المتدّة المواتية المتعبة إلى صنّع سيارة تمتاز على سابقتها أنها ذات أربع

اسطوانات (سلندرات) بدلاً من اثنتين ، فضايف بها قوة العدو والسبق ولما كان واثقاً من قوتها ومتانتها ، وأنها لا نظير لها ولا شبيه ، أدخلها سباق السيارات ، فنالت الجائزة الأولى ، وأحرزت فيه قَصَبَ السَّبْقِ إذ سبق المصلي بما يزيد على نصف ميل

إنكم لمحقّون الحقّ كله ، إذا ما فسّرتم نجاح عصاميّكم النشيط الدءوب في إحرازه قصبِ السبق ، بأنه النجح المؤزر لأنموذجه الجديد وسيارته الجديدة . ومحقّون أيضاً إذا ما افترضتم له أصابته الشهرة النابهة في طول البلاد وعرضها . وأخيراً أنكم لمحقّون إذا ما انتظرتم لسيارته تلك كثرة التداوُل والاستعمال ، وسُرعة الذيوع والانتشار .

ولكنكم ستسائلوني كيف أُتيح « لفورد » أن يحرز لسيارته قصبِ السبق في السرعة ، مع أن إحدى وجهات نظره في سياسته الصناعية كانت منصرفة إلى أن يُخرج للعالم سيارة تعمل على ترغيد حياة الناس عامة ، والمزارعين خاصة ، ويكون في مقدور كل قيادتها ، وفي مكنته شراؤها .

وليس من مُنافضة بين أخذه بتلك السياسة الصناعية — التي وضعها فورد قبل أن يضع سيارته ، والتي أخلص في جريه عليها وأستمسك بها . إخلاصه في جريه على سُنّة الإصلاح ، وأستمسك به ببدأ الاتقان في عمله — وبين مجاراته لشهوة بعض الجمهور وذوق بعض الراغبين في اكتساح سيارته لمزاحمتها أيضاً في مجال السرعة كما اكتسحت الجميع في ميدان رُخص الأثمان ومتانة التركيب وبساطة القيادة وسهولة العثور على قطع الاستبدال وجزئيات الأدوات .

لقد اشتغلَ فورد في حميّة ومُثابرة ، حتى صنع سيارتين أدخلهما السباق بعد أن

أمتحنهما وآمن بأن قيادتهما أضحت فى نظره فى قوّة تيار « انحدارات نياجارا » ولم تعد النتيجة فى أحدهما وفق تقديره السديد .

على أن فورد الذى لا يُجارى فى قوّة احتماله ، وفى دأبه ، وفى مثابرته ، وفى تصميمه على النجاح ، لم يبدأ فى تأسيس شركة «فورد للسيارات» عام ١٩٠٣ إلا بعد أن أتمّ صنعَ خمسٍ وعشرين سيارة بعد سيارته الأولى ، وإلا بعد أن آمن الإيمان الوطيد بأن الوقت قد حان تماماً لبدأ فى الاشتغال بصنع السيارات والأتجار فيها .

(١٦)

وإنى لمحدثكم هنا عن خبرٍ بسيطٍ يجب أن تتقفوا عليه قبل أن أدلى إليكم بمبلغ رأس مال الشركة ، التى تألفت عام ١٩٠٣ . وذلك الخبر الذى لا مندوحة لى عن إثباته لكم ، والذى لا محيص لكم من الاطلاع عليه ، هو أن مجموع أرباح شركة سيارات فورد عن عامنا المنصرم كان يزيد على ستة عشر مليوناً من الجنيهات ، أى مبلغ ٨١,٧٩٧,٨٦١ ريالاً أمريكياً . وأن جُلّ تلك الأرباح وصل إلى جيوب شركاء ثلاثة : الأب فورد ، وزوجة الأب فورد ، ونجل الأب فورد !!

ويصحّ الآن أن تنتقل إلى سياق حديثنا عن شركة فورد التى ألفها عام ١٩٠٣ والتى قرّر منذ اللحظة الأولى أن يكون فيها كل شىء ، أى يكون نائب رئيسها ومهندسها الأوّل ، ومدير إدارتها ، وواضع خططها ، وأن يمتلك الى جانب ذلك كله ربع رأس مالها .

لقد كان رأس مال تلك الشركة أقلّ من ستة الآلاف جنيهه عام ١٩٠٣ ولم يكن لفورد صاحب البلايين سوى الربع .

ويقول مؤرخو فورد : إن عصاميّكم النابه الذى لم يكن يمتلك عام ١٩٠٣ إلا $\frac{1}{25}$ ٪ من أسهم الشركة أى ربع رأس مالها ، استطاع من أرباح دخله أن

يشتري من أسهم الشركة عام ١٩٠٩ ما جعله يمتلك ٥١٪ من أسهمها ، أى ما يزيد على نصف رأس المال وذلك لضمان سلطانه المالى ، إلى جانب سلطانه الادارى فى الشركة . وقد يحولكم اذا ما قدرتم تلك الهمة الماضية ، والعزيمة الفذة ، من الأب فورد أن تقدروا تلك الصفات أيضاً — فى الأب أو فى ابنه ، فكل منهما صنوا الآخر — حينما دفع « ارسل فورد » مبلغ خمسة عشر مليوناً من الجنيهات عام ١٩٢٢ فى شراء نصف السندات الباقية ، والتي كان ثمنها عند تأسيس الشركة أقل من نصف أصل رأس المال الذى قدره ستة آلاف جنيه . وبعبارة أخرى أن السهم الذى كان ثمنه عشرين جنيهاً عند التأسيس اشتراه الابن بما يزيد كثيراً عن آلاف الأضعاف ، وأن رأس مالها أصبح مائة مليون من الريالات !!

هذه معلومات لا أرتاب فى احتفالكم جد الاحتفال بتفهمها ، وتقليب وجوه الرأى فى تدبر معانيها ، لأنها تدل على الأقل على ما تنتجه المثابرة والاتقان ، والتفانى فى أداء الواجب ، والمواظبة على الدأب ، واحتمال مكاره الحياة ، والاستمرار فى الدرس والبحث ، وأتباع حكمة القصد فى كل شئ ، وقع شهوات النفس ، وإكباب صاحبها على النافع المجدى ، والمحافظة على السمعة الطيبة ، والأحدوثة الحسنة ، مع ذبوع الشهرة ، والصيت بصفات الأمانة فى الخلق ، والمتانة فى البضاعة ، والرخص فى الأثمان ، والسهولة فى القيادة ، إلى غير ذلك من الصفات السامية التى تكفل لصاحبها على طول الخط كل نجاح وتوفيق ، وتضخم ثروة واطراد تقدم ، فى نباهة ذكر ، وذبوع فضل

(١٧)

نعلم أن لفورد عدة معامل تُعتبر بحق أكبر المعامل من نوعها فى العالم قاطبة ، وهى كيان قائم بذاته ، من حيث استقلالها الكلى أو النسبى عن الاضطرابات

الصناعية العالمية . بمعنى أن الشركة تُعنى بتوريد المواد الخام وغيرها جميعاً . فهي في أخشابها ومطاطها ، ومناجم فحمها وحديدها ونحاسها وصلبها ، وزجاجها وجلدها ، بل في وسائل نقلها بالبر والبحر ، وفي صناعتها لدقائق أجزاء الاتوموبيلات مستقلة عما سواها ، غير محتاجة ولا معتمدة على غيرها .

ولستم في حاجة إلى أن تعلموا أن عدد عمال معمل «هيلندبارك» القريب من «دترويت» يزيد كثيراً على الخمسة والستين ألفاً ، وأنه يشغل حوالى ٢٧٨ فداناً ، وأن عدد العمال في مسابكه الحديدية بمعمل «رثر روج» حوالى الأربعين ألفاً ، ومساحته ١١٠٠ فدان .

لستم في حاجة لأن تعلموا هذا ، وأمثاله كثير ، بقدر حاجتكم لأن تعلموا أن شركة فورد صاحبة تلك المعامل التى تستلب النهى بتعدد فروعها ، وضخامة بناياتها وكمال ترتيبها ، وغنى مواردها — هذه الشركة قد بدأت عملها في حانوت نجار . وإذا كانت اليوم تشتمل على عدة معامل ، يختص كل بصنع بعض أجزاء الاتوموبيل ومساحتها ١٠٥ فداناً مسقوفة بخلاف مصنع «الفورديت» — وهو المطاط الصناعى الذى أستنبطه فورد بعد اختبارات طويلة ، حتى تأكد منه الصلابة وخفة الوزن فان فورد في بداية أمره كان يستورد أجزاء اتوموبيله من جهات أخرى ، وكانت مهمته وقتئذ جمع تلك الأجزاء بعضها إلى بعض وتركيب الاتوموبيل منها .

تلك كانت حال فورد يوم أسس شركته عام ١٩٠٣ ولكنه بإخلاصه في عمله وتقانيه في حُسن أدائه ، ودأبه وسهره ، استطاع أخيراً أن يقطع مبلغاً من أرباحه وقد يصل هذا المبلغ حوالى المليون من الريالات للبحث العلمى الصناعى ، يبدلها عن طيب نفس ، ورضاء خاطر ، في سبيل تحسين آلة صغيرة من آلات سيارته ، ولاستنباط أية وسيلة من شتى الوسائل لترقية تلك الآلة ، ولضمان متانتها لايفائها الغرض المطلوب .

فلتذكروا ، في إجلال وتقدير ، في عظة وأُعتبار ، وفي رغبة أكيدة في الاقتداء والاحتذاء ، أن هذا العصامي الكبير ، من الخصاصة والفقر درج ، وبالعمل والمثابرة نما وترعرع ، وأنه قد حرق قتاد العوز وحسك العسر وأشواك الضيق ، بما منحه الله من قوة احتمال وأضطلاع ، وبما ركب فيه من حب للعمل وسخاء في حسن ترعيته ، وكال ترقيته ، واستمرار تنميته .

(١٨)

استمر « فورد » في عمله العظيم ، منتقلاً من نجاح إلى نجاح . موفقاً إلى تحقيق حاميته اللذيذ من جعل سيارته في تناول الطبقات الوسطى ، حتى جعل ثمنها مائة وعشرين جنيهاً في بداية عهده في شركة ١٩٠٣ ، وهو ثمن غير مذكور ولا منافس في تلك الأيام التي كان معنى إحراز السيارة فيها بما يقدر ثمنه بالآلاف . واستمر في عمله قدماً لا يلوي على شيء ، حتى استطاع أن يبيع في سنة واحدة من أولى سنيها ٨٤٢٣ سيارة

ويظهر أن النجاح في ذاته بلسم وترياق . بل هو عامل تشجيع ولا كل العوامل الأخرى من مال وإطراء ، فقد كان من جراء نجاح فورد وإقبال الجمهور على سياراته زرافاتٍ ووجدانا ما حدا به إلى مضاعفة الجهود إلى حد أنه استطاع في مدى ستة أيام من شهر مايو عام ١٩٠٨ أن يصنع ٣١١ سيارة . بل إنه قد استطاع أن يتم مائة اتوموبيل في أحد أيام شهر يونيه من تلك السنة

ولكن هل اقتنع فورد بما أصاب من نجاح ؟

إن النجاح الخارجي ، النجاح في إحراز المال والجاه والشهرة والصيت ، هذا النجاح المادي أو الظاهري أو الأسمى إن هو إلا عنوان متواضع ، ودليل ساذج

لِلنَّجَاحِ الْحَقِيقِيِّ . نَجَاحُ اللَّبَابِ وَالْجَوْهَرِ . نَجَاحُ الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ . نَجَاحُ الرَّجُلِ فِي عَالَمِهِ الدَّاخِلِيِّ ، وَدَوْلَتِهِ الْبَاطِنِيَّةِ ، وَمَمْلَكَتِهِ الْخَلْقِيَّةِ .

وَلَتَعْلَمُوا ، غَيْرَ مُعَلِّمِينَ ، أَنَّهُ إِذَا مَا كَتَبَ اللَّهُ لِشَخْصٍ مِنْ هَذَا النُّوعِ مِنَ النَّجَاحِ الْفَعْلِيِّ — نَجَاحِ الْجَوْهَرِ وَالرُّوحِ — فَأَنَّهُ لَنْ يَقْنَعَ إِلَّا بِمَا فَوْقَ الذَّرْوَةِ مِنَ الْمَثَلِ الْعُلْيَا مِنَ النَّجَاحِ الْعُلَوِيِّ فِي عَالَمِنَا الْإِنْسَانِيِّ .

لَقَدْ فَكَّرْتُ طَوِيلًا فِي أَمْرِ خَفَّةِ وَزْنِ السَّيَّارَةِ مَعَ ضَمَانِ مَتَانَتِهَا وَقُوَّتِهَا ، إِلَى أَنْ وُفِّقَ فِي رَبِيعِ عَامِ ١٩٠٨ إِلَى النَّمُودَجِ « ت » مِنْ سَيَّارَاتِهِ الَّتِي أَصْبَحَتْ الْوَاحِدَةَ مِنْهَا تَرَنَ ١٢٠٠ رِطْلًا ، فَتَالَتْ كُلَّ إِقْبَالٍ وَتَحْيِيدٍ ، وَكُلَّ نَجَاحٍ مَطْرَدٍ ، يَدُلُّكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ بَاعَ مِنْهَا فِي أَوَّلِ عَامِ ١٩٠٧ ، ١٠.٦٠٧ ، وَاسْتَمَرَ الْبَيْعُ فِي زِيَادَةٍ وَنَمَاءٍ إِلَى أَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُوَزَّعَ مِنْهَا حَتَّى عَامِ ١٩٢٥ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمَعْمُورَةِ حَوْلَى خَمْسَةِ عَشَرَ مِليُونًا مِنَ السَّيَّارَاتِ .

وَلَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَنِي عَنْ مَدَى التَّقَدُّمِ الَّذِي وَصَلَتْ إِلَيْهِ الشَّرْكَةُ مِنْذُ نَشَأَتِهَا عَامَ ١٩٠٣ إِلَى عَامِ ١٩٠٨ وَهُوَ عَامُ ذَلِكَ النَّمُودَجِ الْمَتِينِ الْبَصْنَعِ ، الْخَفِيفِ الْوِزْنِ ، الْجَمِيلِ الشَّكْلِ فِي مُخْتَلَفِ أَلْوَانِهِ ، فَأَقُولُ لَكُمْ فِي غَيْرِ مَبَالِغَةٍ : إِنَّهُ فَوْقَ الْكَثِيرِ وَدُونَ مَا يُؤْمَلُهُ ذَلِكَ الْعَصَامِيُّ الْخَطِيرُ . وَيَكْفِي أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ عِدَدَ عَمَّالِهِ قَدْ أَصْبَحَ أَلْفِي عَامِلٍ بَدَلًا مِنْ ثَلَاثَةِ مِائَةٍ ، وَأَنَّ دَارَ صِنَاعَتِهِ قَدْ انْتَقَلَتْ وَقَتُّهُ مَدَارِجَةً مِنْ حَانُوتِ النِّجَارِ الْحَقِيرِ إِلَى مَا شَغَلَ فِدَانِينَ وَنِصْفَ .

وَلَعَلَّكُمْ قَدْ أَطْلَعْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرَهُ مُؤَرِّخُو حَيَاتِهِ مِنْ تَصْرِيحِهِ عَامَ ١٩٠٨ بِأَنَّ شَرَكَتَهُ لَا تَجْنَحُ إِلَى كَثْرَةِ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ فِي نَمُودَجِهَا « ت » الَّذِي دَلَّ الْفَحْصُ وَالْإِخْتِبَارُ ، وَأُثْبِتَ الْبَحْثُ وَالْإِمْتِحَانُ ، عَلَى أَنَّهُ الصَّنْفُ الْمَتِينُ ، وَالنُّوعُ الْمَطْلُوبُ . وَأَنَّ شَرَكَتَهُ سَتَصْدُرُ اتُومُوِيلَاتِهِ جَمِيعًا مِنْ صِنَوِيٍّ وَاحِدٍ حَافِظَةً لَشَكْلِهَا . وَأَنَّهُ فِي

المقدور إعطاؤها أى لون يرغبه المشترون بذلك السعر الواطىء، الذى ليس إلى مزاحمته ولا إلى مناهضته من سبيل .

ولعلمكم قد أطلعتم على ما أثبتته مؤرخوه أيضاً من أن الشركة قد أصبح عدد عمالها عام ١٩١١ خمسة وثلاثين ألف عامل، بعد أن كان ستة آلاف عامل منذ ثلاث سنوات، وأن مساحة دور صناعاتها قد شغل فى تلك السنة اثنين وثلاثين فدانا بعد أن كان يشغل عام ١٩٠٨ فدانين ونصف وأنتم لا تزالون تذكرون أنه كان فى حانوت نجار قبل ذلك بخمس سنوات .

ولعلمكم قد أطلعتم فى شتى الصحف أثناء الحرب العالمية على اعتماد المتحاربين لا سيما الحلفاء فى استخدام سياراته فى مقدمة الخطوط، وأنها قد تسلفت إلى ذروة «بن نقس» أى إلى ما يبلغ علوه ٤٤٠٦ قدما من غير أن تصاب بعطب ولا ضرر. إنكم قد أطلعتم على هذا كله، وعلى عشرات الأمثلة الشبيهة به، وإنكم لذلك لم تستغربوا من أن بعض مبيعاته قد وصلت إلى عشرات الآلاف فى البلاد الانجليزية التى بها شركات سيارات غير فورد . ولم تستغربوا قدرة هذا الرجل العظيم فى افتتاح دار صناعة فى مدينة منشستر الانجليزية . ولعلمكم قد تهانقتم سخرية وأستهزاء بما كان منافسوه قد أشاعوه عنه، منذ تصريحه عام ١٩٠٨ عن نموذج «ت»، من أن إفلاسه ضربة لازب، وأن فشله قاب قوسين . ذلك لأن من كان فى صفات فورد وأخلاقه محال عليه إلا النجاح المطرد والفوز المتزايد .

(١٩)

ولقد آن لنا أن ننظر نظرة تفهم وأستيعاب إلى ناحية من نواحي أساليب «فورد» الصناعية، لا لأنها تدل على ذكاء المستنبط، ولا على براعة المخترع، ولا لأنها كانت من أسباب رخص أثمانه، ولا لأنها كانت عاملاً فعالاً من عوامل

كثرة منتجاته ، وإنما لما هو أسمى وأبلغ . ذلكم أنها دليلٌ ناطقٌ على مبالغة هذا العصاميّ العظيم في تقدير الوقت وأهميته . والوقت أغلى من الذهب لأن الذهب بعض ثمراته لو عقل المضيعون من أحلاس^(١) المقاهي ، وأسراء دور العبث والمجون .

تلك هي طريقة العمل في مصانعه التي قد انتخبها من بعده جميع أصحاب المصانع الكبيرة ، والتي كان لها الأثر الكبير في تطور الصناعات منذ استعمالها إلى الآن . وتتلخص تلك الطريقة في نظام «النقالة» ، وهو عبارة عن خطوط حديدية دائمة الحركة ينقل عليها آلاف القطع المتشابهة من أجزاء الأتوموبيل البسيطة الصغيرة ، وتتقف أمدًا ما أمام عددٍ مرتّب من العمال ، ولا تنقل تلك النقالة من أمام فئةٍ إلا بعد أن يكونوا قد أتموا قسطهم من العمل ، كلٌّ في قسمه . وهكذا تسير النقالة ، وقد سار معها أجزاء الأتوموبيلات إلى الاجتماع ثم إلى الكمال رويدًا رويدًا إلى أن يتم صنع الأتوموبيلات .

وتلك طريقة آية في السهولة ، لأن كلّ عامل يتم عمله وهو واقف في دوره . ثم هي آية في السرعة وضمان يقظة العامل ، لأن النقالة لا تتقف أمام العامل إلا الأمد الذي يكفي بالضبط لأداء عمله .

أتعرفون كم كان أثر نظام النقالة هذه في الصناعة ؟

لنترك الكلمة في ذلك إلى خيرنا العصاميّ ، فهو عذيقها المرّحّب ، وجذيلها لمحكّك . وابن يحدّثها ، وزعيم دولتها .

يقول « هنري فورد » : إن تركيب المحرك كان يتطلب من الوقت قبل ستنباطه نظام النقالة عام ١٩١٣ تسع ساعات وخمسة وأربعين دقيقة ، وأنه بعد ستةهور فقط من استخدام النظام الجديد أصبح تركيب المحرك لا يستغرق أكثر

(١) أحلاس المقاهي : أي المأزموه لها ولم يبرحوها

من خمس ساعات وست وخمسين دقيقة . وبعبارة أوجز أصبح في مكنة العامل بهذا النظام الجديد أن يصنع في اليوم الواحد ضعف ما كان يصنعه أولاً .

أتعرفون السرّ في أن « فورد » زاد أجور العمال زيادات باهظة من غير أن يزيد سنتياً واحداً على أثمان سياراته ؟

ليس ثمت من سرّ معي ، ولا أحجية صعبة الفهم ، بل الأمر جدّ ما واضح جليّ ، وشدّ ما هو محسوس ملموس . فهو في اختراع فورد لتلك الطريقة الموفرة من الوقت ، والمقتصدة من جهد الرجال ، والمضاعفة في منتجاتها .

أجل ! ليس ثمت من سرّ معي ، وإنما هو حُسن استخدام فورد لأوقات العمال وجهودهم بطريقة علمية مما مكنه أن يصرح في عام ١٩١٤ أن أوطاً راتب للعامل عنده هو جنيه يومياً نظير اشتغاله ثمانى ساعات في اليوم باعتبار أسبوع العمل ثمانى وأربعين ساعة .

أتعرفون ماذا كان أثر هذا التصريح السديد ، وذلك التصرف العادل ؟ لقد كان ما صنعه العمال في تلك السنة ٢٤٨,٠٠٠ سيارة فأصبح بعد تغيير رواتبهم ، وتحسين أجورهم ٣٠٨,٠٠٠ سيارة

ليس هذا فقط . بل لقد تمكن فورد من تحسين رواتب عماله حتى كان راتب أقلهم شأنًا ، وأصغرهم أمراً ، ستة جنيهات في الأسبوع مع تقليله لسوابع عملهم ، واستنباطه لمختلف العدد والآلات التي توفر أوقاتهم ، وتضاعف منتجاتهم — تمكّن من تخفيض سعر السيارة إلى مائة جنيه بدلاً من مائة وعشرين جنيهاً .

غريبٌ أمر هذا العصابيّ الخطير حقاً . وإنه لمن العدل أن نتحل المعاذير لخصومه الذين كانوا يؤمنون بفشله في النهاية . إذ يرون أجوراً عالية جداً — ولا أجور الوظائف الحكومية — تدفع لأصغر عماله شأنًا ، وأتفههم عملاً ،

ويرون سياراته تباع في سنوات الغلاء الفاحش بأقل من ثمنها الأصلي حوالى العشرين جنيهاً . الى جانب متانتها ، وصلابتها ، وسرعتها ، وجمالها .
أتعرفون لماذا زاد فورد أجور عماله ؟

قد تقولون إنه زادها كنوع من التشجيع للعمال باعتبارهم شركاء له فى العمل ، أو لأنه لا تباعه سياسته الصناعية من استخدام الآلات الميكانيكية والمحركات الكهربائية حيث يمكن تخفيفها لعمل الإنسان ، فقد ضاعفت رزقه وأتاحت لعماله مضاعفة عملهم . وهذا قول حق لا ريب فيه . يبد أنه لزامٌ فى عُقُنَا أن نثبت هنا نظره الى أجر العامل .

يقول فورد ما معناه : « أجور العمال قدسية لتعلقها بأمر البيوتات والأبناء ومصير الأسر . فحذير بنا إذا ما ذكرنا أمر الأجور أن نخفف من غُلَوَائِنَا ، لأن الموضوع يمس بالحياة .

أجل ! إنها تمثل فى دفاتر الشركات أرقاماً وأعداداً ، ولكنها تمثل عند أصحابها حياة وغذاءً ، ودفقاً وكساءً ، وتعليماً وهناءً . »
أليس فى تلك الكلمات الحكمة ما يُشعر بنبالة العاطفة ، ورجاحة العقل ، ورقة الفؤاد ، مع الشفقة والرحمة ، ومع المعدلة والنصفة ، ومع ثقب البصيرة وحسن الكياسة ؟
أليس فيها ما يثبت أن صاحبها ليس بالأشير الأشعبيّ الذى لا يتغنى من وراء العمل إلا تكديس الأموال ، وإحراز الأرباح ، وإتراع الخزائن بما لا يفيد الإنسانية بل بما يفقرها ويشلّ من حركة خيراتها ، ويدفن رؤوس أموالها ؟

أليس فيها ما يدلّ على رُوح الاشتراكية الحازمة التى ترمى الى تحقيق السعادة العالمية بمحاولتها ترفيه حال الطبقة العاملة ، والتقدم بهم خطوة عملية واسعة ، أو خطوة مذكورة نحو رغدهم ورفاهيتهم ؟

على أن فورد بانتهاجه تلك الطريقة العادلة من تحسين حال عماله ، وإمدادهم بالراتب الكافي الذي يغنيهم بعد عَوَزٍ ، ويكسوهم بعد عُرْيٍ ، ويعلمهم بعد جهلٍ .
قد أمدَّ معاملته ومصانعه بخير مجموعة صالحة من كفايات العمال الذين قد كفوا مؤونة معاشهم وحوالجتهم ، ففترَّعوا بوافر انتباههم ، وكامل إقبالهم ، وقُصَّارى جهدهم ، لما بين أيديهم من أعمال وظائفهم ، فلا شرود فِكْرٍ في أمر البيت ولوازمه ، ولا تدبير حيلة للإضراب أو الثورة .

وليس من ريب أن الجُرْيَ على سياسة «فورد» من حيث العلاقة بين أصحاب الأعمال والعمال ، ومن حيث السخاء في الرواتب مما يحدو الى الرقي الصناعي ، ومما يُنتج الرخاء الصناعي ، ومما يزيد في الإنتاج الصناعي .

فجديرٌ بنا إن كنّا تجاراً أو أصحاب أعمال أن ننصف عمالنا ، ونشرك في أرباحنا صناعتنا ، وألا ندّخر وسعاً في إسعافهم بما اليه يحتاجون ، وإمدادهم بما به يرغبون ، وتعليمهم بما به يستفيدون ، وهديهم الى ما به يتقدمون .

وقين بالرئيس عامة ، سواء أكان في مصنع أم عمل حكومي ، أن يشعر قلبه بالإيمان والشفقة . وينظر الى مَنْ هم دُونَهُ مَرْتَبَةً الى أنهم من لحم ودم مثله . وأنهم زملاؤه في الانسانية ، وشركاؤه في الوجود . وأنه مسئول عن ترقيتهم ، وترفيه متاعبهم ، وتوفير رغدهم ، وضمان رفايتهم ، والقضاء على أسباب شقايتهم وعنائهم .
بهذه الروح العادلة الرؤوم ، وبهذه العاطفة الحديبة الحكيمة ، وبذلك الأخلاق السديدة النبيلة تتكاتف الجماعات ، وتتآزر الأفراد ، وتتساند الصفوف ، وتسهل المهمة الإنسانية الخطيرة من تحقيق الرقي الإنساني .

(٢٠)

قصةٌ أخاذةٌ حقاً — تلك هى القصة التى نقرأها عن حياة هذا الرجل المترع حياةً وحميةً وحماساً ، والذى لم يشغله عن تحقيق غرضه الأعلى شاغلٌ قلٌّ أو جلٌّ ، والذى لم يكدح كدحه المضنى ليصيب المال لنفسه ، والذى واصل لياليه بأنهره دائماً جاداً ، وعاملاً مستميتاً عساه يوفق — الى جانب الكثير الذى وُفق اليه — الى العثور على بارقة أملٍ جديدة تهذى الى الرُّشد وتُثير الدُّجى ، وتكون مدعاةً الى استنباط اختراع جديد يؤدى الى رُخصٍ فى الأثمان ، ويدعو الى زيادةٍ فى الإنتاج ، ويصل به الى ذروة آماله الإصلاحية فى العالم الصناعى ، ويبلغ به الى تحقيق رَغباته الاجتماعية فى الرخاء الإنسانى .

على أن السبيلَ الذى سلكه « فورد » ، هو ككل سبيلٍ يؤدى الى العظمة والخلود ، بمعنى أنه يتطلَّبُ من عَزَمَاتِ سالكه معاولةً حداداً لأجثاث دوحات صعوباته ، ومدارجٍ همٍ يتسلَّقُ بها جبالَ عقباته .

ولعلكم تريدون معرفة نوع من أمثال تلك الصعوبات التى فتتها إرادة « فورد » وخلفتها وراءها تذرُّوها الرياح بعيدة عن تلاعه وقلاعه ؟

واليكم حديث اقتراضه عام ١٩١٩ لأربعة عشر مليوناً من الجنيهات :
 أجل ! إن هنرى فورد الذى قُدِّرَتْ ثروته منذ عهد قريب بأكثر من ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، والذى تُخرج مصانعُه سيارةً فى كل سبع ثوانٍ ، أى نحو مليون وربع مليون من السيارات فى مدى كل سنة . فورد الذى قُدِّرَ إيراده اليومى بثمانين ألفاً من الجنيهات ، والذى ينتظر أن يصبح قريباً مائتى ألف — فورد هذا قد وجد نفسه مضطراً عام ١٩١٩ الى اقتراض عددٍ غير قليل من الملايين بقدر تعداد احصائيتنا الأخيرة !

أتعرفون لماذا ؟

ذلك ليكن ولده « إدسل » من شراء أسهم الشركة التي أسلفنا لكم القول في بيان مبلغ ارتفاع أسعارها ارتفاعاً مذهماً ينطق وحده بما كتب لها من ارتفاع وتقدم ولقد تمكن فورد في سنة واحدة من دفع سبعة ملايين من أصل الأربعة عشر مليوناً. ولكنه لا يزال في حاجة إلى سبعة ملايين أخرى ليتحرر من الدين. فماذا فعل؟ أمّا منافسوه فقد رَوَّجوا ضده التخرُّصات الكاذبة ، والإشاعات الخاطئة ، وأذاعوا الأقاويل الزائفة ، وراشوا ضده السهام النارية .

لقد قالوا إن فورد أضحى قاب قوسين من الإفلاس ، وإنه على جرف هار من الدمار والخراب .

وأما « فورد » فكان الايمان الوطيد في راسخ إرادته الحصين ، وصرح عزيمته المكين . بقدر نفرتِه من السماح لدائنيه أن يضعوا أصبعهم في إدارة شركته حتى لا يعيدوا الكرة بما كان منهم أولاً ، ولا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرتين . وسترون جلياً أنها إذ ما استقرّ رأى « فورد » على أمرٍ فلا مفرّ من المضيّ فيه ، والخلاص منه ، في إتقانٍ وحُسنِ بلاء . وفي قوّةٍ ومرهفٍ مضاء .

نعود فنتساءل ماذا فعل « فورد » ليتحرر من ذلك الدين ؟ والدين ، لعمركم ، همّ وأرق ، وعِبءٌ ونَصَبٌ ، وفداحة بوار ودمار ، ومركب ذلّ وصغار ، وسبيل إضاعة وإعسار ، في كثرته سرف ، وفي سرفه تلف ، وفي تلفه حتف !

اسمعوا وعوا ماذا فعل فورد ، أي شباننا الناهضين ، وإذا وعيتم شيئاً فانتفعوا ، وإن خير الاتّفاع بالنصائح السديدة ، والأمثلة الحية لهو في العمل بها ، والجري على سُنَنِها ، والأخذِ بأعمال المتفوّقين من العصاميين .

ثم اسمعوا وعوا ، ماذا فعل « فورد » أي تجارنا العاملين ، ورجال أعمالنا الجادّين ،

وأنتم خير من يَنْتَفِعُ بِمَثَلِ فورد الأعلى ، ولأنتم أحقُّ وأجدُرُّ بتجنبكم مزالق الدِّينِ ومنحدراته ، والتخلُّص من هناته وسوءاته ، والابتعاد عن سقطاته ومهلكاته . والضنَّ بكراماتكم وحریاتكم عن قيوده وربقاته .

وأخيراً اسمعوا وعوا ماذا فعل فورد أى أبناءنا الأعزّاء ، مُهَجِّجَ القلوب وفَلَذَاتِ الأكبدة لتهجوا نهجه ، وتترسموا خطواته .

لقد أراد «فورد» أن يكون حراً لأن في الدين ربقة الاستعباد ، وأراد أن يكون مستقلاً ، لأن الدين حمایةٌ سافرة الوجه ، وقحة في إجراءاتها ، جائرة في أحكامها ، مستبدة في جبروتها . وأراد فورد أن يعيش في كيان نفسه ، وكيان ماله ، وكيان وجوده ، لأن من يعيش في كنف الدين إنما يعيش في غير كيانه ، ومع غير نفسه ، وفي غير دولته ، في أجواء قائمة تؤرِّق نومه ، وتقض مضجعه ، وتُشقى وجوده .

كان فورد كتاجر قد تعاقد مع عملائه في بيع سيارته على استلام ثمن بضاعته عند تسامهم لها . وأمام فورد الآن أكْداسٌ مرهقة من الطلبات العديدة الواردة إليه من كل صوب .

أجل ! أمامه آلاف الطلبات ، ولا ريب أنه إذا ما أتم السيارات وأوصلها إلى طالبيها من عملائه العديدين فستقبض يمناه ما يسدّد المبلغ المتأخر . وبعبارة أوجز ما يرسوبه على شاطئ النجاة ، فلا تُفرِّق سفينته أعاصيرُ الدِّينِ الهوَّجاء ، ولا تُحَطِّمها في اليمِّ أمواجُ الاقتراض العاتية العشواء .

إذن فليدعُ فورد كتابَ جيوشه ، وليحشد جميع قُوى جُنْدِه ، وليشجِّذ ما بذخيرة ذهنه ، وليفتق ما بجراب حيلته .

لقد بذل فورد ما فوق المقدور البشري العادي ولكن يجب أن نهش

هنا بين قوسين أن لا مستحيل أمام المقدور البشرى عند توفر الإرادة، وتكامل عناصر العزيمة !

استخدم فورد كل وسيلة تؤدي إلى مضاعفة الإنتاج، مع المحافظة الدقيقة على قاعدته الذهبية التي لم يترشح قيد أنملة عن صراطها السوى، ونورها السنى، وثمرها الجنى ألا وهى عدم زيادة الأسعار، بل على النقيض رخصها وما هو أدنى من الرخص، مما يقضى القضاء المبرم على كل مزاحمة ونفاس.

لقد نظر فورد نظرة تدبر وإنعام وتروية حتى استقر رأيه على أنه يستطيع باتباع سياسة الاقتصاد أن يوفر حوالى نصف عمال الإدارة العامة : أى جماعة الموظفين الكتابيين والاداريين. وليس معنى توفير هذا العدد العرمرم أن يبعث بهم إلى « المعاش » أو إلى كسر بيوتهم، أو إلى تركهم عالة على الانسانية، أو يجعلهم كماً مهملاً يشقى بالبطالة. كلا ! وإنما وفرهم من حيث لا يعملون القدر الكافى، وحيث يستطيع نصف عددهم الاضطلاع بمهامهم جميعاً بلا إرهاق لأنفسهم، ولا إخلال لسير الأعمال فى نظام وأطراد وإتقان. وفرهم لكي يبعث بهم من كراسى المكاتب، وأحلاس الإدارات. ومناضد الكتابة إلى حيث المصانع والمصاهر، حيث يعملون ويكدحون، وينتجون ويفيدون.

وبهذه النظرة العاقلة المقتصدة السديدة تناول شتى مرافقه بالاختزال من كمها، مع الاحتفاظ بجذوى نفعها، ومتجات أصلها، حتى عدد المسرات^(١) بالمكاتب، فقد اختزلت إلى النصف، وهنا ظهرت طلائع تلك السياسة الاقتصادية الرصينة، وكادت تؤتى أكلها، وأضحى دفع سبعة الملايين راجح الوقوع. لولا أن فورد تبين من السكك الحديدية فى « وترويت » « وتوليدو » « وأيرتون » انها تعطل عليه

الكثير من الوقت من حيث نقلها لأدواته وآلاته، ومن حيث توصيلها لسياراته للعديد من عملائه .

تلك عَقَبَةٌ جديدةٌ تلوحُ بالخطر الكثير ما لم تتداركها العنايةُ ويُدْفَى لها الحلُّ السريع والدواء الناجع . فماذا فعل فورد ؟

لقد بذل هو ما فى مقدوره من حيث زيادة الإنتاج ، وأتباع وسائل الاقتصاد وهذه عَقَبَةٌ تَخْرُجُ عن حيزِ سلطانه . فماذا يفعل ؟

فقد رأى أن لا علاجَ فى الشكوى ، ولا فى الرجاء . وأن لا علاجَ ولا بَلْسَمَ ، ولا حلَّ ولا مَغْمَ ، إلَّا إذا أصبحت السكة الحديدية هى الأخرى تحت سلطانه ، وطَوَّعَ بَنَانِهِ .

لذلك لم يتردد فورد فى شرائها .

أجل ! فورد المهددُ بالوقوع فى الدَّيْنِ ، والمطالبُ بأن يدفعَ حالا سبعة ملايين من الجنيهات ، فورد الذى يروجُ عنه خصومه أسوأ المقالات ، ويذيعون عن حالته المالية أضرَّ الإشاعات ، يتقدَّم فى ظَرْفٍ حاسِمٍ كهذا لشراء تلك السكك الحديدية . فماذا كانت النتيجة ؟

لقد استطاعَ فورد أن يصلَ قبلَ الوقت المحدد للمبلغ المطلوب مع زيادةٍ طفيفةٍ جدًا أتعرفون ماهية تلك الزيادة ؟

إنها خمسة ملايين أخرى من الجنيهات فوق سبعة الملايين ، وقد حصل على المبلغين من دُورِ صناعته ، ومُتَجِّات ثروته ، وثمرات إرادته .

ستقولون كيف توصَّلَ إلى ذلك المبلغ الجسيم ؟

وكان من المعقول أن تتساءلوا قائلين : وكيف يُشَكُّ فى ألا يصلَ فورد إلى ذلك المبلغ ، وإلى أكثر منه طالما أنَّ الرجلَ هو قد جمع فى إهابه كل مسببات

النجاح من إرادة متحفزة، وهمية مستحصدة، ونظام مُستكمل، وقصدٍ مُستوفٍ، وحزامةٍ مسددة، وعزيمة غير مترددة، وحمية متوقدة، وأصالة متوثبة.

كان هنري «فورد» مُطالباً أن يدفع في الفترة التي بين أول يناير وأول أبريل عام ١٩٢١ مبلغ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيهاً، وهو عبارة عن المبلغ المطلوب مضافاً عليه الأجور وضرائب^(١) الدَّخْل. وكان كلُّ ما في حوزته في أول يناير من تلك الملايين الاثني عشر أربعة فقط، فلم يُطلَّ على فورد أول أبريل من شُرْفَةِ عُلْيائه إلا قد رَحَّبَ به فورد في صَمْتٍ ووقار، ومعه سبعة عشر مليوناً من الجنيهات.

ستقولون: إنَّ سُرْعَةَ السَّكِّ الحديدية قد مكَّنته من توريد السيارات المطلوبة، ووفرت عليه حَوَالِي ثلث البضاعة المخزونة وغير ذلك من «الفرعيات» التي أدلى بها بعضُ مؤرّخي حياته. يَبْدُ أني أحبُّ لكم، أي شَبَّاننا الناهضين، أن تُنصفوا الرجل، وتُنصفوا جُلِّي صفاته فتقولوا: «نجح فورد لأنه أمسك أغصانَ النجاح بالتلايب، فجمع ناضجَ ثمراتها، واقتطف جنى فاكهتها بعد أن قَلَّمَ الفروع والأغصان، وشدَّب الأصول والأفنان، وبعدَ أن أنهك نفسه في التسلُّق والصعود، وبعد أن هَجَرَ لذيذ الكرى وراحة الهجود. وأُستبدل بها سهرًا وجهوداً»

(٢١)

تسألون عما كان من «فورد» وقد نجا من ربقة الدَّيْن، ونال من جهوده الحسينين، هل أخذَ بعدئذٍ الى الراحة والدَّعة والركود؟

كلا! ثم كلا!! بل استمرَّ العظيم في فتوحاته العظيمة، وأستمرَّ منذ عام ١٩٢٢

(١) ضريبة الدخل من النظم العادلة المفردة في البلدان الغربية واعلها تشبه في كثير من الوجوه نظام الزكاة المفرر في الشريعة المحمدية وغيرها من الديانات السماوية فتجمع الدولة هذه الأموال فيما تجمع من مختلف الضرائب وتصرف منها على شئون الدولة التي لا تبخل البتة عن العناية بشئون طائفة الفقراء والمعوزين من تعليم واستشفاء، وإطعام، وإمدادات بشتى المعونات.

يُطَرِّ العالمَ سنوياً بمليونين من السيَّارات ، وأصبحت مصانعه عام ١٩٢٥ تدفع خمسين مليوناً من الجنيهات سنوياً أجوراً لعمالها ، ثم أخذ يفكر في إمداد العالمَ بطائرات بخارية ، وأسعف طبقاته العاملة بمستشفى جامع لكلِّ الوسائل الفنية والصحية كلفه وزوجه الأمين مليوناً من الجنيهات . ثم فتح مدرسةً عمليةً لا تحفل بزخرف العلوم وبهرجها بل مثل سيارته «ت» التي لا تحفل بشيء أكثر من المتانة والسرعة ، والوصول براكبها الى حيث ينبغي .

ولعلكم تدهشون إذا علمتم أن هذه المدرسة ، وهي بلدة « سدبوري » بولاية « ماساشوزيتس » تشغل ما يربو على ثلاثة آلاف الفدان ، وأن عدد طلابها فوق الثلاثين قليلاً ، وأن أسنانهم بين الثانية عشرة والسابعة عشرة ، وأنهم لا يعتمدون في تعلُّمهم بها على ما في بطون الكتب والدفاتر ، ولا على ما تخطه الأقلام والمحابر ، وإنما يعتمدون على عقولهم المفكرة ، والتفاتهم المُجدي ، ونظرهم المراقب ، وفكرهم المتيقظ ، وتلك صفاتٌ كانت ولا تزال متجليةً في فورد الأب الذي أورثها لفورد الابن ، والذي يورثها الآن في مشروع مدرسته الجديدة في أبناء جُدد ، أعدَّ المعدات الكافية لتعليمهم الفنون الزراعية من فلاحية ، وصناعة ألبان وجبن ، وتربية ماشية .

وأخيراً لِزَامٌ في عنقكم ، شُبَّاننا الجادِّين ، أن تعلموا عن فورد رَجُلِكُم الخطير أنه يعيش في حياته الخاصة عيشةً لا تزيد على الكفاف كثيراً ، وأنه غيرُ جَشِعٍ في مأكَل ولا مشرب ، وليس بمُعَاقِر خمر ، ولا أسير شهوة . وأنه الحاكم المطلق على نَزَعاته وأهوائه ، ثم هو الى جانب حُبِّه الطبيعي للعمل الجدِّي ينزع في سَوَاع راحته ، وما أقلَّها وأندرُها ، الى أَسْتِجلاء محاسن الطبيعة فيخرج الى الأحراج والغابات ، والى المهامِ والفلوات ، والى الحدائق والمنتزهات ، وأنه يحنو حُنُوًّا

ممتعاً على الطيور ودرسها . بل لقد كان من خلّص أصدقاء الكثيرين من علمائها الأعلام ، وجهابذتها الأفذاذ ، وكان ولا يزال الموفق في اختيار أصدقائه من أصحاب الشخصيات البارزة أمثاله مثل : أديسن وهاردنح رئيس الجمهورية الأسبق . ويجب أن تعلموا أن زعيمكم الصناعي كان هو الآخر مرشحاً في يوم من الأيام لرياسة الجمهورية ، بيد أنه في عمله وإكبابه وإصلاحاته ومخترعاته كان في شغل شاغل عن الترويج لنفسه والتدعيم لدعوته .

وقد يُدهشكم أن تعلموا أن صاحبكم يميل الى إمتاع خاطره بطُرف الأدب بين حين وحين ، وأنه من أنصار الشاعر النابه « لونجفلو » ولعلّ سرّ ذلك هو « أنشودة الحياة » التي يقول فيها الشاعر ما معناه : « لنكن يَقْظَى عاملين ، وليكن لنا القلبُ الكميُّ الذي يحتمل ما يأتي به القَدَرُ من أحداث . ولنمض قُدُماً في أعمالنا ، متبعين الخطى بالخطى . ولتعلم كيف نعمل وكيف نتقرب ! »

وجيلٌ بكم أن تقفوا أمام تلك الكلمات التي أحبها زعيمكم وقَفَّتْهُ المتدبرة المتعقلة ، فتأخذوا أخذَهُ في مَنَهِج حياته الحافلة بجلال الأعمال وكُبريات المآثر ، وناطقات المفاخر ، وتحبوا العمل حبه ، وتكدحوا كدَحَه ، وتضربوا في الحياة بخطوات قوية مُتَّدة ، وأن تسهموا في البرىء النافع من مُتَمَها بما أسهم ، وأن تُقيثوا على إخوانكم في الإنسانية بما أفاء عليهم من برّه وفضله ، وأن تسموا بأخلاقكم كدَمِث خلقه وسامى نُبله ، ولتسيرن في أموركم سَيْرَه ، ولا تنزلوا عن مُعتقداتكم إن كنتم عن حقّها واثقين ، والى صوابها مطمئنين ، ولا يروّعنكم استخفافُ المستخفين من نفايات الصاخبين الناقين ، أو المصفقين المعجبين ما دمتم في كنف الواجب ماضين ، وبهذى العمل آخذين ، والى الأمام المطرد ماضين .

(٢٢)

ومن ألحتم علينا قبل أن نختتم هذا الفصل الموجز عن حياة عصاميّنا الكبير، الذي هو بمثابة قطرة من بحر، والذي لا يعدو عن كونه أسطراً قليلاً من كتاب في مجلدات، أن نلفت أنظاركم الى لمحة من فلسفته بعد قراءتنا لكتابه الأخير « فلسفتي في الصناعة »

وإن خير ما نتقدم به اليكم هو انتخاب مجلٍ قليلة من تعاليمه السامية .
يقول فورد : « يجب على الانسان أن يطبع ما ينشده من تقدّم بطابع المبادئ الخلقية ، التي هي عبارة عن علاقة الانسان بأخيه الإنسان » ويقول : « يجب ألا يكون تقدّمنا على حساب الأخلاق »

ويقول في جهة أخرى : « إنا لا نعيش في عصر آلي كما يذهب البعض ، وإنما نعيش في عصر القوة ، وقد يتفاوت مقدار ارتفاعنا بهذا العصر ، وفقاً لطريقة أستخدمنا لها ، فيجوز أن نسيء أستخدمها ، ويجوز أن نستخدمها في أسعار النوع البشري ، وهنا تظهر الأخلاق »

فأنتم ترون مبلغ عنايته بالأخلاق في تلك الكلمات القليلة .

وأنظروا الى مبلغ تقديره لذكري العاملين من قومه حيث يقول في بعض فصوله : « لقد فكر ابراهيم لنكولن » و « بنيامين فرانكلن » في مبادئ أو أسس ، وكانا معتبرين من بناء عصرهما ، وهما لا يزالان حتى الآن من بناء هذا العصر ، لأن مبادئهما باقية حتى اليوم ، معمولٌ بها حتى الآن . ألا إن قيمة كل أمرى في الحقيقة التي يكتشفها ويعرفها ويستعملها . . . »

ثم يقول عن السياسة : « إنها تلزم التغيير ، وتُحتم على التقدّم » .
وأما عن وقت الفراغ فله فيه كلماتٌ سديدةٌ نُجملها لكم في قوله :

وقت الفراغ

« لا يمكن الحكم على مميزات الناس إلا بعد معرفة استخدامهم لساعات فراغهم ، وكيفية استعمالهم لها ، فقد مضى أمس الدابر الذي كان تُعدّ فيه ساعات الفراغ مُضيعةً للوقت ، خصوصاً ما يختص بالصناعة ، حيث كانوا يعتقدون أن تخفيض ساعات العمل يؤدي الى الفقر والفساد .

ففي أمريكا قد تغيرت أفكارهم من هذه الوجهة في السنوات الأخيرة ، وأصبحوا يعتقدون أن وقت الفراغ ليست فيه أيّة خسارة . وإنما هو يعود بأكبر فائدة على الإنسان ، إذ يمكنه أن يستعيد قوّته ، ويستردّ صحته ، أو يستفيد من عمل آخر يضاعف به رزقه ، أو يُنمّي مداركه ، وكل هذا تتجلى فيه سعادة الأسرة وراحة النفس .

فالرجل إذن يحتاج الى وقت للتفكير ، والدنيا في حاجة لمفكرين ، ومن أهمّ ما تُقاسيه الحياة الصناعية الآن عدم وجود صنّاع يقومون بعملهم بدون قادة . وهذا يرجع الى عدم توفر وقت الفراغ لهم للتفكير فيما يعود عليهم بالخير ، وتحسين حالتهم العقلية . »

وأما رأيه في التعليم فقد أبداه في كلمات موجزة هي خير مؤدّب ومهذّب :

التعليم

« التعليم الصحيح هو بشرح المسائل ، وإثبات الواقع بالأدلة والبراهين ، لا بكثرة الأسئلة التي لا يدركها الفهم . »

واليكم أسوق كلام هذا الرجل العظيم ، والداعي الكريم عن أمته النبيلة التي سبقت الأمم في إلغاء تجارة المشروبات الروحية ، ومنع تجارة الرقيق ، فسجل لها في صفحات التاريخ الفخر الدائم ، والمجد الخالد :

المشروبات الروحية

« إن قيام أمريكا من بدء حياتها في إبطال تجارة المشروبات الروحية ، ومنع تجارة الرقيق كان من الإصلاح العظيم الذي فاقت به أمريكا كل الأمم حتى أصبحت لها المكانة الأولى في التقدم ، ونالت مُستوى لا يتسنى لأمة غيرها أن ترقى إليه . »
ويحدثنا عن مضار التدخين ، وما أكثر انتشاره بين شبابنا حتى الناشئ الصغير فيهم ، وكيف لا يُوجد في مصانعه الواسعة شخص يدخن بين عمّاله الذين يعدّون بالآلاف :

التدخين

« لا يوجد شخص في مصانع فورد يدخن ، لأن التدخين ليس بالشئ الصالح للصناعة أو الفرد . »

أما كلامه عن الاختراعات الحديثة وأثرها ، وكيف أصبحت فتنة الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم ، ومطمح أنظارهم وأفهامهم ، فهو من دُرره انغوالى التي يعجب بها الذين فُطروا على الإعجاب بكل غريب ، والأفتنان بكل جديد :

الاختراعات الحديثة وأثرها

« لقد قامت الآلة بتكميل ما لم ينجح فيه الانسان بطريق الوعظ أو البروباجنده أو الكتابة ، فالطيارة أصبحت بفضل ما أُدخل عليها من وسائل النجاح لا يقف في سبيلها عائق ، فهي تمرّ على كل قطعة من الأرض بلا أدنى توقف . وأضحت تربط أجزاء العالم بعضها ببعض ، بطريقة لا يمكن لأى نظام آخر عملها . والصور المتحركة بلغت الكونية ، والطيارة بسرعتها ، واللاسلكى بروجرامه المختلط القادم ، كل هذه ستكون في المستقبل أكبر معوان للتفاهم ، فهل لنا أن نتنبأ بإنشاء ولايات متحدة دنيوية ؟ لا بدّ أن يحصل ذلك أخيراً . »

واليكم ما يقوله في التفكير حتى تنقلَ المعجبون بأعماله الى الأفتنان بأقواله
الدالة على عبقريته ونبوغه ، والتحدث بها في كل صُقع وناد :

التفكير

« التفكير عملٌ بالمعنى الصحيح ، وربما كان أصعبَ الأعمال . وإني أعتقد أن
أسرار الحياة مفتوحٌ أبوابها للمفكرين ، فإذا اعترضتنا مسألةٌ أمكن حلّها بالتفكير
حالا ، كما أعتقد أننا نعيش ونمشي ، ولنا وجودنا ، في محيط التفكير ، وسنستمر
دائماً فيه ولو تغير شكلنا وشكل الدنيا . »

ويحدثنا عن الاختراع وسرّ عجائبه وغرائبه في كلمة بليغة تدل على مبلغ
شهرة وعظمته .

الاختراع

« الاختراع سراج منير يستضيء به مخترع آخر . »

أما رأيه في قيمة الأشياء القديمة فهو أسدُّ رأيا ، وأصدقُ نظراً لأنه لا يخسها
قدرها بل جعلها سُلماً للحضارة الحاضرة :

قيمة الأشياء القديمة

« ليس القديم كائناً مستقلاً يقضى به المرء لبائته ، إنما هو سُلَّمٌ ترتقى به الأمم
الى عرش الحضارة الحاضرة . »

وأسوق اليكم كلماته السديدة عن التشهير بالخطأ وهي تشيفٌ عن بُعد نظرٍ
ذلك الرجل العظيم ، ثم هي تؤيدني التأيد كله بانه مصيبٌ في كل ما يرى وما
يفعل ، وما يتهج لنفسه وللناس من سُبُل الحياة :

التشهير بالخطأ

« من السهل على الانسان أن يُشهرَ بالخطأ دون أن يعمل على إصلاحه ،

ولا يمكن تحسين حالتنا الحاضرة مع التشهير بالماضى ، إذن فلنترك الماضى وما كان عليه ، ولننظر فى تحسين حالتنا الحاضرة . وألفت النظر الى أن ما نعتبره الآن خطأ الماضى لم يكن فى زمنه خطأ بل كان صحيحاً ، كما ننظر نحن الآن الى الصحيح الذى ربما يصبح خطأ بعد ردى من الدهر . »

ويحدثنا عن الحرب وأسبابها فى عبارة موجزة هى الحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة :

الحرب وأسبابها

« لا تقوم الحرب بسبب الوطنية ، أو للدفاع عن أحب الناس إلينا ، ولكنها تقوم بسبب التعاليم الدينية العقيمة ، والمصلحون قليلون ، فهل لا يوجد العدد الكافى للقضاء على هذه التعاليم ؟ »

أما كلمة عن المال فهى من كلماته المأثورة التى يجب على شباننا الناهضين ، وهم عيون الأمة اليقظة ، وعقولها المفكرة ، أن يُعيروها أُذُنًا صاغيةً ، وقلوباً واعية :

المال

« المال مطية النجاح ، ومُعْضلة الشاب الحديث ، فمن حلها واستطاع السبيل إليه بجِدٍّ ونشاط ، فقد عاش بين الرجال ، وخُلِدَ فى صحيفة الأبطال . »

ويحدثنا عن أساس التقدم ، والشكوى من سيرة بيطء ، وما أصدق كلام رَجُل الجِدِّ والعمل والشجاعة والإقدام والهمة فى هذا الموقف :

أساس التقدم والشكوى من سيرة بيطء

« يحمل رجال الصناعة والتجارة والنقل منذ العهد القديم حتى الوقت الحاضر القنطرة التى يمر عليها العالم ، ويشكو البعض من أن العالم يسير ببطء نحو

(١) لعل هذا كان صحيحاً الى حد غير قليل فيما سلف من الأزمان . أما فى عصرنا الحاضر فعظم اسبابها راجع الى الاطماع الاستعمارية وجشع الرأسمالين

التقدم، ومع الأسف أن هذا البعض ممن يمشون على هذه القنطرة دون أن يضعوا حجراً من بنيانها !! »

وانظر الى ما قاله عن المؤرخ والعامل ، وكيف رجَّح كفةَ الثاني عن الأول لا مُجاملةً ولا مُحاباةً ، وإنما لأنه يعمل الشيء بيده ، ويتعهد بنفسه ، فيرى بعينه ثمرات أعماله ونجاحها ، فيغتبط برآها ويصبح أسعدَ الناس حالاً ، وأوفرهم حظاً :

المؤرخ والعامل

« العامل أهم بكثير من المؤرخ ، لأن المخترعات والمكتشفات والمدنية الحديثة بأجمعها حسنة من حسناته ، وثمره من ثمراته ، بينما المؤرخ لا يقضى وقته إلا في تاريخ أعمال غيره . »

أما رأيه في الرجل المتعلم فهو من الآراء الحكيمة ، لأنه يرى أن الشهادات لا قيمة لها إلا إذا كان حاملها من أصحاب العقول المفكرة :

الرجل المتعلم

« الرجل المتعلم هو الذي يمكنه أن يفكر بصرف النظر عن الشهادات التي يحملها . » وما الى ذلك من الكلمات السديدة ، والحكم البليغة التي تهذب النفوس ، وتثقف العقول ، وتبعث في نفوس ضعاف العزائم روح الهمة والنشاط ، والشجاعة والإقدام . وإنا نجملها لكم في هذه السطور :

عقبات النجاح

« الخوف والكبرياء هما أكبر عقبة كأداء في طريق النجاح . »

الاقتصاد والشغل

« إنَّ مَنْ يستغل ما عنده خيرٌ من اقتصاده . وبعضُ الناس يبدل كلمة الاقتصاد بكلمة الشغل ، وهذا خطأ ، لأن كلمة الأدخار نصفها الخوف . »

قيمة الأخطاء

« تكون الأخطاء جزءاً من مادّة العلم ولكن بطريق سلبيّ . »

الحكمة

« أساسُ الحكمة معرفة المبادئ ، والعملُ على تقدّمها . »

درس الحياة

« الحياة كالنهر الذي يغيّر مجراه دائماً ، ودرسها يكون بتتبّعها أنّى سارت ، لا أن يَبْقَى الإنسان في مجرى لها تركته . »

رجال الأعمال

« ليس لرجال السياسة أو العلم أو الدين من التأثير على الجماعة ما لرجال الأعمال ، لما لهم بها من الارتباط المستمرّ ، والتأثير الذي لا يمكن تجنبه . »

الفقر وعمله

« علاجُ الفقر ليس الإحسان ، بل العلاج هو حصر الأسباب التي أدّت إليه ، والعملُ على إيجاد خير الوسائل لإزالتها ، وليس هناك دواء ناجع لذلك أحسن من العمل . وكل من يشتغل فإنه يعمل على إزالة الفقر . »

الديمقراطية

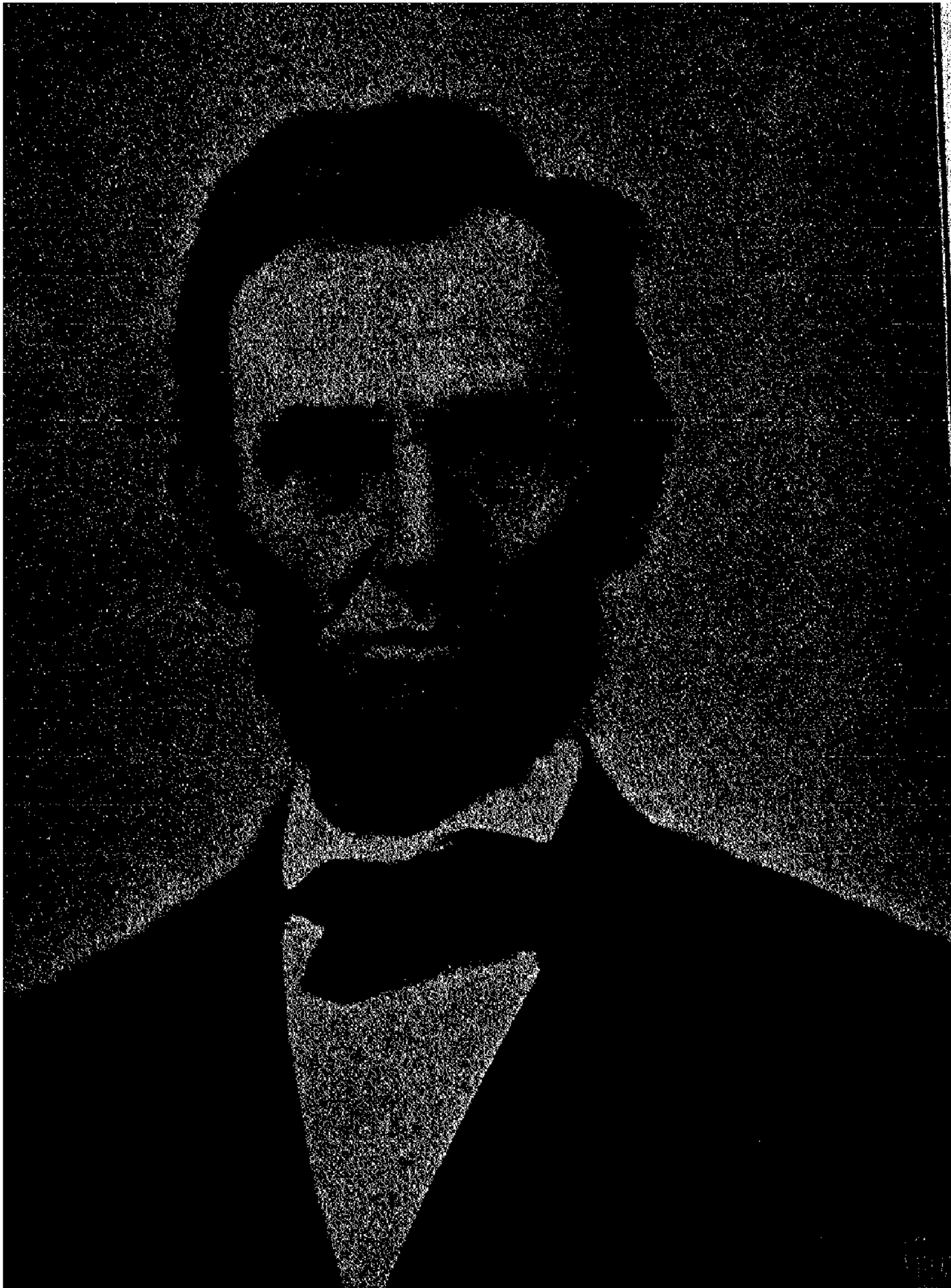
« العقول متى توحدت في تفكيرها ، وأشتركت في مجهودها ، تؤدي حتماً الى نتائج أحسن مما لو كانت تعمل متفرقة . »

مول زعيم سياسي مرر نصف البشرية

ابراهيم لنكولن

(١)

لا نستطيع أن نَزْعُمَ بحقِّ أنه في مُكَنَّتِنَا إيفاء حق « ابراهيم لنكولن » مر البحث والتحليل في موجزٍ تاريخيٍّ كالذي نحاول كتابته عنه في هذه الصفحات القليلة . ومن الحق علينا أن نَعترفَ بادئ ذي بدءٍ — احتراماً للتاريخ والعلم واحتراماً للبطل الذي نكتب عنه ولأنفسنا — بِعَجْزِنا عن استيعاب حياة ذلك الرجل العظيم ، والمفكر الكبير ، والمصلح الجريء التي تملأ القلوب والأنظار والأسماع هيبَةً ورَوْعَةً وجلالاً . ذلك لأنَّ حياة العظيم عظيمةٌ مثله . فما هي لعمركم إلا سلسلةٌ متصلةٌ الحلقات متعددة الوجهاً ، مترعةٌ بأجل الدروس وأمتع العظات ، وليس الى حصرها من سبيل ، وليس دون الارتفاع بسنتها ، والاهتداء بسننِ ضوئها ، من حدٍّ ولا نهاية . وإنما قصارى ما نرمي اليه ونرجوه لشبابنا ، وفلذات أكبادنا ، وعُدَّة آمالنا في مستقبلنا ، أن يلموا معنا إمامةً متواضعةً ، بصاحب هذه السيرة المتواضعة ، الذي يكفيه من نخرِ سرمدتي ، ومجدِ أبدتي ، ما أصابه في أخريات جهوده المتواصلة من توطيد عُرى الاتحاد بين بلدان أمته ، وتحرير نصف أبناء جلده . . . كلا بل تحريره نصف البشرية قاطبةً من ربقة الرق والاستعباد ، ونير الإجحاف والاستبداد ، الى نور الحرية والإخاء والمساواة . . . آملين أن نهتدي جميعاً بهديه ، فنعمل متكاتفين متساندين على ما فيه خدمة الأوطان ، ومحبة الانسان لأخيه الانسان .



ابراهام لنکولن

(٢)

وُلد بطلُنَا « لنكولن » الرئيس السادس عشر للجمهورية الأمريكية في ١٢ فبراير سنة ١٨٠٩ . ولسنا نحفل كثيراً بأن تقف على سنة ميلاده بقدر حَفَلْنَا بِتَتَبُعِهِ في تَوَقُّله ذُرَى المجد ، ومثابرة الدُوب في خدمة الانسانية ؛ وبقدر ما نحفل بدرس عوامل عصاميّته ، وتفهم صريح سياسته ، والاحتذاء بإصاليته ، والاعتداء بكياسته ؛ وبقدر ما نحفل بإشباع نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من نزيه طعمته ، وبرئ وطنيته ، ونبيل طويّته ؛ وبقدر حَفَلْنَا أن نكون على غراره وقلبه ، نعيش للوطن ، ومن أجل الوطن ، وفي سبيل الوطن ؛ ونحيا للواجب ، ومن أجل الواجب ، وفي سبيل الواجب .

لقد نشأ « لنكولن » في حِجْرِ العَوَز والفاقة يقوده الأمل ، ويسوقه الرجاء ، وبين جنبيه همة عالية ، ونفس كبيرة . فصهرته يد الزمن القاسية ، اذ ضربه الدهر بضربانه ، ورماه بنكباته ، فكوّنت من نفسيته النقية ، وسجاياه الرضية ، وقلبه الرئوم ، وسعة أعطانه الحديبة الرحيمة ، الرجلَ العظيم حقاً ، والبطلَ النزيه السمعة ، الحسنَ الأحدثوثة ، المتوثّبَ العزيمة ، والمستحصداً الهمة . كوّنت منه حَمَالَ الأعباء ، طَلَّاعَ الثنايا . كوّنت منه رجلاً حَلَبَ الدهرَ أَشْطَرَهُ ^(١) . كوّنت منه زعيمَ الشعب ومعلّمه ، ومُدَرَّبَ الوطن وخادمه . كوّنت منه حاكم الأمة في غير صَلف ولا اغترار ، ولا جبروتٍ ولا استكبار . كوّنت منه أمةً في رَجُلٍ ، ورجلاً في أمة . وأخيراً كوّنت منه المعنى الخالد للوطنية الخالدة ، والرمز الصادق للعزيمة الصادقة : كَوْنَتْ منه المبدأ الحق لهذا الخلق ألا وهو : « الفناء الشخصي إزاء الصالح القومي » .

(١) يقال للرجل المجرب الأمور : « قد حلب الدهر أَشْطَرَهُ » أي قد قاسى الشدائد والرخاء وتقلب في الفقر والغنى .

(٣)

أى شبابنا الناهضين :

ليست العظمة الحقة أن يُولَدَ الرجلُ مُعِمًّا مُخَوَّلًا ؛ ولا هى فى عِراقة الأرومة والنَّجار ، وسعة الثروة والعقار ؛ ولا هى فى أن يَنشأَ الإنسانُ سَرِيًّا يُشار إلى هَيْلِهِ ^(١) وهَيْلَمَانِهِ ، وَطِمَّةً وَرَمَّةً بالبنان ^(٢) ، ولا فى أن يصيبَ من غفوة الدهر وغفلته قرنَ الكَلَأِ ^(٣) ؛ ولا فى أن يستمتع بما فى الحياة من هَيْءٍ وَجِيءٍ ^(٤) . كَلَأً وربكم ! وإنما هى فيما هو أنبل وأسمى : إنها فى الخلق . فى الكدح . فى العمل . ثم هى لعمركم فى الايمان بما فى أعناقنا جميعاً مَهْمَا تَبَايَنْتَ أَسْنَانُنَا ، وأُخْتَلَفَتْ أَعْمَالُنَا ، وتفاوتت مراتبُنَا ، من واجبات نحو الوطن وأبناء الوطن .

أى شبابنا الناهضين :

ليس فى الفقر من هِنَةٍ ولا عَابٍ ، إنما الهِنَةُ والعَابُ فى أن يكون الرجلُ عَالَةً على غيره ، قُعْدَةً جُثْمَةً ^(٥) لا يعى ما يراود ولا ما يشاد . « وإبراهيم لنكولن » لم يقعد به فقر أييه النجار المزارع المسكين الذى كان يزرع فضاء الأرض عساه يجدُ مزرعةً تقيم من أوده ، وتسعفه بما يسدُّ الرُمُقَ . بل كانَ لآبِهِ ^(٦) الصغير وهو اسم « إبراهيم لنكولن » منذ مِيعَةِ شَبَابِهِ ، وطراوة إِهَابِهِ ، كانَ لَهُ من عمله المتواصل ، وجدِّه الدائم ، هامة الفخار ، وسمة الاعتبار بين اللدات والأقران . فلن يقعد بالرجل فقره ، بل جهده ، ولن يسمو به جاهه ، أو ماله ، وإنما تسمو به مواهبه وكفايته وفعاله .

(١) أى المال الكثير (٢) إشارة الى كثرة المال وتنوعه

(٣) يقال لمن أصاب مالا وافراً لم يصبه سواء : أصاب فلان قرن الكَلَأِ

(٤) الهىء : الدعاء الى الطعام . والجيء : الدعاء الى الشراب (٥) الجثمة : النؤوم الذى لا يسافر

(٦) (Abé)

(٤)

ولنتقل الآن أبناءنا الأعزاء الى مسألة أخرى جديرة بإكباكم ودرسكم،
حرية بانتباهكم وتوثب هممكم، قينة بإقبالكم، وإنعامكم ألا وهي أثر المرأة الفاضلة
في تكوين الرجل الفاضل، وللمرأة الكاملة الأثر الأول في تكوين النزعة الخلقية
الأولى. لما لها من اليد الطولى في إمداد الوطن يُجند الوطن الأصحاء، وكما
الوطن الأقوياء، ومحررى الوطن الأوفياء.

فقد ماتت أم « ابراهيم لنكولن » وهو لم يعد التاسعة من عمره. ماتت
ولا طبيب يعالجها ولا قسيس يواسيها. ماتت فعمل لنكولن مع والده على تجهيز
كفنها، وإعداد الوسائل اللازمة لدفنها.

تلك صدمة عنيفة لا يقوى على تحملها قلب صبي ناشئ مثل « لنكولن ».
ولتلك الصدمة بلا ريب آثارها الحسنة الى جانب أثرها المادى السيئ. فليس
من شك أن لنكولن سيتذوق من بعدها معنى الاحتمال والجلد والصبر على
المكاره. وليس من شك أنها ستبذر في قلبه الكايم وفؤاده الكسير معانى الرحمة
والحنان، والبر والاحسان. ومع هذا فإن القدر العادل لم يحرم لنكولن من
عطف الأم، وإن كان قد حرمه من شخصها. ذلك أنه قد حذب عليه قلب
زوج أبيه الجديدة التى أُتيح لها أن تعيش فيما بعد فترة بعينها آبه^(١) الذى
علمته صغيراً وعظفت عليه يافعا — تراه وهو الرئيس الأعلى للجمهورية الأمريكية
في المرتين السادسة عشر والسابعة عشر — يراه رئيساً عادلاً، يُشرفه على الدوام أن
يدعو أمتة الى المساواة السياسية العادلة، لأنه يرى فى المساواة بقاء الأم وسعادة
الأفراد. تراه فى مركز الحاكم بأمره، مَنْ تَعْنُو له الوجوه وتخضع له الرقاب، فلا
يحكم إلا حقاً وعدلاً، ولا يسير بين الرعية تيهاً وعجباً، بل كان رمز الأدب اليانع،

(١) لابراهيم لنكولن لقب « Abc » أثناء صغره كما أسلفنا

والخلق المتواضع . تراه بين ظهراني جُنْدِهِ في حَوْمَةِ الوغى مواسياً ومشجعاً بلا ازورار جناب ، أو رصد أبواب ، وكثرة حجاب . . كما يفعل غيره من عتاة الولاية الذين يظنون أنهم مخلوقون من طينة غير طينة رعيتهم ، بل كان لهم نعم الرفيق والزميل ، ونعم المعين والظهير ، ونعم الراعى المسئول عن رعيته .
أى شبابنا الناهضين :

إن في حبّ « لنكولن » لزوج أبيه معنى سامياً فلا يعزبن عن أذهانكم ، وجدّيّ بكم أن تنعموا النظر فيه طويلاً . لقد ماتت والدته وأراد القدر أن يبنى والده من حليلة أخرى لتعمر بيته ، وترفعه عنه متاعب الحياة ، ولتضئ بنورها جوّه القائم ووكره الحالك ، فلماذا يمتقتها ويعمل على إيذائها ؟

إنها زوج أبيه فهي صنو والدته وبديلتها فلما لا يشب على حبها والتعلق بها إما إرضاء لعاطفة والده ، أو احتراماً لمركز الأمومة المضحية التي هي رمز لها على الدوام . ثم ما ذنب المرأة في ذلك الصنيع وهي أجدر على الدوام بالعطف والتقدير . فاذكروا معشر الشباب والشابات مركز لنكولن من زوج أبيه ومكانها منه . وانظروا نظرة رثاء لمن ينهج غير منهجها ونظرة ممت وكُرّه لتلك الحوادث الإجرامية التي تقع الفينة بعد الفينة في مثل ذلك الموقف الذي هو أخلق بالحنان والرعاية ، وأولى بالبر والعناية .

فعليكم بالتسامح والوفاء ، وعمرؤا قلوبكم بالإخلاص والولاء ، وكونوا لآبائكم وزوجاتهم أبرّ الأبناء .

(٥)

في قرية « كنتكى »^(١) النائبة والتي تقع على الحدود الغربية للولايات المتحدة عاشت أسرة لنكولن عيشة فقر وفاقة . فقد كان والده كما أسلفنا مزارعاً نجاراً ، عديم

الحيلة والتدبير، يعيش وآله في فقر مدقع، وخصاصة لا يحتملها إلا أصحاب القلوب الكبيرة. وكان الكوخ الذي يسكنونه بلا نوافذ ولا زجاج، ويمكن أن يقال في غير مبالغة ولا إغراق: إن أسرة لنكولن قد افترشت الغبراء، وألحقت السماء. وأما لباس لنكولن فلم يعد عن بنطلون قصير، وقميص بسيط، بلا سترة، ولا صدر. وأما عيشته فخشنة الملابس، تافهة المأكل، شظفة المأوى.

ولقد باعت الأسرة هذا الكوخ ثمنًا لهجرتها إلى «الانديانا»، وباعوا مزرعتهم بعشرة براميل من الوسكى وأربعة جنيهاً. ومن هنا تتصورون مبلغ رأس مالهم، ومبلغ حضارة القرية التي أنبتهم.

وانظروا — رعاكم الله — إرادة القدر في تنشئة بطلنا في حزامتها وشدتها، وصرامتها وأيدها.

لقد غرق الوسكى، وغرقت براميله، وأبتلع النهر رأس المال، فسارت الأسرة قدماً لا تلوى على شيء، تنهب بأقدامها الدامية الحراج والغابات. وكثيراً ما استعمل لنكولن وآل لنكولن بلطاتهم ومعاولهم في تمهيد الطرق التي مروا فيها لأنها كانت في حالتها الوحشية الأولى.

فتصوروا مبلغ ما عانوا في سفرتهم تلك من عنتٍ ممضٍ، وتعبٍ مقضٍ. فلقد كانت الأرض حين ذاك بمثابة تلاع وقلاع تكسوها الأشجار الغلاظ التي ليس إلى اقتلاعها من سبيل، ولم يكن لها من ثمنٍ يذكر اللهم إلا في الجيد منها والمهد المعبد فقد كان لا يعدو ثمنه بضعة شلنات.

تلك هي الصفحة الأولى من حياة هذا الرحالة الصغير الذي عاش من عرق جبينه، ومن وراء معول بلطته، ويبدله قصارى الجهد في الاحتطاب والفلاحة. فلتذكروا جيداً أن «لنكولن» زعيم دولة الأمريكان، ومعبودهم إلى هذا

الزمان، كان خطاباً في بدايته . فلا تندى وجوهكم من الفقر بل تجلوه بالعمل .
إن العمل كان جنة وكان نصراً وكان نعيماً .

(٦)

والآن قد تفتحت عينا القدر العادل ، لذلك الخطاب العامل ، فعمل على حسن جزائه ، لجليل بلائه ، وإن أثقل الرِّشَاء أملؤها ، وأبطأ السحائب أحفلها ، فأناله غفّة^(١) من العيش بعد شظفِهِ ، وبلغته من الرزق إثر حففهِ^(٢) ، ورفعهُ الى موزع بريد ، ثم دفع به الى أن أصبح قائد مركب شراعى ، وبَدَّله الى جزَّار ، ونهض به الى وسيط خيول ، ثم أرتقى به الى مساعد أمين مخزن

ولزامٌ في أعناقنا في هذا المقام أن نثبت لكم فلذات أكبادنا أن صاحبكم « لنكولن » قد بلغ الآن من السن الحادية والعشرين ربيعاً ، ولم يكن يعرف بعد شيئاً من قواعد القراءة والكتابة فضرب لنا خير مثلي بما وصل اليه أخيراً من علم وعرفان ، ومُلِّك وصوِّلْجَان ، بأن السنَّ مهما تقدّمت لن تقعد إلا بالكسالى المقعدين ، الذين لا تنهض بهم عزيمة ولا إرادة .

إنَّ جلَّ الزعماء والعصامين كوّنوا أنفسهم بأنفسهم ، وكلوا بجهودهم مواطني النقص فيهم ، وحسروا عن ساقم وإن تقدّمت بهم أعمارهم . وسعّوا في مناكبها سعى المجاهدين ، ونهلوا من علومها ومعارفها . وصبروا وصابروا ، وجدّوا وثابروا ، ورغبوا وعملوا ، وأرادوا وتقدّوا ، وكانوا في النهاية من المبرزين ، وتلك عُقبى العاملين ، ولن يغيّر الله ما يقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم . فعليكم أنفسكم إن كنتم في النُّجَح طامعين ، وفي التقدّم راغبين .

(١) الغفّة من العيش والبلغة من الرزق كلاهما بمعنى ما يتبلغ به

(٢) الشظف والحفف والصفف والنشف الخ بمعنى شدة العيش .

أى شبابنا الناهضين :

لقد كان أجر « لنكولن » فى عمله الأول هو ومركبه ستة شلنات فى الأسبوع، ولم يكن للراتب من شأن فى انتقاله الى عمل آخر، وإنما يحدّثنا مؤرخو حياته أن لنكولن ما انتقل من المراكب وقيادتها، إلاّ لأن الكتب التى عند مخدومه الأول قد أتى عليها لنكولن، فاستوعب قراءتها، وأتمّ دراستها . وكان الى غيرها راغباً وطموحاً، فاستبدل بصاحبها غيره عساه يصيب من وراء خدمته كتباً وأسفاراً، ويزداد قراءة واطلاعاً، ولا غرو فان صاحبكم كان طُلعة^(١) منذ بدايته، كما كان عاملاً أميناً منذ نشأته .

(٧)

لقد أسلفت أن صاحبنا اشتغل أخيراً مساعداً فى مخزن « بنو سالم » وقد كان له بعض لحظات من أوقات الفراغ . أتعرفون فيم صرفها ؟
كان يقطع مسافة ميل أو أكثر لاقتراض كتاب فى نحو اللغة، لأنه وقد علم نفسه بنفسه قد أحسن من ناحيته ضِعْفاً فى اللغة ومنتها، فلم يخدع نفسه فى سدّ نقصها، وتقوية ضعفها، ذلك لأن العظيم غير خدّاع لنفسه، غير خدّاع لرفاقه، غير خدّاع لأُمته .

هو لا يخدع نفسه باغتفار معاييه، ولا يخدع أقرانه فى ملابتهم فى دهان ورياء، ولا يخدع أُمته فى عدم خدمتها خدمة الأمناء الشرفاء وكذلك كان لنكولن .

(٨)

لقد اشتغل شبه تاجر مع شريك له، وأدمن الشريك أحتساء الخمر، والعبث

(١) تقول العرب : رجل طُلعة، ولعل هذا اللفظ هو ما يقصد به مؤرخو حياة لنكولن من قولهم :

Electric dynamo : earnestness.

بالأصول ، حتى مات وقد ترك ديناً . فإذا كان من لنكولن ؟ لقد قرّ قراره — وشدّ ما يحترم لنكولن ما يقرر — « لأدفعنّ عن شريكى دينه ، ولأحتملنّ بعد مماته غُرْمه ، ولأضطلعنّ بوزره وعبثه ، ولأكوننّ لذكراه من الصادقين ، ولحقّ زمالته من المؤدّين » .

وهكذا استمرّ لنكولن خمسة عشر عاماً يسدّد ديون الشريك وأيّ شريك سيّكر معربد ، ولكنه شريك وكفى !!

لتكبروا إذن صفة الأمانة في هذا العصاميّ الكبير منذ أيام العسر والإضافة ، ومرحلة العُدْم والفاقة . واذكروا أنه أستمّر أميناً مع أمته ، كما كان أميناً مع رفقته . ولتعلموا غير معلّمين أنه أخلص للأمم إخلاصه للأحياء . وسار بالمعدلة مع الضعفاء سيرته في اقتصاص الحقّ مع الأقوياء . وهكذا تنبت العظمة الخالدة من معين النبل والطهر والعفاف ، وهكذا تطبع منذ نعومة الأظفار على حبّ الأمانة والعدل والإنصاف

(٩)

أتعلمون ماذا كان ينويه لنكولن لنفسه من مهنة له في مستقبل حياته ؟ إنه كان ينزع — الى جانب قراءاته وثقافته — الى أن يكسب قوت نفسه وقوت أسرته من وراء ما يصيبه من عَرَق الجبين ، لقد كاد يكون حداداً لولا تدخل صديق وفيّ أشار عليه بدرس الحقوق ، فكان المحامي العدل ، نصير الضعفاء ، وخادم العدالة كما أصبح فيما بعد الرئيس العدل ، محرّر الأرقاء ، وخادم الإنسانية ويذكر لنا مؤرخو حياته : الأميال الطويلة التي كانت تقطعها قدماه ليقترض كتاباً ، وليستعير سِفْراً ، ليدرس فيه الحقوق ، ولقد واصل مغداته بمراحته : وإصابحه بإمسائه ، في حماس ونفاس ، وصلابة وأضطلاع ، وفي جَلَدٍ ومثابرة ، وتصميم

ومواصلة ، ودرس ومذاكرة . حتى أستبدل حياته في أربع سنوات بالمحامى المذكور بعد أن كان حداداً مأجوراً .

فلتذكروا إذن ما وراء الدرس ، وما وراء الإرادة ، وما وراء سهر الليالى ، لتذكروا أن لنكولن كان الى ٢١ من عمره فى حكم لا شىء ، وأنه فى ٢٥ من عمره أصبح محامياً ونائباً عن سبرنجفيلد . ولتكبروا جهد العظيم فى فقره ومحنته وشظفه وتباريحه .

يلذلى فى هذا المقام أن أذكر نصّ الخطبة الانتخابية الأولى التى خطبها « لنكولن » المنتخبين لأنها فى صراحتها وعدم تزويقها ، وخلوها من الوعود البراقة ، والأمانى الكبار جديرة بأن تنظر اليها الأمم الدستورية فى أيام انتخاباتها نظرة تدبر وتقدير ، ولتعلموا — رعاكم الله — أن الرجل بعمله لا بوعوده ، وأن المكثار مهذار أبد الآبدين .

يقول لنكولن ما نصه :

« مواطنى ^(١) :

أزعم أنكم تعرفون من أنا ، أنا ابراهيم لنكولن ببساطة ، وسياسى قصيرة عذبة كرقصة المرأة العجوز ، فاذا ما انتخبت فشكور ، واذا لم أنتخب فسواسية لدى » ولعلّه شبه سياسته فى قصرها وعذوبتها برقصة العجوز لأنها لا تطيل ، ولا تمايل ، ولا تتثنى ، ولا تهادى ، فليس لها تعانق الراقصات ، ولا حركات الغادات الحسان . فهو فى تشبيهه هذا مثله فى كل شىء صريح وبسيط وأمين

(١) أسماها الانغليزى هكذا :

Fellow citizens, I presume you know who I am. I am plain Ab. Linc. My politics are short and sweet, like the old woman's dance. If elected, I shall be thankfull, if not, it will be all the same.

(١٠)

لننتقل الآن مع لنكولن المحامى الذى وصل الى سبرنجفيلد خالى الوفاض ليس فى جرابه فضلة مال تمكنه من شراء سرير ينام عليه .
فقد ذكر لنا مؤرخو حياته : أنه ذهب الى يوسنا سيد^(١) وهو صاحب حانوت تجارى بسيط ، وأن الرجل تقدّم اليه فأشركه معه فى النوم على سريره بعد أن ألفاه لا يملك سبعة عشر ريالاً المطلوبة لشراء حاجياته الضرورية .
ولقد مكن القدر لنكولن فيما بعد أن يحسن الى هذا المحسن عند ما أصبح رئيساً للجمهورية . فماذا فعل ؟

عَيّن شقيقه وزيراً ولم يعينه هو ، لأن لنكولن كرجل شريف ، أمين ، وكسياسى صريح رأى أن أخاه أهلاً لمناصب الدولة دون صاحب الفضل عليه ، فعينه إرضاء لضميره ، ولم يكن لحقوق الوطن وكرامة المناصب من المفرطين .

(١١)

المحامية شىء شريف عند الرجل الشريف ، هى سلاح مرهف الفرار للقضاء على ظلم الظالمين ، ولأجثاث عُذّوان المعتدين ، هى نعم الظهير والمعين لدفع جائحة ، وتدعيم حقّ إن كان صاحبها الشريف الأمين ، وهكذا كان لنكولن .
لقد ترفع مرة فى قضية ، وكان متدفّق البيان ، قوى الحجة ، أخذاً مهيباً — ولنكولن كان خطيباً بالسليقة — وطالما أُستلب نُهى سامعيه منذ كان قصاصاً يروى لهم الحكايات فى طلاوة وحلاوة .

تبَيّن أثناء دفاعه ، وأوارحماسه ، وشغشقة ييانه ، أنه إنما يدافع عن مجرم مُدان ، فتفجّر مرّجلاً ضميره ، وأهتاجت أعصاب غضبه ، فألقى بأوراق القضية فى ردهة المحكمة . ثم عاد أدراجه الى بيته ومأواه . ومن ثمة كتب الى رئيس الجلسة

كتاباً يعتذر له فيه عما كان منه ويقول : « لقد كانت يداي ملوَّثتين ، فعدت أدراجي الى كسر بيتي لأطهرهما من أدرانهما »

أى ضمير هذا الضمير الحىّ فى هذا الرجل الحىّ العظيم ، لقد كان ولا يزال منذ لحظة فى حاجة ماسة الى ثمن فراش محتويه ، وسرير يقتنيه ، وأثاث يشتريه ، وها قد درّت عليه صناعته أخلاف الرزق فيهرب من الرزق الذى واثاه لأنه يرى شبح اشتراكه فى اغتصاب حقّ ، وأقتراف مائة .

انظروا — وفقنا الله واياكم — الى جور ندفنه ، وعدل ننشره ، ومحمدة نُوليها ، ومأثرة خير نسديها . انظروا الى موقف آخر لهذا الرجل الشريف .

حضر اليه أحد أصحاب القضايا ليرفع قضية على آخر يطالبه فيها ب ٦٠٠ ريال فبعد أن درس أوراقه ، وأنعم النظر فيها ، ووازن بين حقها وباطلها قال له :

« فى مقدورى أن أربح لك قضيتك . وفى مُكنتى أن أحصل لك على ٦٠٠ ريال ، وفى وسعى أن أجعل أسرة هائلة نبيلة تتذوّق بؤس الفاقة ، ولكنى لن آخذ قضيتك ، ولن تتسلم يُمنائى أجرى وتقودك ، وإننى أتقدّم إليك بنصيحة أسديها اليك بلا أجر ولا ثمن ، نصيحتى اليك أن تذهب من فورك الى مأواك ، ولتدبّر فى أنتهاج سبيل آخر يكون شريفاً ونزيهاً عساك تصيب من ورائه ال ٦٠٠ ريال التى ترجوها »

بهذه النصائح الذهبية ، بل الأكثر من ذهبية ، لأنها صدرت من روح قدسية ، ولم تقدّ من منجم قاتم ، ولا من صلب حجر فاحم ، بل من نور وهُدًى ، وورع وُثْقٍ ، وعقل وحجّى — بهذه النصائح الذهبية كان يرشد زبائنه ، وفى هديها كان يحاجّ خصومه . فى سبيل الحق ، ورفعة دعائه عاش لنكولن شريفاً . وفى سبيل الحق ، ورفعة دعائه مات شريفاً

(١٢)

ولست أشك في أنه يحلو لكم كثيراً أن تستزيدوا من قراءة تلك الصحف العَبَقَة الزكية لهذا المحامى النزيه، الذى وقف وقته لخدمة العدالة فى إيمان المحب للعدالة، ووقف حياته للعمل فى إنصاف الناس ييقن الحريص على نصفه الناس. لقد بدأ حياته فى المحاماة شريكاً للمحامى النابه «لوجان»^(١) من أقطاب المحاماة فى «سبرنجفيلد»، فاستفاد من شهرته ونفوذه، بقدر ما استفاد من مرانه وعلمه، كما استفاد من نمو «سبرنجفيلد» وأطراد تقدّمها، بقدر ما استفاد من شهرته السياسية، وذيوع اسمه بين الأهلين — كل ذلك مكّنه من إصابة رذاذ من المال كان له بعض العون فى بنائه من زوجته «مارى»

وقد تسألوننى عن سبب فرط عقد الشركة بينه وبين الأستاذ لوجان^(٢)، فأقول: إن فى العبقرى «لنكولن» صفات شاذة. فهو وإن كان الخطيب المصقع، والمحامى المدّره، والمتكلم القدير، الذى شدّ ما يحتاج اليه «لوجان» بيد أنه لا ينزع الى الترتيب، ولا ينزل على أحكام النظام، فقمطره مهوش، وأوراقه مبعثرة، ومذكراته هنا وهناك، وخطاباته إما فى طي قبعته، أو ملقاة فى مكان آخر «ولوجان» يطلب النظام ويعشقه، وفى العباقرة نفور لما يحد عبقريتهم ويقلم شخصيتهم.

وليس معنى هذا ألاّ تخلدوا الى النظام والترتيب، بل عليكم بالاستمساك بهما اقتصاداً لأوقاتكم، وانتفاعاً بسواع فراغكم، وانما قد أثبتنا لكم خلة من خلال عصاميّكم وهى هنة بلا ريب عوّضاها عليه رأس مرتب، وعقل ذكور، وذهن منظم، حتى قال مؤرخو حياته ما نصه: «لم يكن للنكولن من نظام أو ترتيب، ولم يكن يحتفظ بكتاب أو مكتبة أو فهرس أو دفتر قيد للدخل. وكان من عادته

(١) "Logan" انظر ص ٩٨ من كتاب لنكولن لأميل لدويح طبعة مارس سنة ١٩٣٠

إذا ما كتب مذكرات أن يلقى بها إيمًا في القمطر أو في جيب صداره أو في قبعته . ولكنه كان في أعماقه الرجل المرتب المنظم ، وإن كان لا يحتاج إلى مكتب مرتب ولا إلى مدادٍ أو يراعٍ . ذلك لأن حانوت عمله بداخل رأسه^(١) »

ومن الممتع الطريف أن تتقفوا على رده على زميل له في الحمامة وكان قد عتب عليه عدم رده على كتاب له قال : « كنت منهمكاً جداً في عملي بحكمة الولايات المتحدة أولاً ، وثانياً وضعت خطابكم في قبعتي القديمة ، وكنت قد اشتريت قبعة جديدة في اليوم الثاني فألقيت بالقديمة جانباً فغاب خطابكم عن ناظري برهة من الزمن »

وكان له ظرف يحوى العجب العجائب كالقبعة ، ومن عاداته إذا سئل عن ورقة أو غيرها أن يقول : « ابحثوا عنها هنا وهناك فإذا لم تعثروا عليها فعليكم بالبحث بداخل هذا ! »

تلك خلة إن كانت تغفر للرجل العبقريّ مثل « لنكولن » الذي له من ذهنه الوقاد وقرمحته المفاجئة وعقله الجبار الغنية والظهير ، فإنها لا تغفر من أمثالنا العاديين الذين يجب أن يستفيدوا من أحسن الخلال وأسماها ، وليس من ريب أن لكل زعيم هنة أو هنات تغطيها مواهبه وحسناته ، وتمحوها فواضله وكفائاته ، فعلينا أن نترسمه فيما أحسن وأجاد ، وعلينا أن ننتخب من الصفات الحميدة للزعماء جميعاً مجموعة صالحة لتكون مهمتنا في الحياة صالحة مجيدة .

وما دمنّا في صدد سيرة لنكولن المحامى ، فلزام في عنقنا أن نذكر طرفاً من تاريخ شركته مع « هرندون^(٢) » فقد كانت الثقة المتبادلة ديدنهما ، والولاء وحُسن الأخاء ملازمهما ، وكانا خير نموذج للشركة الصالحة . الشركة المنتجة . الشركة التي

(١) "Herndon" انظر ص ٩٨ - ١٠٠ من كتاب لنكولن تأليف أميل لدوج

(٢) انظر كتاب لنكولن لأميل لدوج طبعة مارس سنة ١٩٣٠ ص ١٠٠

نعمرونعيش . الشركة التي يهنا أصحابها من أفوايقها الثروة المدرار .

كذلك من واجبنا أن نذكر ما كان من ديمقراطية « لنكولن » مع الأهالي والمزارعين حتى لا نبالغ إذا قلنا أنهم يعتبرونه مثلهم وجزءاً منهم أكثر من كونه محامياً له وقته ومكتبه وعمله . فقد كانوا يلجأون إليه في فض النزاع بينهم وحدّ الحدود بين مزارعهم ، وكانوا من فرط ثقّهم به أن من يقوم منهم لديه بعملية رهن عقارى لا يطلب إليه إيصالاً ولا صكا

أجل ! لقد كانوا يعتبرونه مثلهم وجزءاً منهم ، فلا كلفة ولا احتشام ، وكان هو الآخر يتحدث اليهم بالمتع من الأقايص والحكايات ، وما كان ليملّ من إعادة القصة الواحدة مثى وثلاث في اليوم على زائريه العديدين .

وربما جاز لنا أن نعتبره السياسى المفطور ، أكثر من كونه المحامى المأجور ، وإن كان ذا قدرٍ في المحاماة نابهٍ مذكور .

تلك صحف قيّمة ، يجدر بنا أن نستفيد منها صفات قيمة ، من أمانة وإخلاص ، وودّ وإخاء ، وديمقراطية وتواضع . كما يجدر أن نتبين منها فضيلة العيش وسط الأهلين كفرٍ مساوٍ لهم بلا أزورار ولا أستكبار .

(١٣)

أى شبابنا الناهضين :

عليكم بالصدق والجرأة بالحق ، والاستمسك بما يرضى الخلق ويرى الضمير ، ولا تفرطوا في صفات الرجولة قيد أنملة ، ولا تنزلوا عن قويم المبادئ بوعدٍ أو وعيد ، وأحتملوا ما ينالكم به خصومكم وخصوم الأخلاق من أذى بسبب تصلبكم فيما هو حق . وكونوا شجعاناً في الجهر بأرائكم ، كُماة في الذود عن معتقداتكم ، جُرّاء في الذود عن كرامتكم وناموسكم ، وثقوا أن العقبي للصابرين ، وأن النصر للثابتين على أخلاقهم ومبادئهم الى يوم الدين .

والآن فقد بلغ لنكولن الخمسين من عمره حينما اختير في الجمعية التشريعية لولاية (الينوا) بعد أن خذلته صراحته وسذاجته وأمانته في المرة الأولى منذ سنين ، ولكنه لم يغير من صراحته ولا سذاجته ولا أمانته قيد أنملة حينما تقدم اليهم في المرة الثانية . فلا خُلبَ وعود ، ولا بارقاتِ أمانى . ولا ترحزح عن مبادئه القويمة . فكانت النصرة للجوهر واللب ، للأخلاق والمبادئ ، لا للكلام ، ولا سياسة الكلام .

ولست أخفى عليكم أن كثيراً من دهاة السياسة وأصلالها^(١) قد يرون في لنكولن جهوداً وصلابة ، وإن كان مصدرهما المبادئ القويمة ، والأخلاق القوية التي لا تعرف للدهان معنى ، ولا للرياء استساعة . وبعبارة أخرى أن واجب السياسى أن يكون لين القناة ، لدن العود ، موافياً للظرف والحال . ولكنى أحب لكم ولنفسى أن ترفعوا الأوضاع السياسية الى منصة الأخلاق العالية ، وأن تسهموا مع العاملين في تطهير النفوس من أدرانها ، والقلوب من أغلالها ، والأمم من مفسديها ، والشعوب من منافقيها .

ولست أشك أن النجح الوقتى السريع إنما هو لتلك السياسة الزائفة ، وأن لكل ما هو زائف مزور بالطلاء الخُلب ، والغشاء الخاطف لمعاناً خداعاً ، بيد أن النجح السرمدى إنما هو للجوهر الصافى ، والمعين الرائق ، والحق الصراح . فأمّا الزبد فيذهب جفاءً ، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

قد ينجح السياسى الكذوب ، وقد ينبه اسمُ النائب الكثير الوعود ، وقد تلتف حول هذا شيعة وأنصار ، وتؤيد ذلك فئة غير قليلة ، ولكن انكشاف حقيقتيهما قاب قوسين ، وانصراف الناس عنهما لا مندوحة عنه .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

(١) تقول العرب دهم ، وداه ، وداهية ، وصل أصل ، وإد آداد بمعنى

انظروا ، يارعاكم الله ، الى لنكولن النائب وقد أغضب أحد مرشحيه المستر استيفنس^(١) من جورجيا إذ رفض أن يجيبه إلى سؤاله من إعطائه خطاب توصية ليلتحق في عملٍ مصلحيّ وكتب اليه معذراً . وانظروا اليه وهو مستمسك أدق استمساك بدستوره الشخصي ، وهو أن وظائف الدولة يجب أن تكون بمنجاة عن الأهواء الحزبية ، والخلافات السياسية ، وأنها يجب أن تُملأ بالأكفاء من رجال الدولة ، بغض الطرف عن كونهم من شيعة حزبه أو من غيرهم ، لأن الدولة للجميع فيجب أن يسهم في خدمة شئونها الحكومية أفذاذ الرجال من الأحزاب جميعاً .

أى شبابنا الناهضين :

لزام في أعناقكم ، إذا ما أتيح لكم أن تنوبوا عن أمتكم في برلمانها ، أن تكونوا لها دون سواها ، وألا يعلأ سمعكم وبصركم وقلوبكم إلا الولاء لها ، والحرص على منفعتها ، والسهر على مصلحتها . ولتكونوا أبا للجميع ، وعوناً للجميع ، وليكن الصدق دثاركم ، والعدل شعاركم ، والإنصاف لمتكم ، والحق سداًكم ، والاستقلال ديدنكم

أى شبابنا الناهضين :

الدولة برجالاتها ، وسلطان الدولة على كواهل أكفائها ، ومستقبل الدولة رهن أعمال نبغائها ، فاعملوا على أن تكونوا أتم مصدر نعيمها ، وسبب تقدمها . ثم اعملوا على أن تفسحوا المجال الواسع المدى لمواطنيكم الأكفاء . وإيتاكم وقتل الكفريات ، وقبر المواهب الفذة ، التي لن يقتلها شيء إلا ذبوع « المحسوية » وانتشار كوليرا « الوصايات » فاياكم واستخدامها ، أو الاعتماد على شيء سوى جهودهم وأعمالكم وآثاركم .

(١) Mr. Stephens of Georgia. أنظر ص ١١٧ تاريخ لنكولن بقلم لدوج

(١٤)

أى شبابنا الناهضين :

. أتعرفون بماذا كان يعيش صاحبكم فى مرحلته تلك ؟

إنه محام ، ومحام راسخ القدم ، وسيعُ الأطلاع ، نابه الذكر ، ناضجُ الفكر ، فى شدةِ مرأس ، وقوةِ حجة ، يَدَّ أنه من النوع الشريف الذى نبأتم عنه . وليس من ريب أن النجاح كلَّ النجاح فى نهاية تطوافه للمرء الشريف الطوية ، النزيه الطعمة ، القويم السيرة . وثقوا — أبناءنا الأعزاء — أن النوع الخلقى من كل صنف ينبجح لا محالة ، وإن كان نجاحه فى بطء السلحفاة التى تصل الى غايتها ، لا فى رعونة الأرنب الذى لن يصل فى انتقالاته وجيئاته إلا الى نزواته وقفزاته ، ونزغاته وشهواته ، ولذاذاته وسقطاته !

إنه محام ومحام قدير ، ولكنه بسبب أمانته ونزاهته قد أضطر الى أن يعيش عيشة البساطة والكفاف حتى أنه وأمرأته عاشا فى نُزل نظير دفع ١٦ شلناً كلَّ أسبوع ، أى حوالى ثمانين قرشاً . ثم اشتغل مساحاً شريفاً ، فأتقن عمله أيما إتقان فى بضعة أسابيع .

وقد يحلوا للمبادئ الشريفة أن تعترف أن لنكونن عضو الجمعية التشريعية قد اضطر الى اقتراض مبلغ بسيط من المال لشراء كساء يلىق بوكالته عن الأمة . كما يحلو لها أن تذكر أن السرِّ فى تسمية لنكونن^(١) « بآبه الأمين » رَفْضُهُ فى عَفَةِ وإبائه الدفاع عن أية قضية يكون موكله فيها على باطل أو مائتة ، فمضى أيامه الأولى فى المحاماة فى قعر مدقع ، ولكنه عاش العيوف الأتقى ، والشريف الرضى .

أي شبابنا الناهضين :

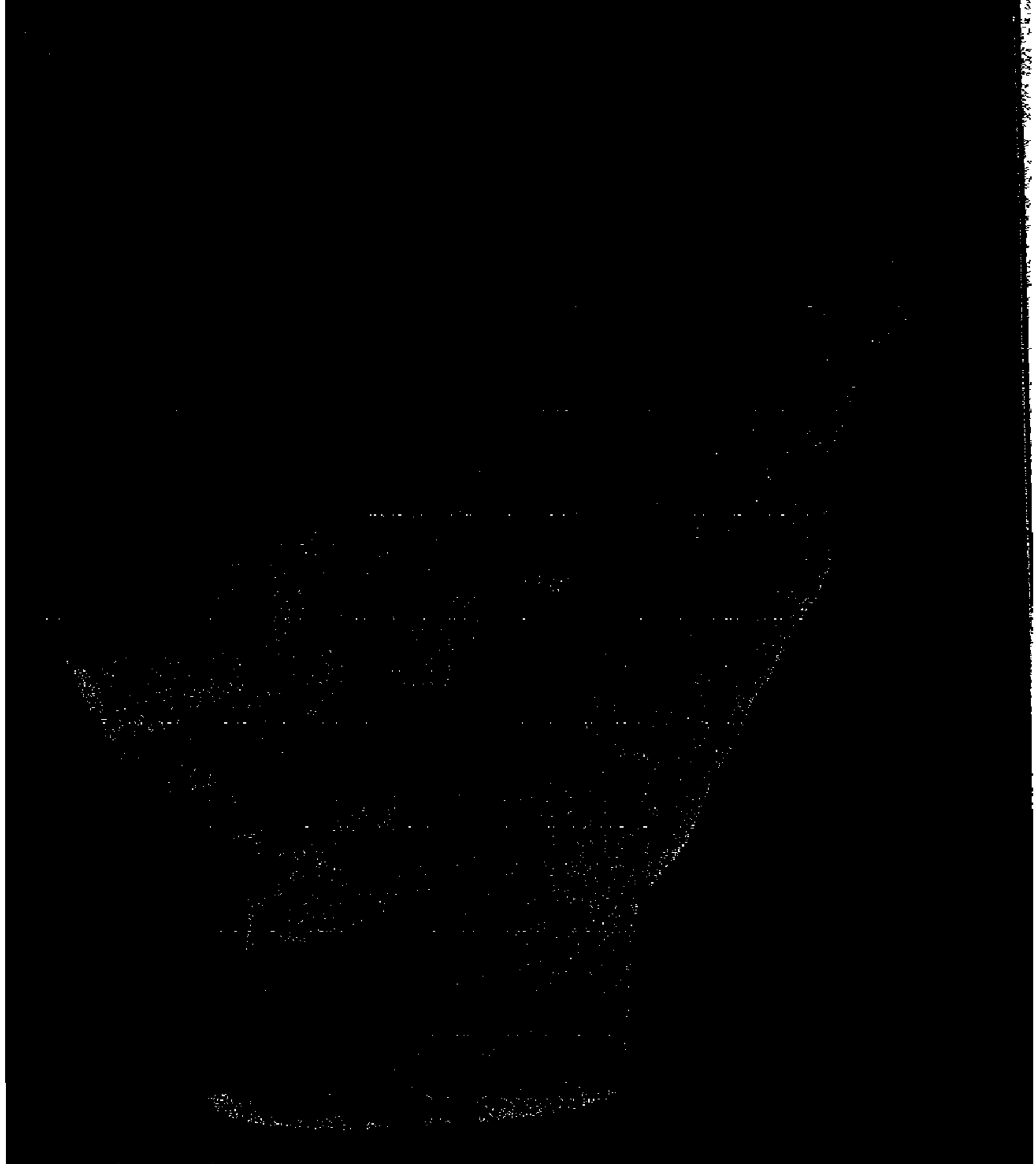
ألا إن حياة الفقر الشريف مع الإباء والنزاهة ، ومع قوة الحق ، ومثانة المبدأ ،
لهي النعيم كل النعيم ، والمستقبل السعيد الرغيد لكم ولذريتكم ، فلا تفتنكم عن
أخلاقكم البوارق الفاتنات ، ولا ترزعنكم عن سواء السبيل أعاصير الشهوات ،
ولا تسلبنكم عقولكم وسمعتكم ونزاهتكم خلب الوعود الطائشة ، فالمال الى فناء ،
والجاه الى فناء ، وسطوة المنصب الى فناء ، ولا بقاء إلا للأحدوثة الحسنة التي هي
الذكرى الثانية للانسان ، فإما حياة وإما موت .

(١٥)

وقد آن لنا أن نتقل الى لنكون رئيس الجمهورية السادس عشر والسابع عشر ،
وأن نلم إمامة عجل في حياته الحافلة بجلال الأعمال ، وعظائم الأمور ، ومفاخر الأيادي
على أنه من الحتم علينا ، كبعض إيفاء للموضوع ، أن نوضح مسألة الرق ،
وأستفحال أمرها منذ أيام العظيم وشنطجن . وتعلموا ، غير معلمين ، أن الدستور
الأمريكي فيه هذا النص ^(١) :

« ثبتت هذه الحقائق لتكون جلية بنفسها ، وتبين أن جميع الناس قد خلِقوا
متساوين ، وقد منحهم بارئهم بضعة حقوق ليس الى تحوّلها عنهم من سبيل . ومن
بين تلك الحقوق : الحياة ، والحرية ، وإنهاج وسائل السعادة . »
يبدأ أن تلك المادة كانت حبراً على ورق ، خصوصاً الولايات المتحدة ، فقد رأت
من خطة لنكون ما أفرعها وأخافها ، وجعلها تبغى سعيًا حثيثًا لإعلان انفصالها .
بل انفصلت فعلاً .

We hold these truths to be Selfevident. That all men are
created equal. That they are endowed by their Creator with certain
unalienable rights that among these life, liberty and the pursuit
of happiness.



قبضة ابراهيم لنكولن

(١٦)

والآن فقد أصبح لنكولن رئيساً للجمهورية ، وكان من منافسيه بل أشد منافسيه وليم سيوارد^(١) الذى كان رئيساً للوزارة ، وكان قد تقدم أثناء الحملة الانتخابية بخطاب عدائى خطته أنامله ، وبعث به الى مزاحمه لنكولن .

فاز لنكولن برئاسة الحكومة فلم يُطلع أحداً على خطاب وليم سيوارد ، بل أستمّر يعمل معه ، لأن المصلحة القومية كانت عند لنكولن رفيعة الذرى ، بعيدة المنال ، بنجوة عن كل نزوة ، أو شهوة ، أو عبث .

وقد اندلعت نيران الحروب الأهلية بين الجنوب والشمال ، بعد أن بذل لنكولن قصارى جهده ألا تكون ، مع رسوخ ايمانه بضرورة الائتلاف لمصلحة الوطن ، وضرورة تحرير الرق لمصلحة الانسان .

ففى قلعة فورت سمتر^(٢) على حدود الولايات الجنوبية — حيث كان « الماجور اندرسون » قائداً من قبل الحكومة الشرعية على تلك القلعة — أطلق الجنوبيون نيرانهم فى ١٢ ابريل سنة ١٨٦١ .

وبعد يومين فقط سلم اندرسون ولكن دأب لنكولن . ونبالة الغاية التى يدافع عنها ، نجم عنه أن عاد عَلمُ البلاد يرفرف عالياً فوق تلك القلعة . بعد أن أذعن الجنوبيون لمطالب لنكولن العادلة : من حيث الائتلاف . ومن حيث تحرير الرق .

جميل أن نقرأ ، وجميل جداً أن نقرأ عن الولاة العادلين ، وأجمل من ذلك أن نُشرب قلوبنا حبَّ العدل فنعمل على نُصْرته ، ونسارع الى تدعيم صروح دولته ، ونقتدى صغيرنا وكبيرنا فيما قلَّ وجلَّ ، بمارسمة لنا أئمة العدل ، وأركان النصفة . وعدول الحكام .

وجميل جداً أن تثبت هنا مثلاً مما كان يجري عليه لنكولن العادل مع خصومه وخصوم حزبه في أيام سلطانه وإبان حكمه . فقد أراد القائد العام في « مسورى » نفي وزير من زعماء الخصوم ، فبعد أن درس لنكولن الموضوع بنفسه ، وقابل الخصم شخصياً كتب الى القائد العام ما معناه : ^(١) « الآن وقد ناقشتُ الرجلَ أبلغك في صراحة أنني أعتقد أنه يعطف على الثوار ويشاطرهم ميولهم . يئد أنه يجب وضع المسألة هكذا : هل يمكن لحكومة تحافظ على سلامتها أن تنفي رجلاً بمجرد الظنة والاشتباه في عواطفه السرية ، ولا سيما رجل لاشك في متانة أخلاقه ، وقد أقسم اليمين ، ولا يمكن اتهمه بالحنث في يمينه ، ولا يمكن اتهمه باقترافه مائة ما »

أى شبابنا الناهضين :

لتذكروا أن لنكولن قد وقف ذلك الموقف المشرف مع سياسى خصم له في ظروف حالكة حرجة ، لأنها كانت ظروف ثورة وحروب ، وتقاتل وتطاحن ، ولكنه مع ذلك أثر العدل والإنصاف ، وتنكب عن الجور والإجحاف . واذكروا اذا ما ذكرتم لنكولن وعدله مواقف الآباء والأجداد . اذكروا ديمقراطية خلفائكم وعدالة خيرة ولائكم . اذكروا أبا بكر والعمرين وأترابهما ، ثم اذكروا نصيحة البصرى لعمر بن العزيز وصفته للإمام العادل قال :

« إن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفرع كل ملهوف — والامام العدل كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويدودها عن مراتع المهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر — والإمام العدل كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صفاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم

(١) أنظر ص ٢١ : في تاريخه لدوج (لنكولن) وقارن بموقفه في Vallandighaw

في حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته ، والامام العدل كالأم الشفيقة البرّة ، الرفيقة بولدها حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، وربّته طفلاً تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارةً وتقطّطه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغنم بشكايته — والإمام العدل وصي اليتامى ، وخازن المساكين ، يُربّي صغيرهم ، ويُمِرّن كبيرهم — والإمام العدل كالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده — والامام العدل هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر الى الله ويُرِيهم ، وينقاد الى الله ويقودهم ، فلا تكن فيما ملكك الله كعبدٍ ائتمنه سيّده واستحفظه ماله وعياله ، فبدّد المال وشرّد العيال فأفقر أهله وفرّق ماله .

« واعلم أن الله أنزل الحدودَ ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف اذا أتاهم من يليها ، وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف اذا قتلهم من يقتص لهم . واذكر الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، قزوّد له ولما بئده من الفرع الأكبر . واعلم أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحبّاءك ، يُسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، قزوّد له ما يصحبك يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه . واذكر اذا بُعِثَ ما في القبور ، وحُصِّل ما في الصدور ، فالأشرار ظاهرة ، والكتاب لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لا يرقبون في مؤمنٍ إلا ولا ذمّة فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بُؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم ، بإذهاب طيباتك في آخرتك ، لا تنظر الى قدرتك اليوم

ولكن انظر الى قدرتك غداً وأنت مأسورٌ في حبائل الموت ، وموقوف بين
يدى الله في تَجَمُّع من الملائكة والنبين والمرسلين وقد عَنَت الوجوه للحى القيوم
انى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغُ بعضتي ما بلغه أولوا النُّهى من قبلي ، فلم آ لك شفقةً
ونصحاً فأنزل كتابي اليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لِمَا يَرْجُو له
في ذلك من العافية والصحة اه . . » .

أى شبابنا الناهضين :

لقد قرأتم الشيء الكثير فى تاريخ الاسلام أيام الخلفاء الراشدين ، ومن تلا
تلوهم من الملوك العادلين ، الذين أشربت قلوبهم معانى الايمان الصحيح ، فأخلصوا
الخدمة لله والوطن وأفراد الوطن ، وكانوا البلمس الناجع للرعية : ما كان من مبادرتهم
الى مواساة الجند فى حَوْمَة الوغى ، والاشتراك فعلاً معهم إسهاماً فى احتمال الأذى
الى جانبهم . لأن الملوك العادلين يجب أن يشاركوا الشعب فى سرّائه وضرّائه ،
وتعمّائه وبأسائه . وقد آن لنا أن نذكر لكم موقفاً مشرفاً « لصاحبكم الكبير »
الذى أراد أن يزور الجند المتحاربة فى مواقع القتال ليتأكد بنفسه من راحتهم ،
وليطمئن قلبه الرءوم الى عدم إغنائهم فى شىء ، وليثبت فى نفوسهم الحمية والحماس ،
وليقرّب ما بينهم وبين ساعة النصر ، وانظروا اليه وهو راكب دابته والى جانبه
ابنه « تود » . ثم انظروا اليه وهو يحادث فى دعاة ومجون ضابطاً من ضباط الجيش
الى أن وصل الى جندي كان قد حكم عليه بالاعدام ، وأنه بسبب سهره ليلتين
كاملتين فى دوره ودور آخر كان متعباً ، فأخذته سِنَّة من النوم ، وكانت عليه
النوبة وقررت القيادة العامة للجيش الحكم عليه بالاعدام ، وكان فى انتظار ساعة
الخلاص من هذه الدنيا والرحيل الى الآخرة ، فاذا برئيس الجمهورية وقد حطَّ
ركابه وأستفسر منه عن أسباب الحكم عليه بعد أن رأى صورة أنه أمام ناظره —

فتحركت لذلك الشفقة والحنان في قلبه الكبير وقال له : أى بنى ، لن نعدم وسأضع ثقتي فيك لأننى باعث بك الى كتبتك وسأضع نفسي في موضع مُعْنِيَةٍ لى ، وأودّ أن أعلم منك ماذا أنت فاعلٌ لسداد دينك هذا .

ظن شابنا أن الرئيس بحاجة الى هدية من المال فأجهد فكره وأعنت ذهنه ، عساه يصيب مالا جزيلاً يتقدم به الى من نجى حياته بعد أن كان من المعدّمين . وصل به مطافُ تفكيره الى أنه في مقدوره بعد أن يبيع ما في حوزته ، وما يقتصد من راتبه في الجيش ، وبعد أن يقترض من هنا وهناك ، وبعد أن يرهن أرضه وعقاره — في مقدوره بعد هذا كله أن يجمع مائة من الجنيهات ، وظن أن في هذا القدر مقنعاً أى مقنع لرضاء رئيس الجمهورية .

فأدلى الى الرئيس بما في مكتبته ، فلم يغضب الرئيس من مكاشفته تلك ، بل قال له : كلا يا ولدى فإن دينى كبير ، وليس في قدرة صحابك ، ولا في وسع راتبك من الجيش ، ولا في مكنة ما تدرّه عليك مزرعتك من مال وربح — ليس في قدرة هذا كله أن يسدّ دينى . وانما هناك شخص واحد هو القادر بمفرده على السداد واسم ذلك الشخص وليم سكوت فاذا ما أخذ وليم سكوت من يومنا هذا في أداء واجباته ، وكان في قدرته يوم مماته أن يقابلنى مواجهة كما يواجهنى الآن ويقول وقتئذٍ :

« هأنذا قد وفيت بوعدى ، وأديت ما في عنقى من واجبي المقدس بصفتى جندياً بذلك يتسدد الدين !! » .

أى شابنا الناهضين :

أليس لزاماً في أعناقكم بعد أن تشبعتم بتلك الروح الطاهرة ، وملكت نفوسكم راءة هذه السيرة الصالحة أن تنصرفوا الى العمل الصالح ، العمل المجدى ، العمل

الصامت الذي لا يملأ الدنيا صخباً ولا ضجيجاً ، وتهتدوا بهدى لنكولن ، فتعملوا على ما يرأب الشمل ويجمع ، ويؤلف بين القلوب فيفيد وينفع . وتوجهوا نفوسكم الى الخير بضم شتاتنا ، وتقوية صلاتنا ، وتدعيم قناتنا ، وقين بكم أن تشمروا عن سواعد الجد ، وأن تدققوا البحث في طب دأنا ، وأن تستقصوا الدرس عن ناجع دوائنا ، وما كان لنا من داء إلا في الفرقة والأختلاف ، وليس لنا — رعاكم الله — من دواء إلا في الوئام والأئتلاف .

أى شبابنا الناهضين :

لتعملوا — رعاكم الله — على ضم الصفوف ، وتطهير النفوس ، ولتقضوا على أسباب الشقاق ، واتخذوا الصراحة بديلاً من النفاق ، واعملوا عملاً صالحاً لتكونوا قدوة للعاملين ، وردءاً وموثلاً لهذا البلد الأمين .

أى شبابنا الناهضين :

أمامكم مثل « لنكولن » فاحتذوه في كل شيء في اخلاصه وبلائه ، في نبه ووفائه ، في جدّه واجتهاده ، في حبه وأمانته ، في حنانه وشجاعته ، في أنفته وعفته ، في رحمته وحسن طويته ، في عدله ونصفته وقدسوا ما للوطن وآل الوطن من حقوق . وأدوا ما في أعناقكم من واجباته . ثم ضموا بأنفسكم وأموالكم وحياتكم في سبيل سلامة الوطن وحرية أبناء الوطن .

أبو بكر الصديق

(١)

قصةٌ ظريفةٌ لا أتذكر تماماً أين قرأتها ، ثم لا أذكر ألفاظها وكلماتها ، كما لا أذكر كاتبها ومؤلفها ، ولكنى أذكر شيئاً واحداً وأذكره جيداً ذلك أننى تأثرت بها ، وكان تأثرى بها عظيماً وبلغاً وعميقاً . . . لأنها كانت ساذجةً والعقول الساذجة تحب ما هو ساذجٌ وتأثر بما هو ساذج . ثم هى تنطبق على الواقع بقدر ما تنطبق على تصوير الحق ، واختلاف للناس فى تصوير الحق . . . والحق نسبى كما تعلمون ، ولا يستطيع العلم مهما كان قوياً وناصباً ، ومهما كان دقيقاً أو كاملاً ، أن يزعم أنه وصل إلى الحق الكامل غير المنقوص ولا المبتور .

قصتى التى رأيت أن أستفتح بها حديثى معكم ، والتى زعمت لكم أنها ظريفة ، وزعمت لكم أنها ساذجة ، ثم زعمت لكم أنها تنطبق على الواقع ، بقدر ما تنطبق على تصوير الحق واختلاف الناس فى تصوير الحق — هى عن عُمَيَّانِ سبعة اجتمعوا بفيل ، فرأى كلٌّ أن يصف الفيل للآخر ، وأعتقد كلٌّ أنه مصيبٌ لبَابِ الحق أوسِذرة الصواب فيما هو واصف ، وفيما هو متكلم . ولماذا لا يعتقد أنه مصيب الحق والصواب ، وهو لا يتكلم إلا بما يحسُّ أنه الحق والصواب لقد وَصَفَ الأولُ الفيلَ بأنه كجذع النخلة لأنه أمسك يده ساقَ الفيل ، وساقُ الفيل يجذع النخلة شبيهةٌ ومثيلةٌ ووصفَ الثانى الفيلَ بأنه كالأفعى لأنه أمسك يده خرطومَ الفيل ووصفه الثالثُ بأنه كالحائط لأن يده وقعت على جُثمَانِهِ وأبى الرابعُ إلا وصفه بالمروحة لأنه عثر على أذنه وأبى الخامس غير السادس

والسادس غير السابع وكلُّ استمسك برأيه ، ودافع عن وصفه . وكلُّ آمن بحقه وكذب بحقِّ غيره

تلك قصة لا تعدوما تقع فيه كلُّ يوم ومن زعم أنه بصيرٌ بكلِّ صحيح ، ثاقب النظر في كلِّ أمر ، وأنه ليس بعرضية لأن يصيبه الباطل ولو « رشاشاً » ولا أقول عن يمينه أو يساره ، فأخشى أن يكون حاله كحال أحد السبعة الكرام .

ولكننا نرجو ، وهذا كل ما نملكه في ميدان العلم ، وفي ميدان كتابة التاريخ ، وقد أصبح فرعاً من العلم ، وفي كتابة التاريخ الإسلامي ، وهو أشقُّ فرع في هذا العلم ، لأنه لم يخضع بعدُ الخضوعَ العلمي الصحيح لم يخضع بعدُ للمشرحة ولم يدع عن بعدُ للتحليل . نرجو — ونحن نوّمن بقصتنا — أن نستوعب وصف السادة السبعة ، ونجمع من وصفهم شيئاً يقرّبنا في مجموعهم مما هو حقٌّ ومما هو صواب أجل ! نرجو أن يكون لنا من أفعال الشيعة وغير الشيعة ، والأموي والعباسي ، والخارجي وغير الخارجي ، ما ينكب بنا عن ضلالة الإيمان مع هذا أو ذاك . كما نرجو أن يكون إيماننا بضرورة البحث عن الحق في شئ نواحيه ، مدعاة للقرب منه ، وإمدداً لتذليل صعابه وإزالة عقابه . ولو نسبياً ولو خطوة واحدة إلى الأمام في سبيل تفهّم هذا التاريخ المجيد العظيم .

(٢)

وليس من جديد عليكم شبابنا الناهضين ، أن تعلموا غير معلّمين ، أن التاريخ النافع المُجدي هو ما كان نافعاً مُجدياً للإنسانية . وللإنسانية عامّة . ذلك لأنكم تعلمون ما كان من جهود المؤرخين المحدثين وأثرها في تطور التاريخ خصوصاً بعد مؤتمر « التربية والتمدن » الذي عقد في تورنتو عام ١٩٢٣ . وفي تطوره إلى وجهته « الإنسانية » العامّة لا « الأممية » الخاصة .

كذلك ليس من جديد عليكم ، أن تعلموا أثرَ ولز في « تبسيط » التاريخ ،
وأثرَ « لدوج » في تجديد التاريخ . . . أمّا تبسيط التاريخ فبأن يكون سهلاً
معقولاً ، وأمّا تجديده فبأن يكون رائعاً أخاذاً

كذلك ليس من جديد عليكم ، أن تعلموا أن صاحبة « الجلالة » المطبعة التي
هي الوالدةُ الشرعيّةُ لصاحبات « الجلالة » إن شئتم ، أو « السمو » إن أحببتم :
الصحافة ، والمكتبة ، والحرية ، والمدنية ، هذه الوالدة الجليلة الشأن ، تَلِدُ فيما
تَلِدُ — أو بعبارة أصحّ وأقرب الى الدقة — تَخْلُقُ فيما تَخْلُقُ نواحي من الإقناع
قويّة . وتترك بالفعل نواحي من العظمة قويّة . ثم تعملُ من وراء ما تقدّم على نشرِ
الإيمان بالعظمة ، وإذاعةِ التخلُّق بأخلاق العظمة ، والإيمان بشي نواحي العظمة ،
لأنها خيرُ منظرٍ مكبرٍ للقليل من صفات العظمة ، فما بالك بكثيرها

وأخيراً ليس من جديد عليكم أن تعلموا أن الرأي العامّ بعد الحروب يندفعُ في
تيارات من المبالغات . ثم يتراجع سريعاً في المناقصات . . . فهو بين مدّ وجَزْر في
المعتقدات والآثار . والحياة معتقدات وآثار .

تلك اعتباراتُ أربعةٌ هي « ماثلة في ذهنكم » بلاريب ، وأنتم تدرسون معي
تاريخَ عصر أبي بكر بروح « الانسانية » العامة ، لا « الأُمّية » الخاصة . تدرسونه
لا باعتباره مصلحاً إسلامياً بل باعتباره مصلحاً إنسانياً . تدرسونه بجدة البساطة
الحديثة التي لا تحفل بتعقيدات الوقائع والحروب . وأنتم تدرسونه غير عازبٍ عن
أفكاركم أن عظمة الماضي كانت عظمة ساذجة لم تُسبغ عليها صاحبةُ الجلالة المطبعةُ
بشيء من نياشينها وأوسمتها ، ولم تنل من زينة الدعاية ، وطلاوة الإذاعة ، وبريق
النشر قوّة البطولة المكتسحة ما أمامها . وتدرسونه معي وأنتم متحصّنون بما تقدّم
من الاعتبارات ، غير ناسين بالطبع الاعتصام من تيارات المبالغات والمناقصات

(٣)

« جيوفاني پاينى » عقلية إيطالية ماردة . ذهبت في الشهوات مذهباً حاداً ينطبق كثيراً عليها قول الحريرى : « أيها السادر في غلوائه ، السادل ثوب خيلائه ، الجامع في جهالاته ، الجانح الى خز عبلاته . . . » ولكن هذه الشخصية الماردة في شهواتها ، وكفرياتها ، وفلسفياتها ، ونظرياتها ، وزندقتها ، وتألهها ، إنقلبت بعد بوقتات المحن ، ومصاهر التجارب الى شخصية ورعة ممعنة في الورع . شخصية مثقفة تقيّة متبتلة ينطبق عليها في مرحلتها الأخيرة وصف عدى بن حاتم في أحد معاصري أبى بكر : « يقول عدلاً ويحكم فصلاً ، تتفجر الحكمة من جوانبه ، والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير الدمة ، طويل الفكرة ، يحاسب نفسه اذا خلا ، ويقلب كفيه على ماضى ، وكان . . . وكان . . . وأقسم لقد رأيته ليلة ، وقد مثل في محرابه ، وأرخى الليل سرباله . . . يبكى بكاء الحزين ، فكأننى الآن أسمعه وهو يقول : يا دنيا إلى تعرضت أم إلى أقبلت ، غررى غيرى لاحان حينك ، قد طلقك ثلاثاً لارجعة فيها . . . »

وإذا كان « جيوفاني پاينى » أصبح خيراً من كتب عن المسيح بعد حياة كفر وزندقة ، وأصبح الورع المؤمن بعد حياة شهوة وأستهتار . . . فالأئم كالأفراد كفر فإيمان ، وإذا كان « نابليون بونابرت » واعظاً في أوليات أيامه لأخيه يوسف . وكان زاهداً في كل شىء قبل جوزفين وبولين فإنه انقلب فجأة إلى ما انقلب إليه من تقيض إلى تقيض كذلك الحال في الكثير من العرب بعد إيمانهم وبعد متربتهم وعوزهم ، وبعد يابهم^(١) إلى تحضيرهم ، وبعد خيامهم إلى آطامهم . . .

ولكنكم ستقولون إنَّ الفكرة أو العقيدة هي التي تفعل هذا كله . وهي إلى أن « تتركز » تمرُّ بتلك التيارات . وأنتم محقون بلا شك . وحروبُ الرِّدة تجزم بأنكم مُحقون بلا شك . وحروبُ الرِّدة كانت بوثقة لتجديد الإسلام ، وكانت مَصْهراً لخلق العرب خلقاً جديداً

(٤)

يقول كارليل في كتابه القيم « الأبطال وعبادة البطولة » في معرض كلامه عن البطل في صورة نبي : « هل رأيتم — قط — مَعشَرَ الإخوان — أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يُوجدَ ديناً ، عجياً والله ! إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب . . . ! فهو إن لم يكن عالماً بخصائص الجير والجبس والتراب ، وما شا كل ذلك ، فما الذي يبنيه بيت ، وإنما هو تلُّ من الأتقاض ، وكثبٌ من أخلاط المواد . . . » إلى أن يقول : « . . . ! ما الرسالة التي أداها إلا حقٌّ صُراخٌ ، وما كلمته إلا صوتٌ صادقٌ صادرٌ من العالم المجهول . . . ! كلا ! ما محمدٌ بالكاذب ، ولا الملقِّ ، وإنما هو قطعةٌ من الحياة ، قد تَطَرَّ عنها قلبُ الطبيعة . . . فاذا هي شهابٌ قد أضاء العالمَ أجمع »

ولستُ أدري رجال المستقبل ، هل كان كاتبُ الإنسانية « كارليل » قد أطلعَ على كلِّ جزئيات حياة بطله « محمد » ؟ هل كان قد أطلعَ على كلِّ ما ناله من أذى وتشريد ؟ هل كان قد أطلعَ على فقره يافعاً وصغيراً ، وزُهدِه شيخاً وكبيراً ، وحِكْمته وسَدَّاده مُبَشِّراً ونذيراً ؟ هل كان قد أطلعَ على ما كان بينه وبين عُتبة ابن ربيعة حينما قال له : « إنك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم ، فرقتَ به جمعهم ، وسفَّيتَ به أحلامهم ، وعَبَّثتَ به بألهمهم ودينهم ، وكفَّرتَ به مَنْ مَضَى من آبائهم ، فأسمعْ مني أموراً لعلك تقبلُ منها بعضها » فقال له رسول الله : قل

يا أبا الوليد . قال : « إن أردت بالذي فعلت مالا جمعناه لك ، أو شرفاً سوّدناك علينا . فلا تقطع أمراً دونك ، وإن كان يأتيك رئيٌّ تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » . قال : « أفرغت يا أبا الوليد » قال : نعم ، فأسمعه آيات من سورة السجدة^(١) وسجد . فقام عتبة إلى أصحابه بغير الوجه الذي ذهب به ، فقالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعتُ قولاً ما هو بالشعر ولا السّحر ولا الكهانة أطيعوني يا معشر قريش ، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ . قالوا : « سحرَك يا أبا الوليد ؟ » قال : لنجمع أشراف كل قبيلة عند ظهر الكعبة ، ونبعث إليه ، ففعلوا ، فجاءهم حتى جلس إليهم ، فقالوا : إنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه الذي أدخلت ، إلى آخر ما قاله عتبة . . فقال : ما بي ما تقولون . « ما جئتُ بما جئت ، لأطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن بعثني الله إليكم رسولاً ، وأنزل على كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربّي ، ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم »

(١) والآيات التي قرأها عليه صلى الله عليه وسلم من سورة السجدة (فصلت) هي قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرأنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوننا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل أنا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنا الحكم اله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه ، وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » حتى بلغ إلى قوله تعالى :

« فان أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون » [راجع روح المعاني في تفسير القرآن ج ٧ ص ٤٧٠ — ٤٨٣]

أجل ! لست أدري شيئاً من هذا ، ولكنتى أجزم بأن « كارليل » على حق أن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب . وأن الرسالة التى أداها محمدٌ حقٌ صُراحٌ ، وأنه قطعةٌ من الحياة تَقَطَّرُ عنها قلبُ الطبيعة . ! ثم أجزم لكم أن القاضى عياضاً وشرّاح القاضى عياضٍ « وميور » و « أميل درمنن » وعشرات الرواة والمؤلفين كانوا على حقٍ فى تغنيهم بصفات رسول الإسلام ، وباعتِ دولة الإسلام . كما أجزم لكم أن من يقول : « السعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيره ، والشقيُّ مَنْ وُعِظَ بنفسه » ويقول : اغتَمَّ خمساً قبل خمس : شَبَابَكَ قبل هَرَمِكَ ، وصِحَّتَكَ قبل سَقَمِكَ ، وغِنَاكَ قبل فَقْرِكَ ، وفرَاغَكَ قبل شُغْلِكَ ، وحياتَكَ قبل موتِكَ » ويقول : « طوبى لمن شَغَلَهُ عِيبُهُ عن الناس ، وطوبى لمن أنْفَقَ من مال اكتسبه فى غير مَعْصِيَةٍ » ويقول : « ضَعِ المعروف إلى من هو أهله ، ولمن ليس أهله . . . » أجزم أن من يقول ذلك ثم من كان من صفاته التى هى على غِرَارٍ واحدٍ ، وطِرَازٍ واحدٍ ، ومن مَعْدَنٍ واحدٍ أنه كان « سهلَ الخلقِ ، لَيِّنَ الجانبِ ، دائمَ الفكرة ، متواصلَ الأحزان ، طويلَ السكوت ، لا يتكلم فى غير حاجة . يَحْزَنُ لسانه إلا فيما يَعْنِيهِ ، كلامه فَصْلٌ لا تَزُرُّ ولا هَذَرٌ . لا يذمُّ أحداً ولا يعيبه ، ولا يطلب عَوْرَتَهُ ، ولا يتكلم إلا فيما رُجِيَ ثوابه ، مجلسه مجلسُ حلم وحياة وأمانة وصبر . نظره إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء ، تنام عيناه ولا ينام قلبه . يتفقّد أصحاباً ويسأل الناس عما فى الناس ، ويُحَسِّنُ الحَسَنَ ويقوِّيه ، ويقبِّحُ القبيحَ ويُوْهِيه ، أفضلُ الناس عنده أعمهم نصيحةً ، وأعظمُ الناس عنده منزلةً أحسنهم مواساةً ومؤازرةً ، يُرْفِدُ صاحبَ الحاجة ، لا يقصِّر عن الحقِّ ولا يجاوزه . يزور ضعفاء المسلمين ويعود مرضاهم ويشهد جنازتهم . . يمرّ بالصبيان فيسلم عليهم . وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث

ينتهي به المجلس « ثم أجزم أن من تكون هذه بعض صفاته — لأفضلي حسناته — لا بد أن يكون عظيماً في أثره ، صادقاً في رسالته ، مثقفاً لأُمته . ولا بد أن يكون عصره وعصرُ خلفائه عصرَ نور وعرفان ، وهُدًى وإيمان

وكيف لا يكون عصره وعصرُ خلفائه عصرَ نورٍ وعِرفانٍ ، وهُدًى وإيمان ، وقد تأدب القوم فيه بأدب القرآن . وليس من قصدنا أن نتحدث إليكم الآن عن إعجاز القرآن ، وقد قرأتم ما كتبه الأوائل والأواخر كالزمخشري والرازي والجرجاني والرماني والواسطي والعسكري وابن رُشد والباقلاني والرافعي وغيرهم

أجل ! تأدب القوم بأدب القرآن ، وتمشّت في عُروقهم رُوحُ الإيمان . حتى رأينا النساء كالرجال في التضحية ، في سبيل الله وسبيل الوطن ، ولعلكم قد قرأتم في السّير ما كان من صفية بنت عبد المطلب ، وقد شهدت بعينها تشيّل المشركين في واقعة أُحدٍ بسيدنا حمزة عمّ النّبيّ ، وكانت هند وصاحباتها قد جدّعنّه ، وَبَقَرْنَ عن كبده ولا كتها ولم تسفها ، فلما رأى النّبيّ ذلك في حمزة ، وأقبلت أخته صفية أشار عليه الصلاة والسلام على ابنها الزبير ليردّها حتى لا ترى ما حلّ بأخيها ، فلقبها وأعلمها . فقالت ، وهي الكسيرة القلب ، الدامية الفؤاد ، ولكنها المترعة الإيمان ، القويّة العقيدة ، الخالصة الإخلاص كله : « بلغني أنه مُثّل بأخي ، وذلك في الله قليل ، فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبنّ ولأصبرنّ ! »

تأدّب القوم بأدب القرآن ، وأدب نبيّ القرآن ، ولعلكم تذكرون ما كان من قوم عطشوا من جند المسلمين في تلك الأيام ، يجودون بأرواحهم في سبيل الله وسبيل الوطن قد طلب أحدُهم ماءً فأتى بالماء وإذ بالثاني قد طلب الماء وإذ بالثالث قد طلب الماء . وإذ بغيرهم قد طلب الماء فأثر كلُّ أخاه على نفسه واستقبل الموت في سبيل إنسانيته وبرّه وإيثاره !

تأدب القوم بأدب القرآن ، وأدب نبي القرآن ، فلماذا لا يفوز الحق على الباطل ؟
ولماذا لا يفوز المبدأ على الشهوة ؟ ولماذا لا يفوز جندٌ قليلٌ على جندٍ كثيرٍ ، ثم لماذا
لا ننظر من كل قائد من قواد العرب في تلك الأيام أن يصيح في جُنده قائلاً مقالة
عبد الله بن رَوَاحَةَ : « أنتم إنما خرجتم تطلبون الشهادة ، وما تقاتل الناسَ بعددٍ
ولا قوَّةٍ إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ! »

يقول توماس كارليل : « إن عرب الجاهلية أمةٌ كريمةٌ تسكن بلاداً كريمةً ،
وكأنما خلق الله البلادَ وأهلها على تمام وفاق ، فكان ثمة شَبَهٌ قريبٌ بين وعورةِ جبالها
ووعورة أخلاقهم ، وبين جَفَاءٍ منظرها وجَفَاءٍ طِبَاعِهِمْ ، وكأنَّه يَبْسُطُ من قسوةِ
قلوبهم مزاجاً من اللين والدمائة ، كما كان يَبْسُطُ من عبوس وجوه البلاد رياضاً
خضراء ، وقيعاً ذات أمواه وأكلاء » وإن كارليل لو وقف على إعجاز القرآن بقدر
ما تفهَّم أسرار عبقرية محمد لكان يُسَمِّئنا الكثير المطرب من شَجَبِيَّ كلامه وعَذْبِ
مشوره عن مبلغ تطوُّر الخلق العربي تطوراً إلى خير الانسانية في عصرنا الذي نتكلم
عنه ، ذلك العصر الذي كان من أولى مميزاته الإيمان العميق والإخلاص العميق ،
ولا غَرْوَ فإن محمداً وصحابة محمد كانوا على إيمان وإخلاص ، والإخلاص كما يقول
كارليل عن البطل في صورة نبي : « هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان »
إذن فليس بغريب أن نشاهد من أبي بكر وصحابة أبي بكر قيامهم جميعاً قومةً
رجل واحد ، بدافع الإيمان والإخلاص ، لحرب الردّة ، ولبسط سلطان الإسلام ،
لا للقتال والسُّجَالِ ، ولا للجاه أو الفتح أو طلب المال ، وإنما في سبيل الإيمان ،
وفي سبيل رفعه الأوطان ، وفي سبيل تحرير بني الإنسان .

(٦)

ولكنكم تطالبونني الآن بالتحدث اليكم في الردّة من حيث كونها بوتقة صُهر

بها الإسلامُ وخرج منها قوياً مُذاعاً ، ونال من بعدها نجاحاً مؤزراً . وأنتم تعلمون أن الردّة في جملتها امتناعُ فريق من العرب كبيرٍ عن أداء فريضة الزكاة باعتبارها نوعاً من الأتاوة ، وفاتهم أنها نوعٌ من المعونة والرحمة والعطف من غنيّهم لفقيرهم ومن قويّهم لضعيفهم . وتعلمون أن تيار الردّة كان قوياً وجباراً في قوّته حتى كاد يكتسحُ الإسلامَ اكتساحاً ، لولا أنه دينُ الله ولولا أن نهّدَ للمرتدين مثلُ أبي بكر فرماهم بشُجّان العرب وفُرسان الهزاهز وأبطال المواقع . أمثال خالد بن الوليد وعكرمة^(١) بن أبي جهل . وشُرَحْبِيل^(٢) بن حسنة ، والمهاجر بن^(٣) أبي أمية ، وحذيفة^(٤) بن محسن ، وعرفجة^(٥) بن هرثمة ، وسويد^(٦) بن مقرن ، والعلاء^(٧) ابن الحضرميّ ، وطريف^(٨) بن حازم ، وعمرو بن العاص ، وخالد^(٩) بن سعيد والمئات من أمثالهم وفي بسالتهم .

تعلمون هذا وتعلمون من الطبرى وغير الطبرى النصوص^(١٠) التى كتبها أبو بكر

- (١) هو عكرمة بن أبي جهل أسلم بعد الفتح وقتل يوم اليرموك في خلافة أبي بكر رضى الله عنه مجاهداً وكان على رأس الجيش الذى أرسله أبو بكر الى مسيلة باليمامة (انظر ص ١١٣ كتاب المعارف لابن قتيبة طبع مصر) (٢) هو شرميل بن حسنة منسوب الى أمه مات بالشام في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن أربع وستين سنة وهو ممن دخل مصر من الصحابة . وكان على رأس الجيش الذى وجهه أبو بكر الى الأردن . (انظر ص ١١٠ كتاب المعارف لابن قتيبة) (٣) أرسله أبو بكر الى جنود العنسى وهم قوم من الفرس سكنوا اليمن . (٤) أرسله أبو بكر الى أهل دبا (٥) أرسله أبو بكر الى أهل مهرة (٦) أرسله أبو بكر الى تهامة اليمن (٧) العلاء بن الحضرمي كان حليفاً لبني أمية وأخوه ميمون ابن الحضرمي صاحب بئر ميمون التى بأبطح مكة وكان حفرها في الجاهلية والعلاء هو الذى عبر الى أهل دارين البحر على فرسه فقاتلهم فقتلهم وسبي الذراري وافتتح أسافا من فارس وتوفي في خلافة عمر بنيتاس من أرض تميم . (انظر ص ٩٥ كتاب المعارف لابن قتيبة) (٨) أرسله أبو بكر الى بنم سليم وهو ازن (٩) هو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية استخدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات بني زيد فصارت اليه الصمصامة سيف عمرو بن معديكرب فلم يزل عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه المهدي بعشرين ألف درهم وقتل خالد يوم اليرموك وكان على رأس الجيش الذى وجهه أبو بكر الى مشارف الشام (انظر ص ١٠٠ كتاب المعارف لابن قتيبة) (١٠) ومن هذه النصوص ما كتبه الى قواده :

« اذا سرت فلا تغنف على أصحابك في السير ولا تغضب قومك وشاورهم في الأمر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فانه ما أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم واذا نصرتهم على عدوكم فلا تقتلوا ولا تخذلوا ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا تقرّبوا نخلاً ولا تحرقوا زرعاً ولا تقطعوا شجراً مشراً ولا تغدروا اذا

لأمير كل بعث ولجماعة المرتدين في كل قطر ، وقد هالككم طبعاً أن نيران الفتنة قد التهمت في كل صقع من بلاد العرب ، وهالككم طبعاً أنه الى جانب هذا الارتداد الجزئي ارتدادٌ أوسع نطاقاً وأبلغ خطراً هو ادعاء النبوة عند الكثيرين ممن يصح أن أتحدث في أمرهم معكم تفكهاً ودُعابةً . يبد أننى الآن أريد أن أتحدث اليكم في شيء جزئي أيضاً ولكن له معناه ، وله فلسفته ، وله درسه ، وله تهذيبه ، ذلك الشيء هو إنقاذ أبى بكر الصديق لجيش أسامة بن زيد ، وأعتقد أنكم ستوافقونى بعد وقوفنا على ذلك الشيء الجزئي فنؤمن معاً بضرورة نجاح أصحاب هذه الدعوة الإسلامية ، لما لهم من ميزات خلقية من عزيمة حذاء ، وهمّة شماء ، وإرادة ومضاء .

أجل سأحدثكم عن أسامة وبطولته ، وهو لم يزل بعد في طراوة إهابه ، وعنفوان شبابه . وهو جدير بعجابكم ، وتقديركم لأنكم مُعْجَبُونَ مثلاً بنا بليون وأثرابه وهو لم يزل بعد كأسامة في طراوة إهابه وعنفوان شبابه ، ولكننى أعلم حبكم للنصوص التاريخية لذلك العصر الذى لم يتشبع بعد بالرياء السياسى لأن رسميات ذلك العصر وما هو شبيهه بالرسميات مما يقع من قلوبكم الكبيرة موقع التقدير والإجلال فقد كان عصر صدق ونزاهة ، ووفاء وأمانة ، ونبالة وطهارة . كان عصرأ بريئاً من أوضار النفوس وأرجاس الشهوات ، ولست فى حاجة أن أذكركم أن نية رسول الله كانت منصرفة الى أن يبعث بأسامة وجيش أسامة لتأديب بعض العصاة والخارجين ،

عاهدتم ولا تنقضوا اذا صالحتم وستمرون على قوم فى الصوامع رهبان ترهبوا الله فدعوم وما اقردوا له وارفضوه لأنفسهم فلا تهدموا صوامعهم ولا تفلوهم والسلام «
وقال أيضاً ينصح بعض رؤساء الجند :

« عليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك مثل الذى يرى من ظاهرك واذا قدمت على جند فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدم اياه واذا وعظمتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً وأصلح لنفسك يصلح لك الناس واذا استشرت فأصدق الحديث تصدق المشورة وجالس أهل الصدق والوفاء . »

ولستُ في حاجة لأن أقول لكم : إن المنية قد عاجلت الرسول دون إنقاذ هذه البعثة ، وإن ارتداد المسلمين والذهول الذي استولى على المؤمنين بوفاة نبيهم لم يحولا بعدُ مما ستحدثكم به النصوصُ والرسميات ، والمصادرُ الشبيهة بالرسميات .

يحدثنا الطبري عن مشيخته عن عاصم بن عدى : أنه قد نادى منادى أبي بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتم بعث أسامة : الأيقين بالمدينة أحدٌ من جند أسامة إلا خرج ويحدثنا بأن أبا بكر قد خطب هذا الجند بما تجدونه في غير هذا الموضع . ثم يحدثنا الطبري بأن الحسن بن أبي الحسن البصري قد قال ما نصه : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بعثًا على أهل المدينة ومن حولهم وفيهم عمر بن الخطاب وأمر عليهم أسامة بن زيد ، فلم يجاوز بهم آخر الخندق حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر : ارجع إلى خليفة رسول الله فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس ، فإن معي وجوه الناس وحدهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله ، وثقل رسول الله ، وأثقال المسلمين أن يخطفهم المشركون ! فخرج عمر بأمر أسامة ، وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة . فقال أبو بكر : لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإن الأنصار أمروني أن أبلغك وأنهم يطلبون إليك أن تؤلى أمرهم رجلاً أقدم سنًا من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالسًا ، فأخذ بلحية عمر فقال له : ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه ! فخرج عمر إلى الناس فقالوا : ما صنعت؟ فقال : امضوا ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله ! ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وشيعهم وهو ماشٍ ، وأسامة راكبٌ ، وعبد الرحمن ابن عوف يقود دابة أبي بكر ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، والله لتركنَّ أو

لأنزلن ، فقال : والله لا تنزل ووالله لا أركب ، وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ، ان للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تُكتب له ، وسبعمائة درجة تُرفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة ، حتى إذا انتهى قال : ان رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فأذن له ثم قال : «يا أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدّمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقّون أقواماً قد فحسوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خففاً ، اندفعوا باسم الله . » اهـ

وإنكم بلا ريب ستُلفتون نظري إلى قوة إرادة أبي بكر المثلة في قوله : « لو خطفتي الكلاب والذئاب لم أردّ قضاءً قضى به رسول الله » ، وستشيرون إلى بما في تصميم أبي بكر على إمرة أسامة من احترام إرادة الرسول ، وستذكرونني بأدبه في مشيته ، وإيمانه في خطوته ، وأدبه مع قاداته ، ستلفتون نظري إلى ذلك كله مما يجب على أن أذكره وأتدبره ، وأما أنا فأرى في عُنتي بعد أن فهمت ما ترمون إليه من تبيان رسوخ أبي بكر واستعصاره للخطب ، وتقديره للكفايات ، واحترامه ، لحقوق الأمير وهو الخليفة دونه استئذانه في النزول له عن أحد رجاله عمر بن الخطاب أما أنا فأرى من قبلي أن ألفت أنظاركم ، ولا سيما أيامنا هذه وجيلنا الراهن وحروبنا الحاضرة إلى ما تضمنته وصيته لجنده من ضروب الإنسانية وآداب المقاتلة .

أليس كذلك ؟

ولكنكم تريدون أن تحدثوني عن الرّدة وما فيها من حروب ووقائع انتهت بتوطيد الإسلام، وتطهير الإسلام، في تلك البوتقة الحامية الضرام . وأما أنا فأريد من ناحيتي أن أحدثكم عن الوجه الثاني من الرّدة، وجه البطولة الكاذب في التّنبئ الكاذب .

(٧)

الزّغيا الكذبة

أفهمُ جيّدًا أن المجال لا يسمح بالتحدّث عنهم جميعًا من مُسَيِّمة^(١) بن حبيب وعَبْهَلَة^(٢) بن كعب المعروف بالأسود العنسيّ وطَلِيحَة^(٣) بن خُوَيْلِد الأسديّ

(١) هو مسبله بن حبيب من حنيفة بن لجم وبكنى أبا ثمامة وكان صاحب نيرنجات وهو أول من أدخل البيضة في قرورة وأول من وصل جناح المفصوص من الطير فاتبعه على ذلك خلق ثم أرسل أبو بكر خالدًا بجيش فقاتله وهزمه ومن معه وقتله .

وقال بعض شعراء بني حنيفة يرثيه :

لهفي عليك أبا ثمامة لهفي على ركني شهامة
كم آية لك فيهم كالشمس تطلع من غمامة

(انظر ص ١٣٩ كتاب المعارف لابن قتيبة)

(٢) الأسود العنسي هو عبهله بن كعب سبي بمطعمه وادعى النبوة وكتبه أهل نجران وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص وسلموها الى الأسود ثم ملك صنعاء وصفا له ملك اليمن واسنفحل أمره فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بعث رسولا الى الأبار وأمرهم أن يخذلوا الأسود إما غيلة أو مصادمة وأن يستجدوا رجالا من حمير وهدان وكان الأسود قد تغير على قيس بن عبد يغوث فاجتمع به جماعة ممن كاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم وتحدّثوا في قتل الأسود فوافقهم واجتمعوا بامرأة الأسود وكان قد قتل أباهما فقالت : والله انه لأبغض الناس اليّ ولكن الحرس يحيطون بفصره فانقبوا البيت فواعدوها على ذلك وتقبوا البيت ودخل عليه شخص اسمه « فيروز الديلمي » فقتل الأسود واحتز رأسه فثار خوار الثور فابتدر الحرس فقالت زوجته : هذا النبي يوحى اليه فلما طلع الفجر أمروا المؤذن فقال أشهد أن محمدا رسول الله وأن عبهله كذاب وكذب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فورد الخبر من السماء الى النبي وأعلم أصحابه بقتل الأسود ووصل الكتاب فقتل الأسود في خلافة أبي بكر كما قال صلى الله عليه وسلم وقتل الأسود قبل وفاته صلى الله عليه وسلم يوم ليلة . وأول خروجه الى أن قتل أربعة أشهر .

(انظر كتاب تاريخ ابن الوردي ص ١٤٠ ج ١)

(٣) هو طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خزيمه وكان قد تنبأ في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكرّث جمعه ومات النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك فتبعه كثير من العرب عصبية ولما قصد

وسَجَّاح^(١) بنت الحارث بن سُوَيْد التميمية وغير هؤلاء من مرتزة الرسالة وصناع النبوة أفهم هذا ولكنني أفهم أن وجه ثبات الإيمان، ووجه إعجاز القرآن، ووجه نجاح رسالة نبيِّ عدنان، إنما كان في ظهور هؤلاء وإنما كان في تزييف هؤلاء وفشل هؤلاء . ولعلكم تذكرون خلاصة ما قرأتموه في شبابكم في المظان التاريخية العربية عن رَغْوَة هؤلاء وزَبَد هؤلاء، وأنها كانت إلى زوال وعَفَاء، وأنها ذهبت جُفَاءً وكتبَ لها الفناء .

ولعلكم تذكرون من قرآن سَجَّاح قولها : « أعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب »

ثم لعلكم تذكرون من قرآن مسيلمة « والمُنذراتِ زَرَعًا ، والحاصِياتِ حَصْدًا والذارياتِ قَمَحًا ، والطاحِيناتِ طَحْنًا ، والعاجِيناتِ عَجْنًا ، والخابِزاتِ خَبَزًا ، والشارِذاتِ ثَرْدًا ، واللاقياتِ لِقَاءً ، إِهْالَةً وَسَمْنًا ، لقد فضلتُم على أهلِ الوَبَرِ ، وما سبقتكم أهلُ المَدَرِ ، ريفكم فأمنعوه ، والمعثرَ فأووه ، والباغِيَ فناوئوه » ثم قوله : « الفيلُ ما الفيلُ وما الفيلُ ، وما أدراك ما الفيلُ ، له ذَنَبٌ وِيلٌ ، وخُرْطُومٌ طَوِيلٌ »

مهاجرة المدينة أمدت أتباعه من أسد وعطمان وطى بأخيه حبال فافترقوا فرقتين ثم أوفدوا وفدًا إلى أبي بكر يذنون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أبو بكر ذلك وجرى من أمرهم وأمر المسلمين ما هو مدون في المطبوع وغيره ولما سار أمراء المسلمين بالجيش قصد خالد بن الوليد طليحة فهزمه وفرق جمعه

ولما تفرق هذا الجمع أقبل فلا هم إلى امرأة اسمها أم زمل سلمى بنت مالك بن حذافة بن بدر ولما اجتمع إليها هذا الفل أمرتهم بالقتال فجاءها خالد فقل جمعها وقتلها .

(أنظر كتاب أشهر مشاهير الإسلام لرفيق بك العظم مجلد أول ص ٣٤)

(١) هي سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ادعت النبوة واتبعها بنو تميم وأخوالها من تغلب وغيرهم من بني ربيعة وقصدت مسيلمة ولما وصلت إليه أرادت الاجتماع به فقال لها أبعدي أصحابك ففعلت فضرب لها قبة مبغرة فقالت له : ماذا أوحى إليك ؟ وقال لها ماذا أوحى إليك فكل منهما أبدى منطقاً ركيكاً سمجاً لا يصح ذكره وأقامت عنده ثلاثاً ثم انصرفت ولم تنزل في أخوالها من تغلب حتى تقام معاوية عام بوير

ثم لعلكم قرأتم في حيوان الجاحظ عند كلامه في الضفدع قوله : « ولا أدري ما هيّج مسيامة على ذكرها ولم ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تُكدرين ، ولا الشارب تمنعين . . »

ثم لعلكم إلى جانب هذا كله تذكرون قول مسيامة لسجاح « وهل آكلُ بقوى وقومك العرب ؟ قالت نعم » ، فتزوجها وأقامت معه أياماً ثلاثة ثم أفلتت راجعةً إلى قومها ، لا من رسالتها ، ولا من جهادها ، ولا من بلائها ، بل من زواجها إن كان الزواج جهاداً ، ومن بنائها إن كان البناء بلاءً ؛ فسأل قومها نبيّتهم ذات المعجزات والآيات عن وحيها الجديد ، وزوجها الجديد ، فقالت : إني وجدته على الحق فاتبعته وتزوجني ! فما ثارت لهم ثائرة ، ولا نفرت بهم نافرة ، ولا تولّتهم الخزيّة الخافرة ، وإنما الذي هالهم وأزعجهم ، والذي أسهدهم وأبكتهم أنها تزوجت من غير صداق ، فردّوها إليه لأنه قبيح بمن كافى في مكاتها من النبوة ومرتبها من الرسالة أن تزوج بلا صداق ، سأله الصداق فدعا مؤذّنها شبت بن ربّعي الرياحي فأمره أن يؤذّن في الناس : « إنه حطّ عن الناس صلاتين مما أتى به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر ! »

ثم لعلكم تذكرون إلى جانب هذا ، اجتثات أصول هؤلاء ، ولكنكم لا تزالون تذكرون معي في حسرة وأسى ما نجمَ عن أمثال هذه العبقريّة المموّهة العرّجاء ، والبطولة الزائفة اللّكّماء ، وهذه الأضلولة الخاطئة العشوّاء : من بدع بالغات ، وأحاديث هي في نظركم ونظرنا من الكاذبات ، ولعلكم إن كنتم لا تزالون تذكرون قولنا لكم في تيارات المبالغات والمناقصات ، أن تذكروا هنا أمثال تلك الأحاديث الشرّهة المترّعة بها كتبُ الأدب والسّير أمثال ما لصقوه

به من الأقوال عن الفواكه ، وما إلى الفواكه من الحلوى وغيرها وأن تقارنوها بما كان يكرهه صحابة هذا العصر من الالتجاء إلى الأحاديث ورواية الأحاديث إلا فى أمر حازب ، وموقف حاسم ، وعِظَةٌ بالغة ثم تقارنوها بما كان عليه القوم من تقشّف فى كل شيء من ملبسٍ ومأكلٍ ومشربٍ ، ولكن النبوة التى من « الماس الكاذب » لها بريقها وسرّابها وختلها وسُخْفُها ، ولكن المسلم الذى من « الماس الكاذب » ليس له من إسلامه إلا الاسم واللقب ، والأصل والحسب ، أمّا العمل والإيمان ، وأما الإخلاص والعرفان ، فهذه هو منها برّاءة ، وهذه هو بعيد عنها بُعد الأرض عن السماء .

ولكنكم مع هذا كله ما زلتُم تريدونى وأنا فى مقام الرّدّة وتجديد الاسلام بعد حروب الرّدّة ، واكتساح الإيمان الصحيح للنبوة الكاذبة ، تريدونى أن أثبت لكم بعد ما قرأتم من قرآن عصر الرّدّة كلمة الجاحظ التاريخية الخالدة فى هذا الباب .

(٨) .

قول الجاحظ

قال الجاحظ : « بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغةً ، وأشد ما كانت عدّة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر ، وأزال الشبهة ، وصار الذى ينعمهم من الإقرار الهوى والحمية ، دون الجهل والحيرة ، حملهم على حَظْمهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ، ونصبوا له ، وقتل من عليّتهم وأعلامهم وبنى أعمامهم ، وهو فى ذلك محتجّ عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صَبَاحاً وَمَسَاءً إلى أن يُعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلموا ازداد تحدياً لهم وتقريعاً لعجزهم عنها ، تكشّف من نقصهم ما كان مستوراً ،

وظهر منه ما كان خفيًا ، فحين لم يجدوا حيلةً ولا حجةً ، قالوا له : أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال فها توها مُفتريات ، فلم يرُم ذلك خطيبٌ ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويُحامي عليه ويكابر فيه ، ويزعم أنه عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أتقض لقوله ، وأفسد لأمره ، وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق أتباعه ، من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قریش ، والعرب في الرأي والعقل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع ، والمزدوج ، واللفظ المتشور ، ثم تحدى به أقسام بعد أن أظهر عجز أدناهم .

فمحالٌ — أكرمك الله — أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر ، والخطأ المكشوف اليقین ، مع التقرير بالنقص . والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفةً ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم ، وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ؟ وكما أنه محالٌ أن يطبقوا ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة ، فكذلك محالٌ أن يتركوه وهم يعرفونه ، ويجدون السبيل إليه ، وهم يبذلون أكثر منه . . . اهـ

على رسلك يا صاح ، فقد حدثتنا عن الردّة وأنبياء عصر الردّة ، وحدثتنا عن علاقة أبي بكر في الردّة ، وكان من المنتظر أن تحدثنا قبل ذلك بحديث السقيفة ، لأن السقيفة كانت مبدأ حياة أبي بكر . ولكنني أجيبك في غير تعقيب على كلامك ، أو إغمام

لحجتك ، أو تقض لأقوالك : إنَّ المؤرخين قد جروا مجراك بيد أننى أحب لك المنطق أكثر من جريك على أرسان العادة وأحكام العادة ، ولعلك لا تزال تذكر من مراجعاتك فى كتب التاريخ أن شيئاً كثيراً من نبوة الأدياء قد أفرخت جرثومتها والنبي صلى الله عليه وسلم لا يزال على قيد الحياة ، وإن ارتداد العرب الذى تم انفجاره بعد وفاته مباشرة لابد أن يكون لقي نفوساً معدة له ، وتربة مواتية لحسكه وقتاده . وأنت تدرس الفكرة فى تطورها وأنت تحفل بهذا النوع من الدراسة خصوصاً وقد لاحظت أن أبا بكر أصرَّ على إمرة أسامة بن زيد فى حروبه ضدَّ المشركين . وأن أسامة بن زيد ما نصبه فى القيادة إلا رسول الله . وقد لاحظت أن نبوة الأسود العنسى كانت فى عهد رسول الله . وإذن فقد رأيت أن المنطق لا العادة يقضى بهذا النظام الذى أخذناك به فى غير صلف ولا أدعاء ، وقد لا نكون على ضلال فى تمشينا مع فكرة وجدت فولدت فتمت ثم دوت أكثر من تمشينا مع المواقع والأيام والساعات واللحظات . وقد يكون سوانا على حق والعصمة والكمال لله وحده .

(٩)

حديث السقيفة

حديث السقيفة طويل ، وطويل جداً . وشد ما أخشى ملاكم وضجركم ، وشد ما أخشى الإسهاب والتطويل ، فلنلتزم بالإيجاز ولو كانت قصة السقيفة رائعة أخاذة ويهمنى أن تتقفوا عليها وأنتم ماضون فى دراسة هذا العصر من صدر الإسلام يقول الطبرى فى أخبار السنة الحادية عشرة عن رواته عن أبى هريرة قال : لما توفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى ، وإن رسول الله والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد

أن قيل مات ، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات ! قال : وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس لا يلتفت إلى شيء حتى دخل خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة ، ورسول الله مسجى في ناحية من البيت ، ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : على رسلك يا عمر فانصت فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه ، أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » وكان عمر يقول : لم يمُت ، وكان يتوعد الناس بالقتل في ذلك ، فاجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليأيعوا سعد بن عباد ، قال حميد بن عبد الرحمن الحمدي : فانطلق أبو بكر وعمر يتقاودان حتى أتواهم ، فأراد عمر أن يتكلم فنهاه أبو بكر ، فقال : لا أعصى خليفة النبي صلى الله عليه وسلم في يوم مرتين ، قال : فتكلم أبو بكر فلم يترك شيئاً نزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأنهم إلا وذكره ، وقال : لقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً سلكت وادى الأنصار » ، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعد ، قريش ولاة هذا الأمر ، فبرئ الناس تبع لبرئهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم . قال : فقال سعد : صدقت فنحن الوزراء وأنتم الأمراء ، قال فقال عمر : أبسط يدك يا أبا بكر فلا ياعك ، فقال أبو بكر : بل أنت يا عمر ، فأنت أقوى لها مني ، قال : وكان عمر أشد الرجلين ؛ قال وكان كل واحد منهما يريد صاحبه يفتح يده ، يضرب

عليها ، ففتح عمرُ يدَ أبي بكر ، وقال : إنَّ لك قوتى مع قوتك ، قال : فبايع النَّاسُ واستثبتوا للبيعة ، وتخلَّف علىُّ والزير ، واختط الزير سيفه ، وقال لا أغمده حتى يُبايعَ علىُّ ، فبلغ ذلك أبا بكر وعمر فقال عمر : خذوا سيف الزير فاضربوا به الحجر ، قال فانطلق إليهم عمر فجاء بهما تعباً وقال : «لتبايعان وأنتما طائعان أو لتبايعان وأنتما كارهان» . . . فبايعا .

هذا هو خلاصة حديث السقيفة ، ولكن جوهره ولبه مما تعلمونه ولا ريب ، فقد خرجت الأمة العريية منه بلا فرقة ولا صدع ، فكلمتها أضحت واحدة ، وجمعها مشمولاً ، وخليفتها نافذاً مقبولاً — ولا غرور فهو مجدد الاسلام وخادمه ؛ وصديقُ النبي وصاحبُه — هو أبو بكر الصديق القائل :

« أيها الناس ! قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . الصدق أمانة . والكذب خيانة . والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم قوىٌ عندى حتى آخذلهُ الحق إن شاء الله تعالى . لا يدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قومٌ إلا ضربهم الله بالذل . أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا الى الصلاة رحمكم الله . »

أجل والله ! فهذا افتتح سيدنا عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عمر الذى يجتمع مع رسول الله فى كل أموره ، فى صحبته وفى رسالته ، وفى إيمانه ودعوته ، وفى الكهف والغار ، وفى الحِلِّ والأسفار .

أجل والله ! فهذا افتتح أبو بكر عهد خلافته مقررأً أولى قواعد الحكومة الاسلامية الصحيحة . شارحاً أصدق شرح معنى الرياسة العامة فى الاسلام . رافعاً منارة العدالة والانصاف ، محارباً صروح الظلم والإجحاف . مثقفاً الأمة

بالثقافة المجدية دون غيرها ، ويكفى أن نقول : إن خطاب عرش حكومته شعاره أفاظ أربعة : « الصدق أمانة والكذب خيانة »

ولكنها ليست بالكلمات الطويلة العريضة تساس بها الأمم وتقاد الشعوب ، وإنما بالآيات تكنه الصدور وتفيض به القلوب ، وبالأعمال دون الأقوال . وبالأمثال الحية ومحاسن الحِصال .

أجل والله فهذا افتتح أول خليفة في الاسلام أوّل عهده بقيادة دولة الاسلام التي دوّخت الفرس والروم ، لا بعدد ولا بقوة ، ولا بمال ولا بعدة ، وإنما بشيء واحد حدثكم عنه ولا تزالون تذكرونه بلا ريب ، بالاخلاص أو بالآيمان ، وكلاهما صنوان ، وهما توّمان ، وقد كان من جراء إخلاص أبي بكر أن قبل الإمارة ، ولعلكم تذكرون قوله : « والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط ، ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية ولكنني أشفت من الفتنة ومالي في الإمارة من راحة ، لقد قلّدتُ أمراً عظيماً مالي به من طاقة ، ولا يد ، إلا بتقوية الله »

ولعلكم لا تزالون تدوى في أذنكم كلمات « فردريك الأكبر » خالق ألمانيا الحديثة وصاحب العبقرية الحربية والثقافة الأدبية التي شاد بذكرها « كارليل » وأنا أعلم حبكم لكارليل وهيامكم بكتب كارليل ، وهي قوله المأثور : « أنا الخادم الأول للمملكة » ، وأنا أحب لكم أن يدوى في أذنكم ذلك الشعار المحبوب بيد أني سائلكم أن تنظروا معي في رفق وأناة . . . ما كان من أبي بكر في بعض نواحيه الخلقية ، ولست بمحدثكم عن فرسان الهزاهز في دولته ، ولا عن أبطال المعامع في خلافته ، وأنتم العليمون بمكانة أبي بكر في الجاهلية وأن اليه الأشناق وهي الديّات والغرم قبل الاسلام . ثم أنتم العليمون بثروته التي كانت أربعين ألف درهم والتي أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً معونة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أنتم العليمون

بأنه كان يشتري من ماله المُعَدَّ بينَ علي الاسلام . ثم أنتم العليمون بما أخرج به ابن جرير عن روايته قال : كان أبو بكر يُعْتَق على الاسلام بمكة ، فكان يُعْتَق عَجَازٌ ونساء إذا أسْلَمْنَ فقال أبوه : أى بُنَى ! أراك تُعْتَق أناساً ضِعَافاً ، فلو أنك تعتق رجالاً جَلَدًا يقومون معك ، ويمنعونك ، ويدفعون عنك . قال : أى أبت أنا أريد ما عند الله ! » وأخيراً أنتم العليمون بما أخرج به ابن عساكر عن أبي صالح الغِفَارِيُّ قال : إن عمر بن الخطاب كان يتعهد عَجُوزاً فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها ، فأصلح ما أرادت ، فجاءها غير مرة كيلاً يُسَبِّقَ إليها ، فرصده عمرُ فاذا هو بأبي بكر الذى يأتيا وهو يومئذ خليفة فقال عمر : « أنت هو لعمرى ! »

ولست أدري هل قرأتم ما أخرج به الإمام أحمد في الزهد عن ميمون بن مهران ؟ الى جانب ما قرأتم في ابن عساكر من أن جَوَارِي الحَيِّ كنَّ يذهبن الى الخليفة بغيرهنَّ ليَحْلِبُنَّ لَهُنَّ ؟ فقد قال : جاء رجل الى أبي بكر فقال : « السلام عليك يا خليفة رسول ، قال أبو بكر من بين هؤلاء أجمعين ! »

أذكركم بهذه الرواية لا لأدل على مبلغ أدب الرجل ، ولا لِأَنُوَّة بتواضعه وزُهدِه في الحكم وإنما لأننى سألفت أنظاركم المسددة الموقفة الى كلمته في نوع من أدبه وفي منَحَى إخلاصه قال : « وَمَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مَبِينًا . أوصيكم بتقوى الله ، والاعتصام بأمر الله الذى شرع لكم وهداكم به ، فَإِنَّ جَوَامِعَ هُدَى الاسلام بعد كلمة الإخلاص السمع والطاعة لمن ولاء الله أمركم ، فان من يُطِيعَ الله وأولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أفلح وأدى الذى عليه من الحق . وإياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حَفِظَ من الهوى والطمع والغضب . وإياكم والفخر ، وما نخر من خُلُقٍ من تراب ، ثم الى التراب يعود ، ثم يأكله الدود ، ثم هو اليوم حى وغداً ميت ! » .

ولتتعموا أنظاركم في تروية وأناة في حكمته الخالدة في نهيه عن اتباع الهوى ،
والجرى وراء الطمع ، وترك العنان للغضب ، واسترسال النفس في الفخر ، ثم
خبروني بربكم عن مصدر مصائب الأمم والأفراد ، وعداوة الجماعات وتقاتل
الأحزاب !

ولست أطلب اليكم أن تنظروا الى الأشخاص لا الى الأقوال بل انى أمقت
ذلك أشد المقت . لست في حاجة الى أن أقول : إن قائل تلك الحكم هو من قال
عنه رسول الله : « إن من آمن الناس على في صحبه وماله أبو بكر ، لو كنت متخذاً
خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلاً . . ولكن أخو الإسلام »

أجل ، لست في حاجة إلى أن تنظروا الى الأشخاص لا إلى الأقوال . لأننى
أحب لكم ما أحبه لنفسي . وشد ما أحب لنفسي أن أفهم أبا بكر على أساسه
التواضع الجلى في روعة ومناء في قوله : « قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان
أحسنتم فأعينوني ، وان أسأت فقوموني » أحب لنفسي ولكم أن نفهم معاً أبا بكر
على هذا الأساس المتواضع لأن العظمة الحقيقية ليست بمتفخحة الأوداج ،
ولا بشاحجة الأنف ، ولا مزورة الجنب ، ولا . . . ولا . . الخ ، وانما هى بالجواهر
واللباب ، بالتواضع في غير ضعة ، والأدب في غير صغار ، ومع ذلك فمن حقم على
التاريخ وعلى أنفسكم المحبة للنصفة التاريخية أن أثبت لكم هنا كلمة لما وصفته به
أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، لأنها فضلاً عن كونها مثلاً صالحاً لمشور العصر
وأدب العصر ، فهى شاملة جامعة ، فقد بلغها أن أناساً يتناولون من أيها فأرسلت
اليهم فلما حضروا قالت : « أبى وما أيه ! لا تعطوه الأيدى ، ذاك والله حصن
منيف ، وظل مديد ، أنجح إذا كديتم ، وسبق إذا وئيتم ، سبق الجواد إذا
استوى على الأمد . فتى قرش ناشئاً وكهفها كهلاً . يرش مملقها ويفك عانيها ،

وَيَرَأْبُ صَدْعَهَا ، وَيَلْمُ شَعَثَهَا ، حَتَّى أَحْلَتْهُ قُلُوبُهَا ، وَاسْتَشْرَى فِي دِينِهِ ، فَمَا بَرَحَتْ
شَكِيمَتُهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى اتَّخَذَ بَفَنَائِهِ مَسْجِدًا يُحْيِي فِيهِ مَا أَمَاتَ الْمُبِطُّونَ .
وَكَانَ — رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ — غَزِيرَ الدَّمْعَةِ . وَقَيْدَ الْجَوَانِحِ ، شَجِيَّ النُّشَيْجِ ، فَاتَّقَضَتْ
عَلَيْهِ نِسْوَانُ مَكَّةَ وَوُلْدَانُهَا يَسْخَرُونَ مِنْهُ ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَاللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ
وَيُمِدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . وَأَكْبَرَتْ ذَلِكَ رَجَالَاتُ قُرَيْشٍ فُخِنَتْ لَهُ قِسِيَّهَا ،
وَفَوَّقَتْ إِلَيْهِ سِهَامَهَا . فَاثْتَلَوْهُ غَرَضًا فَمَا فَلُّوا لَهُ صَفَاءً ، وَلَا قَصَفُوا لَهُ قَنَاءً . وَمَرَّ
عَلَى سَيِّسَائِهِ ، حَتَّى إِذَا ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ ، وَرَسَتْ أُوتَادُهُ ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ
أَفْوَاجًا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أَرْسَالًا وَأَشْتَاتًا . اخْتَارَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا عِنْدَهُ ،
فَلَمَّا قَبِضَ نَبِيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ رِوَاقَهُ ، وَشَدَّ طُنْبَهُ ، وَنَصَبَ
حِبَائِلَهُ ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ ، وَأَلْقَى بَرَكَةً ، وَاضْطَرَبَ حَبْلُ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ ،
وَمَرَجَ عَهْدُهُ ، وَمَاجَ أَهْلُهُ ، وَعَادَ مَبْرَمَةُ أَنْكَاثَا وَبُغْيِ الْغَوَائِلِ ، وَظَنَّ رَجَالٌ أَنْ قَدْ
أَكْثَبَتْ أَطْمَاعُهُمْ نَهْزَهَا . وَلَا حِينَ الَّذِي يَرْجُونَ . وَأَتَى وَالصَّدِيقُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ
فَقَامَ حَاسِرًا مَشْمُرًا . قَدْ رَفَعَ حَاشِيَتَيْهِ . وَجَمَعَ قُطْرَيْهِ . فَرَدَّ نَشْرَ الدِّينِ عَلَى غِرِّهِ ،
وَلَمْ شَعَثَهُ بَطِيئَةً ، وَأَقَامَ أَوْدَهُ بِثِقَافِهِ ، فَاثْدَعَرَ النِّفَاقَ بَوَطَاتِهِ ، وَانْتَشَرَ الدِّينُ فَنَعَشَهُ .
فَلَمَّا أَرَوَّحَ الْحَقُّ عَلَى أَهْلِهِ . وَأَقْرَّ الرُّءُوسُ عَلَى كَوَاهِلِهَا . وَحَقَّنَ الدِّمَاءُ فِي أَهْبِهَا .
حَضَرَتْهُ مَنِيَّتُهُ ، فَسَدَ ثَلَمَتُهُ بِشَقِيقِهِ فِي الْمَرْحَمَةِ ، وَنَظِيرِهِ فِي السَّيْرِ وَالْمَعْدِلَةِ ،
ذَاكَ ابْنُ الْخَطَّابِ لَهِ أُمٌّ حَمَلَتْ بِهِ ، وَدَرَّتْ عَلَيْهِ ، لَقَدْ أَوْحَدَتْ ، فَفَنَخَ الْكَفَرَةَ
وَدِيحَهَا . وَشَرَّدَ الشَّرْكَ شَذَرَ مَذَرَ ، وَبَعَجَ الْأَرْضَ وَبَخَعَهَا ، فَقَاءَتْ أَكْلَهَا ،
وَلَفْظَتْ خَبَاءَهَا ، تَرَأَّمَهُ وَيَصْدَعْنَهَا وَتَصْدِي لَهُ وَيَأْبَاهَا . ثُمَّ وَزَعَ فِيهَا فِيهَا ، وَتَرَكَهَا
كَمَا صَحِبَهَا . فَأَرُونِي مَاذَا تَرْتَوْنُ ؟ وَأَيَّ يَوْمِي أَبِي تَنْقِمُونَ ؟ أَيُّ يَوْمِ إِقَامَتِهِ إِذْ عَدَلَ
فِيكُمْ ؟ أَمْ يَوْمِ ظَعْنِهِ إِذْ نَظَرَ لَكُمْ ؟ أَقُولُ هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ « ١ هـ

وأظنكم تريدونني أن أحدثكم طويلاً في البقية الباقية، والنواحي الخالدة، من آثار ذلك العصر، سواء أكانت سياسية، أم أدبية، أم عُمرانية، وسواء أكانت دينية أم حرية، ولكنكم تعلمون من اطلاعكم الوفير على ما كتبه الطبري وابن الأثير وغيرهما في حياة زعيمى العصر: أبى بكر وعمر بن الخطاب أن حياتهما تُمثّلان فلسفة الشدة وفلسفة اللين، وإن كان جوهرُ تأديب المسلمين واحداً لم يتغير، ثم إن اطلاعكم على ما كان من إعجاز القرآن وطريقة جمعه وما فيه من عمرانيات ودينيات وبلاغات يجعلكم ترجّحون أن اشتغال الناس به تركّ الشعر وما إلى الشعر والعلم وما إلى العلم في المرتبة الثانية.

وإني أعتقد أنكم تقدّرون معى ثروة هذا العصر العظيم جداً في القادة والأبطال وتقدرّون أن كل بطل منهم بحاجة إلى الدرس. وكل موقعة من مواقعهم العديدة في الفرس والروم والشام وشتى بلاد العرب فيها عظائها وفيها دُرُوسها، وأخيراً أعتقد أن الأمور التي يبتأها لكم فيما قدّمنا من الإلمامات الساذجة تستلزم أن تنتقل بكم إلى حديثنا الأخير.

هناك عند «لوى» قال أحد ضباط نابليون لقائده: «مستحيل على أية قوة أن تعبرَ هذا الجسرَ الضيقَ وهي لا محالةً مستقبلة نيران العدو المهلكة!»
وهناك عند «لوى» قال نابليون بونابرت كلمته الخالدة: «تقول: مستحيل! لعمرى ليست هذه الكلمة بفرنسية، معشر الجند هلموا فاتبعوا قائدكم!»

بمثل هذه العقيدة، وبمثل هذا الإيمان، وبمثل تلك الإرادة، كان يحاربُ جندُ العرب وكان ينجح قادة العرب. وأكرّر لكم أى شبابنا الناهضين، فلذة الكباد وموضع الآمال: أنهم لم ينجحوا بعدد ولا قوة، وإنما كانت عُدتهم وقوتهم ومددُهم وذخيرتهم، في نفوسهم، ومن نفوسهم، وفي أخلاقهم، ومن أخلاقهم، حتى كانت

كلمة « مستحيل » غير موجودة فعلاً في قاموس حروبهم ومُعْجَمِ مواقعهم !

لتنظروا في حياة أي قائد من قواد ذلك العصر في عشرات المواقع ، بل لتنظروا في تعليمات الخلفاء لأي قائد من قواد ذلك العصر مهما كانت مكانته من قومه أو صاحب الرسالة تجده يقول له مثل مقالة عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص : « يا سعد ، ابن أم سعد ! لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ! فإن الله لا يتحو السيء بالسيء ، ولكنه يتحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته ، فالناس في دين الله سواء ، وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه »

ولست أشك في أنكم قد وقفت طويلاً عند تلك الكلمات الخالدة : « ليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته » . ولست أشك أنكم تركتم للفكر عنايته . فذكرتم من كلمات صاحب الرسالة باب الكعبة ثاني يوم الفتح قوله : « يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالأباء ، الناس من آدم وآدم من تراب . » يا أيها الناس ! إننا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خبيرٌ » . ولست أشك أنكم ذكرتكم أن النبي بعد اعتمازه ورجوعه إلى المدينة استعمل على مكة « عتاب بن أسيد » وهو يُنْفِ على العشرين سنة ، غلبه التقشف والزهد وكان أول أمير حج الإسلام وحج المشركين على مشاعرهم . ولست أشك أنكم ذكرتكم وفد ثقيف الذي حضر إلى الرسول بعد أن أعتته مالك بن عوف واستباحهم وأنهم بعد أن أسلموا أمر عليهم الرسول « عثمان بن أبي العاصي » وهو أصغرهم سنًا ، ولكنه أكثرهم فقهاً . ولست أشك أنكم تذكرون أن خالد بن الوليد أمر على

المسلمين وهم في طَراوة الإهاب ، وشرخ الشَّبَاب ، وأن أسامة بن زيد ما زلت
تذكرون أمره وأمر عمر بن الخطاب في شأنه وأمر أبي بكر الصديق في تفضيله
والاستمساك بقيادته . لست أشك أنكم تركتم للفكر عَنَانَهُ عند تلك الكلمات
فأمنتم بأن الأمم لا تحيا إلا بأعمالها ، وإلا بإحقاق حق أهلها ، وإلا بالقضاء
على الحسب والنسب إن كانا هما فقط ميزة الرجال ، دون تفاضل الأعمال !

وإني لا إخالكم ذاكرين ذلك ومقدرين أثره في نجاح العرب في ذلك الصدر
الأول إذا ما ذكرت تلك الأسباب الأخرى التي لا أشك في استيعابكم لها جميعاً
من نَجْدَةِ القوم ، واعتقادهم بقضاء الله وقدره ، ونشاطهم ، وخِفَّةِ أثقالهم ، وخشونة
معيشتهم ، وقوةِ مراسيهم حين منازلتهم ، ودُرْبَةِ فرسانهم ، وفروسية غلمانهم ،
ورُسوخ إيمانهم ، والعمل بقرآنهم ، مع ما كان عليه جيرانهم من الفرس والروم
من تشدتِ شمل ، واختلاف كلمة ، وتناحر أحزاب ، ورَفَاهِيَةِ شيوخ وشباب !

عمر بن الخطاب

(١)

« توماس كارليل » كاتبٌ عُرِفَ بفلسفته التاريخية ، فله فيها طابعٌ خاصٌ ، ولتفكيره وتعليله منْحَى خاصٌ . وهو صاحبُ تلك الكلمة الماثورة : « لم يكن تاريخ العالم إلا تاريخ عظمائه » . فنحن نُحاول أن نكتب فذلكَ مُوجزةً عن عظيم من عظماء العالم ، لعبَ دوراً هاماً في قلب تاريخ العالم . وفي تغيير خريطة العالم قديماً وحديثاً .

ولسنا نشك أن العبقرية لا تنبت من جذب . ولأنشك أن الزعامة لا تولد من عُقم . بل لابد من ظروف واعتبارات من زمن ومكان ، ومن بيئة ووراثة . وإذا كانت أثينا وصلت في عصر بركليس إلى ذروة الحضارة فذلك العصر كان غنياً بآثاره ولداته ، وأشباهه ونظرائه ، أمثال : انكساغورس وسوفكليس وهيرودت وتيوسيديد ؛ فانكم تستطيعون أن تفهموا كيف نبت مثل عمر بن الخطاب وهو من عصر النبي وفي زمالة صحابة كأبي بكر وأمثال أبي بكر . وتستطيعون أن تستسيغوا عبقرية كعبقريته ، وشخصية كشخصيته ، لتقديركم لعصره ، وعصر أثر فيه ، فلن تجشموني مثونة التبسط معكم في كلمة كهذه في كل مناحي القول الخلقية يبحث في عُمر وعصر عُمر ، وإنما سَأُغني لكم إلى حد غير قليل في تصويري لكم عمر بن الخطاب بالتكلم بصفة خاصة في مناقبه ، تمشياً مع كلمة كارليل ، وأخذاً بالمنهج التاريخي الأخير ، من التنكب بالقارئ وعقلية القارئ عن شحن ذهنه بالحروب والوقائع ، وما إلى الحروب والوقائع ، من سنين وأيام ، ومواقع وقاتل ، وصلاح وسجال ، إلى جعل التاريخ قصة . وقصة مجيدة لنواحي خلقية مجيدة ،

واتخاذ هذه القصة المجيدة أمثلةً للاقتداء ، ودرساً للاحتذاء ، وشخصيةً فذة للاهتمام . وإنكم لجدّ عالين أن للسياسة مناحيَ مختلفة ، ولها تعاريج ولغات ، ولأبطالها مميزات متباينة . فليسياسة الختل أبطالٌ ؛ وليسياسة الشدة أبطالٌ ؛ وليسياسة اللين أبطالٌ ؛ فيجب أن يكون لسياسة الأخلاق أبطال . وسنرى في أية مرتبة نضع عمر من بين هؤلاء جميعاً .

وقد يكون من حقكم علينا أن نلفت أنظاركم إلى بيت من الشعر الانجليزي يحفظه طلبة التاريخ الدستوري وهو ما ترجمته : « دع البله يتحاجون عن أحسن أنواع الحكومات ، وتعلم أن خيرها نوعاً ما كان أدقها إدارة » .

نخلوا عن أذهانكم الآن أنواع الحكومات ، وأنسوا إلى حين قليل الأسماء الحديثة التي تطرّق أذهاننا الفينة بعد الفينة ، من حكومة برلمانية ملكية ، إلى جمهورية ، إلى دكتاتورية ، إلى سوفيتية . واخلوا عن أذهانكم الأسماء القديمة من أمبراطورية أو أوتوقراطية أو أرستوقراطية . وإن كنت أحب لكم دواماً أن تحرصوا الحرص كله على حكم الشورى ، وأن تشربوا قلوبكم حب وطنكم ودستوركم واستقلالكم وحرية شعبكم .

كذلك من حقكم علينا أن نقول لكم : إن العظمة لم تحتكرها أمة من الأمم ، ولم تحتصّ بها دولة دون أخرى . ولم تكن بصفة زمن على زمن ، ولا بوقف على عصر دون عصر ، بل هي مُشاعة للجميع . فهل اكم أن تبحثوا عنها عند الجميع ، وأن تنال من عنايتكم ودرسكم وإمعانكم وفحصكم على قدر سواء . سواء أكانت في فرنسا أم انجلترا أم المانيا ، وسواء أكانت في بلاد العرب المقفرة وصحاريهم المحرقة ، وسواء أكانت عن « بوذا » أم « كونفشيوس » ، وسواء أكانت عن مسلم أو غير مسلم ؟ ذلك لأنكم يا أصحابي في عصر يخضع للذهنيات الفذة ، ويذعن

للعقول الجبارة ، ويُقدّس العبقريات النادرة . فلنشدد هؤلاء ، أنى وجدوا
ولندرس هؤلاء ، أنى كانوا .

(٢)

وصية ميت ، ولكنه حتى ؛ حتى في ضميره وفي وجدانه ؛ حتى في يقينه وفي
إيمانه ، وهو وإن كان ميتاً فهو خيرٌ من ألف حتى ، وهو وإن كان حياً فأكثر
تقديراً لحساب الله من ألف ميت . تلك هي وصية أبي بكر في اختيار عمر بن الخطاب
ولست في حاجة لأن أزيد علمكم الجَمِّ عن أبي بكر وقدره ، ولا من غايتي هنا
أن أتبسّط معكم في مناحي القول عن تبشّله وتقصّفه . ولا من بُغيتي التحدث اليكم
عن زُهدِه وتعفّفه ، لأنكم قد قرأتم بلا ريب — في الكثير الذي قرأتم — عن
أبي بكر ما رواه ابن سعد عن عطاء أنه لما ولي الخلافة « رأى أن يستمرّ على استغلال
ملكه ، والارتزاق من وراء عمل يده ، ولا يُنفق على نفسه من بيت مال المسلمين
شيئاً ، فأصبح يوماً وعلى ساعده أبراد^(١) ، وهو ذاهبٌ إلى السوق ، فلقّيه عمرُ
فقال : أين تريد ؟ قال : إلى السوق . قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين !
قال : من أين أطعم عيالي ؟ فقال : انطلق يفرضُ لك أبو عبيدة ؛ فانطلقا إلى
أبي عبيدة فقال : افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم
وكسوة الشتاء والصيف . إذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره ؛ ففرض له كلَّ
يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن »

فرض هذا أو شيئاً كهذا وإذ بذلك الكبير لا في إسلامه وخلافته فحسبُ ،
بل في جاهليته وعند قومه ، إذ به ينتقص بنفسه مما قدّر له ، ثم إذ به عند موته يأمر
ببيع ما يمتلك لسداد بيت المال ، وردّ ما أخذه من وظيفته بصفته خليفة رسول

(١) الأبراد جمع برد وهي ثوب مخطط وأكسية يلتحف بها الواحد ماء .

المسلمين ؛ فانكم بلا ريب قد قرأتم ما أثبتته جُلُّ الرُّواة ، وجُلُّ المؤرخين ، وجُلُّ المحققين من : « أن زوجته اشتهدت حلواً فقال : ليس لنا ما نشترى به ! فقالت : أنا أستفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشترى به ؛ فقال : افعلی ففعلت ذلك ، فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير ، فلما عرفت ذلك ليشتري به حلواً أخذه فردّه الى بيت المال وقال : هذا يفضل عن قوتنا وأسقط نفقته بقدر ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له » ثم لا ريب عندي في أنكم قرأتم ما رواه الطبري : « أن أبا بكر لما حضرته الوفاة ؛ قال : أنظروا كم أنفقت منذ وُلّيت بيت المال فأقضوه عني » كما قرأتم وصية أبي بكر بخمس ماله ، ولست أشك في حسن تعليلكم ، ودقيق تفهمكم ، وسديد حكمكم لقوله فيها : « آخذ من مالي ما آخذ الله من فيء المسلمين ! »

فرجلٌ كأبي بكر في صحابته للنبي ، ومعاصرته للنبي ورسالة النبي . رجل كأبي بكر في مبادرته إلى الإيمان بتعاليم النبي ، ومعاضدته بنفسه وماله في سبيل نُصرة ما يرضى الإيمان ورسول الإيمان ، لن يحتمل مسئولية اختيار عمر بن الخطاب إلا إذا كان عمرُ الرجل الكامل .

(٣)

يقول أسيدُ بنُ حُضير^(١) حينما سأله أبو بكر عن عمر ، وأبو بكر كان دستورِي النزعة ، جُبِلت نفسه الخالصة لله ، وحبّ خلق الله ، على الاستشارة والنزول على رأى الجماعة ، يقول أسيد : « اللهم أعلمه الخير بعدك ، يرضى للرضا ، ويسخط للسخط ، الذى يسرُّ خيرٌ من الذى يُعلنُ ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه » . ويحيب عثمان بن عفان أبا بكر : « أنت أخبرنا به » فقال أبو بكر : « على ذلك

(١) أسيد بن حضير : صحابيٌّ مشهور ويقال لأبيه حضر الكتاب

يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر « فقال : « اللهم علمي به إن سريره خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله ! » .

ويروى لنا الطبري أن طلحة بن عبيد الله دخل على أبي بكر وقال : « ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد نرى غلظته ، فقال أبو بكر : بالله تخوفني ! أقول : اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك أبلغ عني ما قلت من ورائك » ثم لم يكتف بذلك بل قال أثناء مرض وفاته لعبد الرحمن بن عوف حينما وجد الخليفة مهتماً ، وبشّره أنه بحمد الله أصبح بارئاً : « أما إني على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشدّ على من وجعي ، إني وليت أموركم خيركم في نفسي ، فكلّكم ورمّ من ذلك أنفه ، يريد أن يكون له الأمر من دونه ، ورأيت الدنيا قد أقبلت ولما تُقبل وهي مقبلة ، حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج ، وتألّمون الاضطجاع على الصوف ، كما يألّم أحدكم الاضطجاع على شوك السعدان^(١) ، والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حدّ ، خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا ، ألا وإنكم أوّل ضالّ بالناس غداً فتصدّوهم عن الطريق يميناً وشمالاً ، يا هادي الطريق انما هو الفجر أو البجر ! » فأجابه عبد الرحمن ابن عوف : « خَفَضْتُ عليك يرحمك الله ! فان هذا مما يهيضك على ما بك ، انما الناس في أمرك بين رجلين ، إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو يُشير عليك برأيه ، وصاحبك كما تحب ولا نعلمك أردت إلا الخير ، ولم تزل صالحاً مصلحاً ، مع انك لا تأسي على شيء من الدنيا »

ولست أرتاب أنكم تقدّرون تلك الاعتبار السامية ، وتلك المعتلجات النفسية الشريفة ، التي حدث بشخصية فذة في حلم أبي بكر ورقة حاشيته ، وسعة

(١) السعدان : نبت له شوك وهو رعي الابل

عَطَنَهُ ، وأدبه مع ربه ونفسه والناس جميعاً ، حتى يلهب أواره ، وتضطرم ناره ،
لا في سبيل عمر وإحقاق مكانة عمر ، بل في سبيل المصلحة القومية العامة ، وفي
سبيل نُصرة الزعامة الكاملة الصحيحة

ولعلنا لا نعدو الحق في قليل أو كثير ، إذا اقترضنا في غير مبالغة ولا إغراق ،
بل نزولاً على المنطق وما يُرضى المنطق ، إذا قلنا : إن نشوء هذه المصلحة القومية
العامة ، ونُصرة الزعامة الكاملة الصحيحة هي بنفسها التي حدث بالنبي محمد بطل
الرسالة والهداية ، وما أُنْتُجَتِها الرسالة والهداية من عرفان وإيمان ، ومناقِبَ حِسانٍ ،
وخير عميم لنبي الانسان ، حتى سأل ربه الذي يُعزُّ من يشاء ، ويُدِل من يشاء ،
ويعطى الملك من يشاء ، ويتزع الملك ممن يشاء ، سألَهُ « اللهم أعزّ الاسلام بعمر ! »

(٤)

طَبَعَ نِيْ اَنْكُمْ تَحْبُونُ عمر بن الخطاب من كلام هؤلاء جميعاً . فمن نبي كريم يسأل
ربه إعزاز دعوته بعمر ، أو بأحد العُمَرَاء كما في رواية أخرى . إلى خليفة عظيم لا يرى
أثناء حياته وفي مماته غير عمر يركن اليه ، ويُدْب عنه ، ويُشِيد بذكره ، وينضَح
عن كفايته ومواهبه . ومن صحابة أبرار ليس لهم من طَمَاعية في الازدلاف ، وليس
في أخلاقهم شَيْءٌ من ألوان الملق والخداع ، وجُبلوا جميعاً على الصراحة والصدق . كما
جبلوا على الرجولة ، وما في الرجولة من بطولة وفُروسية ومناصرة للحق ، لا يرون
من رجل للموقف والساعة إلا في عمر ، ولم يستطيعوا أن يقولوا شيئاً يثلم صفحته ،
أو ينتقص من شخصيته إلا ما ذهب اليه أحدهم في إجابته لأبي بكر : « هو والله
أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة » ، يَدَّ أن هذه الناحية قد أصاب
أبو بكر المحجّة في تعليلها حيث يقول : « ذلك لأنه يراني رقيقاً ، ولو أفضى الأمر
اليه لترك كثيراً مما هو فيه » .

طَبَعِي أَنْكُمْ تَحْبُونَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا . وَطَبَعِي أَنْكُمْ لَا تَحْفَلُونَ كَثِيرًا بِأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ هُوَ ابْنُ ثُقَيْلِ بْنِ الْعُزَّى أَوْ أَنَّ الْعُزَّى هُوَ ابْنُ رِيَّاحِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطٍ أَوْ أَنَّ قُرْطَ هُوَ ابْنُ رِزَّاحِ بْنِ عَدَى بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَى . أَوْ أَنَّهُ يَنْتَهِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي كَعْبِ بْنِ لُؤَى . كَمَا لَا تَحْفَلُونَ كَثِيرًا بِأَنَّهُ يُكْنَى بِأَبِي حَفْصٍ وَيُلَقَّبُ بِالْفَارُوقِ ، أَوْ أَنَّهُ مِنْ أَشْرَفِ يَبُوتَاتِ قُرَيْشٍ وَآلِيهِ السَّفَارَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، حَيْثُ يَفْزَعُونَ إِلَيْهِ فِي مَنَافِرَتِهِمْ وَمَفَاخِرَتِهِمْ ، وَقَدْ كَانَتْ حَيَاةُ الْقَوْمِ يَوْمَئِذٍ مَنَافِرَةً وَمَفَاخِرَةً . كَمَا لَا تَحْفَلُونَ كَثِيرًا بِأَنَّهُ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي السَّابِعَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ عَمْرِهِ ، أَوْ أَنَّهُ وَلِدَ بَعْدَ عَامِ الْفِيلِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، أَوْ أَنَّهُ بِمَجَرَّدِ دَخُولِهِ فِي زِمْرَةِ الْمُسْلِمِينَ أَشَارَ عَلَى النَّبِيِّ بِتَرْكِ التَّسْتَرِّ وَالْإِخْتِفَاءِ وَأَنْ يَدْعُوا لِلْإِسْلَامِ جَهْرَةً وَعَلَنًا .

طَبَعِي أَنْكُمْ تَحْبُونَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا . وَطَبَعِي أَنْكُمْ لَا تَحْفَلُونَ كَثِيرًا بِمَا ذَكَرْنَاهُ ، ذَلِكَ لِأَنَّكُمْ تَنْزَعُونَ إِلَى جَانِبِ حُبِّكُمْ لِعُمَرَ الَّذِي غَرَسَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ ، تَنْزَعُونَ إِلَى مَا يَرْضَى نَهْمَتَكُمْ ، أَوْ يَتَمَشَّى مَعَ حُبِّكُمْ لِلْمَسِيحِ مِنْ قِرَاءَةِ رِينَانٍ أَوْ بِإِيْنِي أَوْ أَمِيلَ لِدُوجٍ ، وَمَعَ حُبِّكُمْ لَجَلَادِ سِتُونٍ مِنْ مُورَلِيٍّ ، وَحُبِّكُمْ لَجُولَسُونٍ مِنْ بُوذُولٍ ، وَحُبِّكُمْ لِفِرْدَرِكِ الْكَبِيرِ مِنْ كَارْلِيلٍ . وَحُبِّكُمْ لِنَابِلْيُونٍ مِنْ أَبُوتٍ وَلِنَفْسِكُمُ الطَّمُوحَةِ الْمُثَقَّفَةِ مَا أَحْبَبْتَ هَؤُلَاءِ إِلَّا لِأَنَّهُا عَاشَتْ مَعَ هَؤُلَاءِ ، وَإِلَّا لِأَنَّهُا زَامَلَتْ كَلًّا مِنْ هَؤُلَاءِ زَمَالَاتُ الرُّوحِ لِلرُّوحِ وَالصَّدِيقِ لِلصَّدِيقِ ، وَلَسْتُ أَرْتَابُ فِي أَنَّكُمْ مُحَقَّقُونَ فِي رَغْبَتِكُمُ الْعَامِيَةِ الْعَادِلَةِ فِي تَكْوِينِ رَأْيِكُمْ لِنَفْسِكُمْ وَمِنْ دَرَسِكُمْ . وَلَسْتُ أَرْتَابُ لَكُمْ أَنْ تَتَعَصَّبُوا لِعُمَرَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَعْرِفُوا عُمَرَ .

(٥)

تحيا الأمم بالعمل؛ وبالعامل المنتج المثمر؛ وبعمل الأفراد وجهود الأفراد، لا من الاتكال وسياسة الاتكال . والحاكم المتيقظ مفروض عليه أن يَبْتَثَّ في نفوس أُمته

حبّ العمل ، وحبّ تحصيل الرزق من وراء العمل . وقد كان عمرٌ لا ينفك يُحارب رذيلة الاسترخاء بقدر ما كان يقاوم روح التوكل والاستئانة .

يقول كتاب كنز العمال نقلاً عن معاوية بن قُرّة : « لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن ، فقال : من أنتم ؟ فقالوا : متوكلون ! فقال : كذبتُم ، ما أنتم متوكلون ، إنما المتوكل رجل ألقى حبة الى أرض وتوكل على الله »

ويقول صاحب أشهر مشاهير الاسلام نقلاً عن كتاب المناقب لأبي الفرج ابن الجوزي عن ابن سيرين عن أبيه ، قال : « شهدت مع عمر بن الخطاب المغرب ومعى رزيمة لي ، فقال : ما هذا معك ؟ فقلت : رزيمة لي أقوم في هذا السوق فأشترى وأبيع ، فقال : يا معشر قريش ، لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة فإنها ثلث الامارة » ومما جاء فيه عن جواب التيمي قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « يا معشر القراء ! ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق ، واستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين » إلى أن قال : « من تجرّ في شيء ثلاث مرات فلم يُصِب فيه شيئاً فليتحوّل الى غيره »

ويقول صاحب العقد الفريد : « قال عمر بن الخطاب : لا يَقْعُدُ أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزُقني ، وقد عَلِمَ أن السماء لا تَمْطُرُ ذهباً ولا فِضَّةً ، وأن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض . . وتلا قول الله جلّ وعلا : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

فإذا نستطيع أن نستخلص من هذه الروايات الإجماعية ؟

نستطيع أن نستخلص من ذلك كلّهُ أن عمر كان داعية خيراً إلى العمل ، إلى الكسب ، إلى الارتزاق ، إلى أن يبذل كلّ جهده لإسعاد نفسه ومن يعول .

إلى أن ينبذ الجميع من قرّاء ورجال دين ، أو غير قرّاء ورجال دين على حدّ سواء ، سياسة الاتكال ، فما قتل الأم وقضى عليها بالهرم والشيخوخة ، وبالفناء والزوال إلا انتشار مرض الكسل بين ظهرانيهم ، وإلا ذبوع وباء الاتكال في صفوفهم ، وإلا ركونهم إلى الذّعة واستنابهم إلى المصادفة .

دعوة إسلامية دخل الناس فيها أفواجاً ، ونفوس عبثت بها الرّدة أو الوثنية أو غير دين الاسلام ثم دخلت في الاسلام حديثاً ، وكادت تُفسّر الدين على غير وجهه ، فاذا بعمر الداعية الإصلاحية ، والخليفة الصحابي ، يحول ويصول ليقول لهؤلاء وهؤلاء : إن عبادة الرحمن لها ساعاتها ، وهي ليست بحائلة أو مانعة عن العمل والسعى لإقامة أود الحياة ، بل على النقيض فإنه يأمر بالعمل . والعمل سرّ نجاح الأفراد وسرّ نجاح الأمم .

(٦)

« محمد بن مسّلمة » أحد الصحابة المشهود لهم بالتقوى والصّلاح ، المعروف بالتدقيق والتحقيق ، مع زهد وورع ، كان يشغل وظيفة مفتش عام على الولاية في أيام عمر بن الخطاب ، وقد أثبت الطبري عنه مهمات عديدة نهض بها تبين مبلغ عناية عمر بن الخطاب باستتباب العدل وإقامة صروحه ، ويكفيك أن تنظر في حوادث سنة ٣١ هـ وما كان منه مما ينتهي بك إلى الجزم بشدة مراقبة عمر لعماله أخذاً بناصر الضعيف من القوى ، وإرغاماً للقوى باحقاق حق الضعيف ، وجرياً للعدل ، ونفاذاً للحق ، بل كان يُعنى أجل العناية بأمر العبيد ، ويَحْفِلُ أيّما حَفِيلٍ بالآلا يفرق عمّاله في المعاملة بينهم وبين الأحرار ، ولا غرّو فهو صاحب تلك الكلمة الهائلة التي صرّح بها في وجه ابن عمرو بن العاص حين اعتدائه على أحد المصريين : « كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! » فلا غرّو إذا حدثنا الأسود

ابن يزيد في الطبري قال : « كان الوفد إذا قَدِمُوا على عمر سأله عن أميرهم ، فيقولون خيراً ، فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ فيقولون نعم ، فيقول : هل يعود العبد ؟ فيقولون نعم ، فيقول : كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابيه ؟ فان قالوا : لا ، عزله » بل أكثر من هذا !

فقد بلغ من رقة قلب عمر ، ومبالغته في الحرص على راحة رعيته — رعيته البعيدة والقريبة على حدٍ سواء — ما يسرُّده علينا الطبري في حوادث سنة ١٧ هـ عن عامل الأهواز الذي نزل جبل الأهواز ، وجشم الناس المتاعب والصعاب في الاختلاف اليه ، وأن عمر بن الخطاب بعث اليه مؤنباً اتخاذه هذه « الثيلا » في مصيف كئود يُشَقُّ على من رامه وكتب له ما نصه : « أما بعد ، فقد بلغني أنك نزلت منزلاً كئوداً لا تُوثَقُ فيه إلا على مشقة ، فاسهل ولا تُشَقِّ على مُسلم ولا مُعاهد ، وقم في أمرك على رجل تدرك الآخرة ، وتَصِفُ لك الدنيا ، ولا تدركك قرة ولا عَجَلَةٌ ، فتكدر دنياك وتذهب آخرتك » .

أما وصاياهم العمال لأجراء العدل ، والتمسك بروح العدل فكثيرة ، كثيرة جداً ، واليكم مثلاً بسيطاً من مئات الأمثلة المترعة بها كتبُ التاريخ العربية جميعاً . اليكم مثلاً عادياً ، هو كتاب عادي كتبه عمر إلى أبي موسى مما أثبتته الطبري وغير الطبري ، قال فيه : « إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم ، فأكرم من قبلك من وجوه الناس ، وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن يُنْصَفَ في الحُكْم وفي القسم » ويقول أبو رَوَاحَة : كتب عمر بن الخطاب الى العمال : « اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء ، قريتهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريتهم . إياكم والرشا ، والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عند الغضب ، فقوموا بالحق ولو ساعة من النهار » بل أكثر من هذا !

فقد خطب الناس عمر فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا أُرْسِلُ عُمَلًا إِلَيْكُمْ لِيُضْرَبُوا بِأَسْوَاقِكُمْ ، وَلَا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ ، وَلَكِنِّي أُرْسِلُكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ ، وَيَقْضُوا بَيْنَكُمْ بِالْحَقِّ ، وَيَحْكُمُوا بَيْنَكُمْ بِالْعَدْلِ ، فَمَنْ فَعَلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَا أَقْصِنُهُ مِنْهُ » . قيل : فوثب عمرو بن العاص وكان من مستمعي خطابه فقال : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَمْرَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رِعْيَتِهِ ، فَأَدَّبَ بَعْضَ رِعْيَتِهِ ، إِنَّكَ لَتَقْصِنُهُ مِنْهُ ؟ » قال عمر : « أَيْ وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ إِذَا لَا أَقْصِنُهُ ، وَكَيْفَ لَا أَقْصِيهِ مِنْهُ ، وَقَدْ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْصُ مِنْ نَفْسِهِ ، أَلَا لَا تُضْرَبُوا الْمُسْلِمِينَ فَتَذْلُومُهُمْ ، وَلَا تَجْمَرُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ ، وَلَا تَمْنَعُوهُمْ حَقُّهُمْ فَتَكْفُرُوهُمْ ، وَلَا تَنْزِلُوهُمْ الْغِيَاضَ فَتَضْيَعُوهُمْ » اهـ

فَأَنْتُمْ تَرَوْنَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ وَهُوَ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ ، صَدَقَ وَصْفُ صَعْصَعَةَ بْنِ صُوحَانَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَقَدْ سَأَلَهُ مَعَاوِيَةُ أَنْ يَصِفَهُ لَهُ فَقَالَ : « كَانَ عَالِمًا بِرِعْيَتِهِ . عَادِلًا فِي قَضِيَّتِهِ ، عَارِيًّا عَنِ الْكِبَرِ . قَبُولًا لِلْعَذْرِ ، سَهْلًا لِلْحِجَابِ ، مَصُونًا لِلْبَابِ ، مُتَحَرِّيًا لِلصَّوَابِ ، رَفِيقًا بِالضَّعِيفِ غَيْرَ مُحَارِبٍ لِلْقَرِيبِ ، وَلَا جَافٍ لِلْغَرِيبِ »

(٧)

العِبْقَرِيَّةُ الصَّحِيحَةُ سِرُّهَا غَيْرُ عِلَانِيَّتِهَا ، أَوْ تَحْمِلُ عِلَانِيَّتِهَا غِلَالَةً قَلِيلَةً مِنْ فَيْضِ سِرِّهَا . وَالْعِبْقَرِيَّةُ الصَّحِيحَةُ أَعْمَالُ أَكْثَرِ مِنْهَا أَقْوَالًا ، أَوْ تَكُونُ أَقْوَالُ أَصْحَابِهَا مِرَآةً مُصَفَّرَةً لِأَصْلِ جَلِيلٍ رَائِعٍ ، وَالْعِبْقَرِيَّةُ الصَّحِيحَةُ كَثِيرًا مَا يُخْطِئُ النَّاسُ فِي تَفْهَمِهَا ، لِأَنَّهَا شَاذَةٌ فِي فَوْقِ مُسْتَوَى الْعَقْلِيَّةِ الْعَامَةِ . وَلِأَنَّهَا جَبَّارَةٌ فِي نَأْيِهَا عَمَّا تَوَاضَعُ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ تَفْكِيرٍ وَتَقْدِيرٍ ، وَلِأَنَّهَا طَمُوحَةٌ لِلْكَمَالِ دَعْوَةٌ عَلَى بُلُوغِهِ ، قُوَّةُ الْإِرَادَةِ عَنِيفَتُهَا مَعَ أَعْدَى أَعْدَائِهَا ، وَمَا أَعْدَى أَعْدَائِهَا إِلَّا نَفْسُهَا الْخَاطِئَةُ ، يَوْمَ تَكُونُ خَاطِئَةً ، وَيَسْتَبْأُهَا الْخَاطِئَةُ ! لِأَنَّ الْعِبْقَرِيَّاتِ الصَّحِيحَةَ تُحِبُّ الْخَيْرَ الْعَامَ وَتَنْشُدُهُ

لنفسها وللميحط الذي تعيش فيه . وتمقت الشرّ العام لنفسها وللبيئة التي تعيش فيها . تقول إن أعدى أعداء العبقريات الصحيحة هي نفسها الخاطئة ويبتها الخاطئة ، لأن النفوس الكبيرة تحب غيرها حبّ النفس ، ثم هي تمقت لغيرها ما تمقته للنفس ، ثم هي تُحارب عند غيرها ما تُحاربه عند النفس ، ولعله بسبب هذه الظاهرة العنيفة من مبالغة في حبّ خير « الغيرية » الى مبالغة في مقاومة شرّ « الغيرية » ، يمكننا أن نفهم تبرير قول من اتهم عمر بن الخطاب بِجُنُوح الى العنف ، وإن كان هذا الجنوح الى العنف لا يدل في أعماقه إلا على الأب الرؤوف ، ولا يحمل في طيّاته إلا قلبَ الوالد العطوف ، ثم هو كله متفجّر رحمة وفيض حنان .

إن عمر الشديد في تأديب رعيّته ، كان شديداً أيضاً في تأديب نفسه وفي تأديب أسرته . ولعلك قرأت ما أخرجه الحافظ عز الدين الجزري في « أسد الغابة » قال : « قال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطاب فلقى رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، انطلق معي فأعذني على فلان . . . فانه قد ظمّني ، فرفع عمر الدرة فحقق بها رأسه . فقال : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم ، حتى اذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه أعذني ! أعذني ! قال : فانصرف الرجل وهو يتذمر قال « عمر » : على بالرجل ، فألقى اليه المخفقة وقال : امثل « اضر بني كما ضربتك ! ! » فقال : لا والله ، ولكن أدعها لله ولك . قال : ليس هكذا إما أن تدعها لله ارادة ما عنده ، أو تدعها لي فأعلم ذلك . قال : أدعها لله ، ثم قال الأحنف : فانصرف « عمر » ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ، ونحن معه ، فصلى ركعتين وجلس فقال مخاطباً نفسه : « يا بن الخطاب ! كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعيز بك فضربته ، ما تقول لربك غداً اذا أتيت ؟ » قال « الأحنف » : ثم جعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض » اهـ

فأنتم ترون أن هذه الرغبة الصادقة في التأديب كان مصدرها حبه لتأديب نفسه أولاً ، ثم هي تشمل الناس وتعمهم لأنها غير زائفة ، ثم هي تشمل أهل عمر قبل أن تشمل الناس . ولعلك قرأت ما ذكره ابن عساكر في تاريخه . قال : « كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء ، جمع أهله فقال : إني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله ، إلا أضعفت عليه العقوبة لمكانه مني »

هيهات أن تقولها إلا عبقرية تسعدُ بها الإنسانية يوم تُولد ويوم تكون الكلمة لها ، ويوم تأخذ الناس بأدبها وخلقها وتقويمها وتعليمها !

وهيهات أن تقولها إلا قلوبٌ رحيمة في أعماقها ، برةٌ حديبة في سويدائها ! هي قلوبٌ رحيمةٌ ، وإن كانت عنيفة في تأديبها لنفسها ، ولأهلها وللناس جماء ، وهم عندها بضعة من نفسها وأهلها . . . وهذا العنف في ظاهره إن هو إلا رحمة . ورحمة متفجرة في باطنه

هي قلوبٌ رحيمة وعبقریات صحيحة ، ولعلكم تدهشون إذا ما رأيتم عمر الذي يُضعِف العقوبة لأهله ، والذي يقتصُّ من نفسه ، والذي لا يُفرِّط في تأديب رعيته لأنها بضعة من نفسه . لعلك تدهش إذا ما رأيته في موقف آخر ، هو موقفه مع رجل من بني أسد فقد جاء في كنز العمال : « استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله ؛ فقال الأسدي : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين ، والله ما قبلت ولداً قط ؛ قال عمر : فأنت والله بالناس أقل رحمةً ، هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً »

يأبى عمر العظيم . عمر المثقف نفسه وأهله ورعيته بالثقافة الصحيحة ، الثقافة المنتجة ، ثقافة العمل والحض على العمل ، ثقافة الخير والأخذ بوجوه الخير . يأبى

أن يلى هذا الرجل الذى كان اختاره لولاية أمر المسلمين ، والذى ما اختاره إلا لما فيه من كفايات وحسنات ومميزات . . . لأنه تعوزه صفة أخرى فى الحاكم ، صفة لا ككل الصفات ، بل أهم من كل الصفات . لأنها متممة لأكل الصفات ، تلك هى صفة الرحمة .

(٨)

وإذا كنتم قد أعجبتم بعمر الداعية الى العمل ، وما يحمله العمل فى طياته من أخلاف الرزق ، وضروب السعادة ، ورفاهية الأُم ، وأعجبتم بعمر العدل ، والناشر للعدل ، والمذيع للعدل . وأعجبتم بعمر المؤدب لنفسه ولأهله ولرعيته . والذى لا يؤدب نفسه وأهله ورعيته إلا لأنه خيرى بنشأته وطبيعته ووراثته على حدّ تعبير « لمبروزو » ، فحذروا بكم أن تعجبوا بعمر خادم الجميع .

أخرج الطبرى عن زيد بن أسلم عن أبيه . قال : « خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرّة ، حتى اذا كنا بصرار اذا نار توثرت فقال : يا أسلم ، إني أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، نخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فاذا امرأة معها صبيان لها ، وقدّر منصوبة على النار ، وصبيانها يتضاغون ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول يا أصحاب النار ! قالت : وعليك السلام . قال : أأدنو ؟ قالت : أذن بخير أودع . فدنا فقال : ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ، قال : وأى شىء فى هذه القدر ؟ قالت : ما استكثم به حتى يناموا ، الله يبتنا وبين عمر ، قال : أى رحمك الله ما يدري عمر بكم ، قالت : يتولى أمرنا وينقل عنا ! فأقبل على ، فقال : انطلق بنا . نخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلا فيه كبة شحم ؛ فقال : احمله على ، فقلت : أنا أحمله عنك ، قال : احمله على مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك وأنا أقول : أنا أحمله عنك ، فقال

في آخر ذلك : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك . فحملته عليه ، وانطلق وانطلقت معه نهروا حتى انتهينا إليها ، فالتقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها : ذري عليّ وأنا أحرك لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحيّة عظيمة ، فجعلت أنظر الى الدخان من خلل لحيته حتى أنضج وأدم القدر ثم أنزلها وقال : ابعتي شيئاً ، فأتته بقصعة فأفرغها فيها ، ثم جعل يقول : أطعميهم وأنا أسطح لك ، فلم يزل حتى شبعوا ، ثم خلّى عندها فضل ذلك ، وقام وقت معه فجعلت تقول : جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين . فيقول : قولي خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله ؛ ثم تنحى ناحية عنها ، وربّض مريض السبع ، فجعلت أقول : إن لك شأنًا غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ، ثم ناموا وهدءوا ، فقام وهو يحمّد الله ثم أقبل عليّ فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم ! »

كتاب آخر غير الطبري « كتاب المناقب للجوزي » يتحدثنا فيه عن أنس ابن مالك ، وأنت تعلم من أنس بن مالك حتى لا تجرح ، وحتى لا تُنكر أو تكذب ، وأنت معذور يا رفيقي إن جرحت أو أنكرت أو كذبت ، فإن عصر المادة يحب التجريح والإنكار والتكذيب . أو هو يغشى على الأقل سُحباً قائمة من الشك والريب في كل ما هو روحاني وكل ما هو خلقي . أو هو يفترض أو يمنح إلى الافتراض أن ما قدمناه لك — وإن كانت تجمع عليه كتب الرواة ، ويؤمن به ميور وغيره من مؤرخي الفرنجة — إن هو إلا قصة خيال ، أو قطعة من الأدب أو مختارة من المشور !

أعود فأقول إنكم ستصدقون أنس بن مالك في روايته طبعاً ، لأنكم مهما

شككتكم في غيره فله من فقهه وورعه ، ومن علمه وزُهدِهِ ، حرمةٌ عندكم ومكانةٌ لديكم ، وإِذن فلتستمعوا إلى روايته عن حادثة حال لعمر ، حادثة حال تجعلكم لا تكذبون سابقتها ، لأنها من نسيجها وعلى غرارها ، ولأنها صِنُوهَا ونظيرتها ، ولأنها في طبيعتها ومعناها .

يقول أنس بن مالك : « بينا عمرُ يعصُ المدينة إذ مرَّ برحبة من رحابها ، فإذا هو بيت من شعر لم يكن بالأمس ، فدنا منه ، فسمع أنينَ امرأة ورأى رجلاً قاعداً ، فدنا منه فسلم عليه ، قال : من الرجل ؟ فقال : رجل من أهل البادية جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله ، فقال : ما هذا الصوت الذي أسمع في البيت ؟ قال : انطلق يَرْحَمَك الله لحاجتك قال : على ذاك ما هو ؟ قال : امرأة تُمَخَض ؛ قال : هل عندها أحد ؟ قال : لا ، قال أنس : ثم انطلق عمرُ حتى أتى منزله فقال لامرأته أمّ كلثوم بنت علي رضي الله عنهما : هل لك في أجر ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة عربية تمخض وليس عندها أحد ، قالت : نعم إن شئت قال : نخذي معك ما يصلح المرأة لولادتها من الخرق والدُّهن ، وجيئني بئُرمة وشحم وجبوب . قال : فجاءت به فقال لها : انطلقی وحمل البُرمة ، ومشيت خلفه حتى انتهى إلى البيت ، فقال لها : ادخلي إلى المرأة وجاء حتى قعد إلى الرجل فقال له : أوقد لي ناراً ففعل ، فأوقد تحت البُرمة حتى أنضجها وولدت المرأة ، فقالت امرأته : « يا أمير المؤمنين ، بشر صاحبك بعلام » فاسمع الرجل يا أمير المؤمنين حتى كأنه هابه ، فجعل ينتحي عنه فقال له : مكانك كما أنت ! فحمل البرمة فوضعها على الباب ثم قال لأمّ كلثوم : أشبعيها ففعلت ، ثم أخرجت البرمة فوضعها على الباب ، فقام عمر رضي الله عنه فأخذها فوضعها بين يدي الرجل فقال : كل ويحك ! فإنك قد سهرت من الليل . . ثم قال لامرأته : اخرجي وقال للرجل :

إذا كان غد فأتنا نأمر لك بما يصلحك ، ففعل الرجل فأجازه وأعطاه . . . »
ستقولون إنه لم يكن في تلك البلاد المجدية من مستشفيات أو ملاجىء أو دور
إسعاف ففروض على الحاكم إذن أن ينظر هو أو رجاله أو حاشيته في أمر أمثال
هؤلاء . ممن يصيبهم العوز وتنزل بساحتهم المتربة ، ولكننى مع تقديرى للمدنيات
العالمية الحاضرة ، وإنها كانت للانسانية برداً وسلاماً ، ورغداً وإنعاماً ، أحب
أن أهمس فى أذنك أن عمر بن الخطاب لم يفتنه تقدير ظروف الزمان والمكان ،
وأنه مع إغاثته للملهوف ، وأخذه بناصر الضعيف ، له أوليات عدة ذكرها السيوطى
نقلًا عن النووى والعسكرى وابن سعد ، وهى عشرات العشرات . . . وأحب أن
أقول لك منها هنا فى هذا المقام . . . أنه أول من اتخذ دار الدقيق يعين به المنقطع !
ولعلكم تذكرون حكايته مع راعى غنم ، إذ مرّ به عمر فنظر إلى قلة الكلا فى
مرعاه ، وكان منذ لحظة قد مرّ على مرعى أنف حسان ، فأشار على الرجل ليذهب
إليه لتصيب شاهة سمناً ورياً ، وأكلا هنيئاً ، ثم قال له : « كل راع مسئول عن
رعيته » وكفى بها للرجل مذكراً وواعظاً ونذيراً .

(٩)

وكان عمر ثاقب البصيرة ، بعيد مرعى النظر ، مستشعراً بمسئوليته أمام الله ،
وأمام الوطن ، وأمام عباد الله . بقدر ما كان عارفاً بأقدار الناس ، مُنصفاً للناس ،
حافظاً لحقوق الناس ، مُقلماً شبابة عُدوان عظماء الناس ، مثقفاً للناس بتصرفه
إزاء كبراء الناس .

يقول المسعودى فى « مروج الذهب » فيما رواه عن عبد الله بن عباس :
« إن عمر بن الخطاب أرسل إليه فقال : يا بن عباس ، إن عامل خُص هلك ، وكان
من أهل الخير ، وأهل الخير قليل ، وقد رجوت أن تكون منهم ، وفى نفسى منك

شيء لم أره منك وأعياني ذلك ، فما رأيك ؟ قال : أريده فإن كان شيء أخافه على نفسي خَشِيتُ منه عليها الذي خشيت ، وإن كنت بريئاً من مثله علمت أني لست من أهله ، فقبلت عملك هنالك ، فاني كلما رأيتُ أو ظننتُ شيئاً إلا عاينته ، فقال : يا بن عباس ، اني خشيت أن يأتي عليّ الذي هو آت ، وأنت في عملك فتقول : « هلمّ الينا ولا هلمّ اليكم دون غيركم . . ! اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعمل الناس وترككم » قال ابن عباس : والله قد رأيت من ذلك ؛ فلم تراه فعل ؟ قال : والله ما أدري ! أضنّ بكم عن العمل ، فأهل ذلك أنتم ، أم خشي أن تبايعوا بمنزلتكم منه ، فيقع العقاب ، ولا بدّ من عتاب ، فقد قرعتُ لك فما رأيك ؟ قال ابن عباس : أراني لا أعمل لك . قال : ولم ؟ قلت : وإن عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى في عينيك . قال : فأشرْ عليّ ، قلت : إني أرى أن تستعمل صحيحاً منك صحيحاً لك ! .

هذا موقفٌ له ما وراءه . وهذا موقف يتكلم وحده بألف لسان . وهذا موقف أنتم فاهمون ومتدبرونه لا محالة ، ثم أنتم مقدرون تلك النتائج المروعة التي خلفتها سياسة من أتى بعد عمر فعمد إلى ولاية العهود الثنائية والثلاثية ، ثم أنتم مقدرون نتائج كل تنكّب عن سننه بما أصاب عثمان وغير عثمان .

أجل ! هذا موقفٌ له ما وراءه . وهذا موقف قد تفسره لك مئات المثل العليا التي ضربتها للناس حياة عمر ، وتصرفات عمر ، وخلافة عمر . وهذا موقف يذكّرنا بنظيره في لُبّه وجوهره ، وإن كان يختلف في المجرى والنتيجة .

أجل ! هذا موقفٌ له ما وراءه . ثم هو يذكرنا برغبة عمر في تأديب الأشراف ومن في طبقة الأشراف ، لأن ماضيهم في الأنفة والكبرياء ، والعظمة والازورار مما يحتاج إلى تأديب عمر ، وحكمة تصرفات عمر ، فقد روى ابن الجوزي عن الحسن .

قال : « حضر يباب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبوسفيان بن حرب في نفر من قريش من تلك الرؤوس . وصُهِيبَ وبلال وتلك الموالى الذين شهدوا بدرًا ، فخرج إذنُ عمر فأذن للموالى وترك أولئك » فقال أبوسفيان : « لم أرَ كالיום قط ! يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابِه لا يلتفت إلينا ! » فقال سهيل بن عمرو وكان رجلاً عاقلاً : « أيها القوم ! انى أرى فى وجوهكم إن كنتم غَضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دُعِيَ القوم ودُعِيتُمْ فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا على أنفسكم يوم القيامة وتركتم ! »

ولعلكم بعد هذا كله تستطيعون أن تبرروا سرَّ نجاح عمر ، وسرَّ التفاف قلوب الرعية حوله .

(١٠)

ولكنكم ستطالبونى بأشياء كثيرة لا قِبَلَ لى بإجابتكم إليها فى مثل هذا المقام ، فستطالبونى بالكلام عن عدالة عمر فى الملكية العامة ومقارنتها بنظام رومانيا وغيرها وبالاشرائية وغيرها ، وستطالبونى بإصلاحاته وفتوحاته ، كما أنكم لا مفرَّ ستطالبونى بالكلام عن زُهدِهِ ، والكلام عن عدله ، وتطالبونى بالكلام عن نهيه عن التنطع فى كل شىء فى الدين ، وفى ثَمِّ الحجارة وفى رواية الأحاديث ، وفى المشية ، وفى خِيَلِ الشَّباب ، وطَرَائِفِ الإِهَاب ، ثم تطالبونى بوفائه للعهد ، ووفاء أُمته للعهد حتى إذا أعطاه عبد لدولة ، وتطالبونى بالكلام عن آثاره ومآثره ، وتطالبونى بالكلام عن خطبه وكلامه ، وقضائِهِ وولاتِهِ ، وصحابته ورفاقه . وتطالبونى بالكلام عن حروبه مع الفرس والروم ، ومع غير الفرس والروم ، ولكننى أقول لكم إن نهيتكم فى الاطلاع لا تشبع ، فلتفهم الآن سرَّ نجاح عمر ، ودولة عمر ، وسياسة عمر ، وأسَّ تعاليم عمر . ثم لنعقب ذلك بقطعة من أدب

العصر ونفسية العصر — نعى بها رسالتى أبى بكر وعمر الى على بن أبى طالب — فيها الغنية والنفع الجزيل .

أخرج الطبرى عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش : « بلغنى أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال : من صحابة فلان ! من جلساء فلان ! حتى تحوِّميت المجالس . . . ! وأيم الله إن هذا لسريع فى دينكم ، سريع فى شرفكم ، سريع فى ذات بينكم ، ولكأنى بمن يأتى بعدكم يقول هذا رأى فلان ! وقد قسموا الاسلام أقساماً . أفيضوا مجالسكم بينكم ، وتجالسوا معاً ، فانه أدوم لألفتكم ، وأهيب لكم فى الناس . اللهم ملؤنى وملأهم ، وأحسوا منى ، ولا أدرى بأينا يكون الكون ، وقد أعلم أن لهم قبلاً منهم فاقبضنى اليك »

آيات والله خالدة !

وعظات لأمة حية من أخرى بائدة !

وصوت من أعماق الأعماق يدعو الى الألفة لا الى التحزب ، والى الوحدة لا الى التفكك ! ولعلكم قد قرأتم ما كان من عمر والهرمزان حينما قال له : « يا عمر إنا وإياكم فى الجاهلية ، كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم ، اذ لم يكن معنا ومعكم ، فلما كان معكم غلبتمونا » فقال عمر : « انما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا »

(١١)

رسالتا أبى بكر وعلى

ولنتقل الآن سراعاً الى دوحة الأدب لنستظل بأفنانها ، ولنستمع بأغصانها : قال أبو حيان على بن محمد التوحيدى البغدادى : سمرنا ليلة عند القاضى أبى حامد أحمد بن بشر المروروذى ببغداد ، فتصرف فى الحديث كل متصرف : وكان غزير الرواية ، لطيف الدراية ، فجرى حديث السقيفة ، فركب كل مركباً ،

وقال قولاً ، وعرض بشيء ، ونزع الى فنّ . فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصديق^(١) ، رضى الله عنه ، الى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وجواب علىّ عنها ، ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة ؟ فقال الجماعة : لا والله ؛ فقال : هي والله من بنات الحقائق ، ومخبات الصنادق ، ومنذ حفظها ما رويتها إلا لأبي محمد المهلب في وزارته ، فكتبها عنى يده . وقال : لا أعرف رسالة أعقل منها ولا أبين ؛ وإنها لتدلّ على علم وحلم ، وفصاحة ونباهة ، وبُعد غور ، وشدة غوص . فقال له العباداني^(٢) : أيها القاضي ، فلو أتممت المنة علينا بروايتها

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة صاحب رسول الله وأول خليفة له في الاسلام وخطيب يوم السيفة .

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين وبضعة أشهر . ونشأ من أكرم قريش خلقاً ، وأرجحهم حلاً ، وأسماهم يداً ، وأشدّهم عفة . وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرها .

صحب رسول الله قبل النبوة . وكان أول من آمن به من الرجال وصده في كل ما جاء به ، ولذلك سمي الصديق ، وأنفق أمواله في تأييد دعوته وهاجر معه الى المدينة ، ووثراً صحبته على كل أهله وولده ، وشهد معه أكثر الغزوات . وما زال ينفق ماله وقوته في معاضدة رسول الله حتى انتهل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى . واختلفت العرب ، وارتدت عن الاسلام ، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وتقيف بالطائف جرد عليهم الجيوش حتى قمعهم ، وجمع العرب على الاسلام ، وسافهم توأ الى فتح ممالك كسرى وقبصر . وما مان إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم . وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً ، خطيباً مفوّهاً ، حاصر البديهة ، قوى الحجة ، شديداً التأثير ، شهد بذلك خطبته يوم السيفة ، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفة له عليهم ، فأبى الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم وأبي المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم . واشتد النزاع حتى كادت تقع الفتنة فخطبهم خطبه لم يلبث الجميع بعدها أن يبايعوه خليفة . وكانت وفاته سنة ١٣ هـ ومدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

(٢) العباداني . نسبة الى عبادان ، وعبادان ، موضع منسوب الى عباد بن حصين الحبلى لأنه أول من رابط به فنسب اليه بزيادة الألف والنون على طريقة أهل البصرة ونواحيها في النسب ، فانهم اذا سمو موضعاً ونسبوه الى رجل أو صفة يزيدون في آخره ألفاً ونوناً ، كقولهم في قرية عندهم منسوبة الى زياد بن أبيه : زيادان ، وأخرى الى عبد الله : عبد اللبان ، وأخرى الى بلال بن أبي بردة : بلالان . وعبادان هذه تحت البصرة قرب البحر الملح ، فان دجلة اذا قاربت البحر انفرقت فرقتين عند قرية تسمى المحرزي ، ففرقة يركب فيها الى ناحية البحرين نحو بر العرب وهي اليمنى ، فاما اليسرى فيركب فيها الى سيراك وجابة فارس فهي مثلثة الشكل وعبادان في هذه الجزيرة التي بين النهرين ، وهي موضع ردى ، سبخ لا خير فيه ، وماؤه ملح ، وفيه مشهد لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه . اهـ (ملخصاً من ياقوت ج ٣ ص ٩٨ طبع جوتنجن)

أُسمِعناها ، فنحن أوعى لك من المهلبي ، وأوجب ذماماً عليك ؛ فاندفع وقال :
 حدثنا الخزاعي بمكة عن أبي ميسرة ، قال حدثنا محمد بن فليح^(١) عن عيسى بن
 دأب^(٢) أبو النفاح^(٣) قال سمعت مولاى أبا عبيدة يقول : لما استقامت الخلافة
 لأبي بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنه كاد الشيطان بها . فدفع
 الله شرها ويسر خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ تلکؤ وشماس^(٤) ، وتهم^(٥) ونفاس^(٦)
 فكره أن يتمادى الحال فبدؤ العورة ، وتشتعل الجمره ، وتفرق ذات البين ؛
 فدعاني بحضرته فى خلوة ، وكان عنده عمر بن الخطاب رضى الله عنه وحده فقال :
 يا أبا عبيدة ، ما أئمن ناصيتك ، وأبئن الخير بين عينيك ، وطالما أعز الله بك
 الإسلام وأصلح شأنه على يدك . ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم
 بالمكان المحوط ، والمحل المغبوط ؛ ولقد قال فيك فى يوم مشهود : « لكل أمة
 أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » ، ولم تزل للدين ملتجياً ، وللمؤمنين مرجئاً ،
 ولأهلك ركناً ، ولإخوانك رداء . قد أردت لك لأمر خطره نخوف ، وإصلاحه
 من أعظم المعروف ، ولئن لم يندمل جرحه ييسارك^(٧) ورفقك ، ولم تجب^(٨) حيتته
 برؤيتك ، وقع اليأس ، وأغضل اليأس ؛ وأحتيج بعد ذلك الى ما هو أمر منه
 وأغلق ، وأعسر منه وأغلق ، والله أسأل تمامه بك ، ونظامه على يدك . فتأت

(١) كذا فى خلاصة تذهيب التهذيب للخزرجى . وفى صبح الأعشى (ج ١ ص ٢٣٧ طبع بولاق)
 ابن أبى فليح ولم تقف عليه فى كتب التاريخ .

(٢) كذا فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (ج ٢ ص ٥٩٣ طبع مطبعة الحلبي) والمثبه فى
 أسماء الرجل للذهبي وتاج العروس مادة (د أ ب) وفى صبح الأعشى « ابن دأب » ولم تقف عليه فى
 كتب التاريخ أيضاً .

(٣) كذا وردت هذه الكنية فى محاضرة الأبرار لابن العربى (طبع مطبعة السعادة) ونص على أن
 أبا النفاح مولى أبى عبيدة بالنون والفاء . وفى صبح الأعشى « ابن الناح » ولم تقف عليه فى كتب التاريخ .

(٤) الشماس : المعادة والمعاندة (٥) تهيم الشيء : طلبه وتحسسه (٦) نفاس فى الشيء منافسة :
 رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة (٧) كذا فى صبح الأعشى ونهاية الأرب للنويرى (ج ٧ ص ٢١٦)
 طبع دار الكتب وفى محاضرة الأبرار (ج ٢ ص ١١١) : بمسارك . والمسبار : فتيل يدخل فى الجرح
 ليعرف كم عمقه ؛ يقال : سبرت الجرح إذا اختبرته بالمسبار (٨) تجب : تقطع

له^(١) أبا عُبَيْدَةَ وتَلَطَّفَ فيه ، وأنصَحَ لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم ،
ولهذه العِصَابَةُ غيرَ آلٍ جَهْدًا ، ولا قَالٍ حَمْدًا ، والله كائِكَ وناصِرُكَ . وهاديكَ
ومبصِّرُكَ ، إن شاء الله . امض الى عليٍّ واخْفِضْ له جناحَكَ ، واغْضُضْ عنده
صوتَكَ ، واعلم أنه سُلَالَةٌ أَبِي طَالِبٍ ، ومكانُهُ مَمَّنْ فَقَدْنَاهُ بِالْأَمْسِ — صلى الله
عليه وسلم — مكانُهُ . وقل له : الْبَحْرُ مَغْرَقَةٌ ، وَالْبَرُّ مَفْرَقَةٌ ، وَالْجَوْزُ أَكْلَفُ^(٢) ،
وَاللَّيْلُ أَغْدَفُ^(٣) ، وَالسَّمَاءُ جَلَوَاءُ^(٤) ، وَالْأَرْضُ صَلْعَاءُ^(٥) ، وَالصَّعُودُ مُتَعَذِّرٌ
وَالهَبُوطُ مُتَعَسِّرٌ ، وَالْحَقُّ عَطُوفٌ رِءُوفٌ ، وَالْبَاطِلُ عَنُوفٌ عَسُوفٌ ، وَالْعَجَبُ
قَدَاحَةٌ^(٦) الشَّرُّ ، وَالضَّغْنُ رَائِدُ الْبَوَارِ ، وَالتَّعْرِيطُ شِجَارُ^(٧) الْفِتْنَةِ . وَالْقِحَّةُ ثَقُوبُ^(٨)
الْعِدَاوَةِ ، وَهَذَا الشَّيْطَانُ مَتَكِيٌّ عَلَى شِمَالِهِ ، مَتَحِيلٌ يَمِينُهُ ، نَافِخٌ حِضْنِيهِ^(٩) لِأَهْلِهِ
يَنْتَظِرُ الشَّتَاتِ وَالْفُرْقَةَ ، وَيَدِبُّ بَيْنَ الْأُمَّةِ بِالشَّحْنَاءِ وَالْعِدَاوَةِ ، عُنَادًا لِلَّهِ عز وجل
أَوَّلًا ، وَلِآدَمَ ثَانِيًا ، وَلِنَبِيِّهِ — صلى الله عليه وسلم — وَدِينِهِ ثَالِثًا . يُوسَّوِسُ
بِالْفُجُورِ ، وَيَدْلِي بِالْغُرُورِ ، وَيَمْنِي أَهْلَ الشَّرِّ . يُوجِي إِلَى أَوْلِيَائِهِ زُخْرُفَ الْقَوْلِ
غُرُورًا بِالْبَاطِلِ ، دَابًّا لَهُ مُنْذُ كَانَ عَلَى عَهْدِ آدَمَ صلى الله عليه وسلم ، وَعَادَةً
لَهُ مِنْذُ أَهَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سَالِفِ الدَّهْرِ ، لَا مَنَحَى مِنْهُ إِلَّا بَعْضُ النَّاجِذِ عَلَى الْحَقِّ
وَعَظْ الطَّرْفِ عَنِ الْبَاطِلِ ، وَوَطْءُ هَامَةِ عَدُوِّ اللَّهِ بِالْأَشَدِّ فَالْأَشَدِّ ، وَالْأَكْدِ
فَالْأَكْدِ ، وَإِسْلَامُ النَّفْسِ لِلَّهِ عز وجل فِي ابْتِغَاءِ رِضَاهِ ، وَلَا بَدْءَ الْآنَ مِنْ قَوْلٍ
يَنْفَعُ إِذَا ضَرَّ السَّكُوتُ وَخِيفَ غَيْبُهُ ؛ وَلَقَدْ أَرْشَدَكَ مِنْ أَفَاءِ^(١٠) ضَالَّتِكَ ، وَصَافَاكَ

(١) تَأْتِي فَلَانُ لِلْأَمْرِ : تَهَيَّأَ لَهُ وَأَتَاهُ مِنْ وَجْهِهِ (٢) الْحَوَّاءُ أَكْلَفُ : أَسْوَدُ تَعْلُوهُ حَمْرَةٌ

(٣) اللَّيْلُ أَغْدَفُ : مَرَّخٌ سَدُولُهُ مَظْلَمٌ كُنِيَ بِهِدَا عَنْ اشْتِبَاهِ الْأُمُورِ وَخَفَاءِ طَرِيقِ الْهَدَايَةِ

(٤) السَّمَاءُ جَلَوَاءُ : مَصْحَبَةٌ (٥) الْأَرْضُ صَلْعَاءُ : خَالِيَةٌ لَا شَجَرَ فِيهَا (٦) الْقَدَاحَةُ بِتَشْدِيدِ

الدَّالِ : حَجَرُ الزُّنْدِ (٧) كَدَا فِي صَحْحِ الْأَعَشِيِّ . وَفِي نَهَايَةِ الْأَرْبِ « سَجَالٌ » جَمْعُ سَجَلٍ بَفَتْحٍ أَوَّلُهُ

وَسَكُونُ ثَانِيهِ وَهُوَ الدُّلُ الْعَظِيمَةُ (٨) الثَّقُوبُ بَفَتْحِ الثَّاءِ : مَا تَشْعَلُ بِهِ النَّارُ مِنْ دِفَاقِ الْعِيدَانِ

(٩) نَافِخٌ حِضْنِيهِ : أَيُّ مُسْتَعِدٍّ لِأَنْ يَعْمَلَ عَمَلَهُ مِنَ الْفَرِّ (١٠) أَفَاءُ : أَرْجَمَ

من أخصا مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من أثر البقاء معك ؛ ما هذا الذى
تسؤل لك نفسك ، ويدوى^(١) به قلبك ، ويلتوى عليه رأيك ، ويتخاوص^(٢)
دونه طرفك ، ويسرى فيه ظعنك ، ويتراذ معه نفسك ، وتكثر عنده صعداؤك ،
ولا يفيض به لسانك . أعجبة بعد إفصاح ! أتليس بعد إيضاح ! أدين غير
دين الله ! أخلق غير خلق القرآن ! أهذى غير هدى النبي صلى الله عليه وسلم !
أمثلى « تمشى له الضراء^(٣) » وتدب له الحمر ! « أم مثلك ينقبض عليه الفضاء ،
ويكسف^(٤) في عينه القمر ! ما هذه القعقة^(٥) بالشان^(٦) ! وما هذه الوعوة
باللسان ! إنك والله جد عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ،
وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا ، هجرة الى الله عز وجل ، ونصرة
لدينه في زمان أنت فيه في كن الصبا ، وخذر الغرارة ، وعنفوان الشببة ، غافل
عما يشيب ويريب ، لا تعى ما يراد ويشاد ، ولا تحصل ما يساق ويقاد ، سوى
ما أنت جار عليه الى غايتك التى اليها عدل بك ، وعندها حط رحلك ، غير
مجهول القدر ولا مجحود الفضل ؛ ونحن في أثناء ذلك نعانى أحوالاً تزيل الرّواسى
ونُقاسى أهوالاً تشيب النواصى . خائضين غمارها ، راكبين تيارها ، تتجرع
صابها ، ونشرح^(٧) عيائها ، ونحكم آساسها ، ونبرم أمراسها^(٨) ، والعيون تحدج

(١) يدوى : من الدوى بفتح الواو ، وهو داء باطن فى الصدر (٢) التخاوص : غض البصر مع
تحديق كمن يقوم سهماً (٣) قال فى اللسان مادة ضراء : يقال للرجل اذا اختل صاحبه ومكر به :
هو بدب له الضراء ، ويمشى له الحمر ، وقال لا أمشى له الضراء ولا الحمر ، أى أخمر ، ولا أخاتله ،
والضراء والاستخفاء ، ثم قال بعد ذلك نقلا عن ابن شميل : ما وارك من شىء وادرات به فهو خمر

(٤) نقل عن ثعالب أن الأجود أن يقال : كسفت الشمس ، وخسف القمر أنظار اللسان والمصاح
مادة (خسف) (٥) قال فى اللسان مادة تمع . وفى المثل لا يقع له بالشان أى لا يخدع ولا يروع
وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع (٦) الشان جمع شن وهو القربة الخلق الصغيرة .

(٧) نشرح عيائها : ننضدها ونضم بعضها الى بعض . والعياب : جمع عيبة ، وهى زنبيل من آدم تجعل
فيه الثياب (٨) جمع مرس ككتف وهو الجبل

بالحسد ، والأنوف تَعْطِسُ بالكبر ، والصدور تَسْتَعْرِبُ بالغيظ ، والأعناق تتطاول
 بالفخر ، والشَّفَارُ تُشْجَدُ بالمكر ، والأرض تميد بالخوف ؛ لا ننظر عند المساء
 صباحاً ، ولا عند الصباح مساء ، ولا ندفع في نحر أمر إلا بعد أن نحسُّو الموتَ
 دونه ، ولا نبليغ مُراداً إلا بعد الإياس من الحياة عنده ؛ فإدين في جميع ذلك رسولُ
 الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم ، والخال والعم ، والمال والنَّشَب ، والسَّبَدُ^(١)
 واللَّبَد ، والهِلَّةُ^(٢) ، والبِلَّةُ ، بطيب أنفُس ، وقرَّة أعين ، ورَحْبُ أعطان ، وثباتِ
 عزائم ، وصحة عقول ، وطلاقة أوجه ، وذلاقة ألسُن ؛ هذا مع خفيات أسرار ،
 ومكنونات أخبار ، كنت عنها غافلاً ، ولولا سِنَّكَ لم تكن عن شيء منها ناكلاً ،
 كيف وفؤادُك مشهور^(٣) ، وعودُك معجُوم ! . والآن قد بلغ الله بك وأنهمض
 الخير لك ، وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم أقول ما تسمع ؛ فارتقب زمانك ،
 وقلص^(٤) أرذالك ، ودع التقعُّس^(٥) والتجسُّس لمن لا يظلم لك إذا خطا ، ولا يترجح
 عنك إذا عطا^(٦) ؛ فالأمر غصن ، والنفوس فيها مض^(٧) ، وإنك أديم هذه الأمة
 فلا تحلم^(٨) لجأجا ، وسيفها العَضْب ، فلا تنبُ أعوجاجا ، وماؤها العَذْب فلا
 تحلُ أجاجا . والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر . فقال
 لي : « يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يُجَاحِشُ^(٩) عليه ، ولمن يتضاءل عنه
 لا لمن يتنفج^(١٠) إليه ، هو لمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لي » .

(١) السبد : الشعر . واللبد : الصوف (٢) يقال : جاءنا فلان فلم بأنا بهلة ولا بلة ، أى لم يأتنا
 بشيء ، فالهلة من الفرح والاستهلال . والبلة من البال والخير (٣) مشهور (بالشين المعجمة) : ذكى
 الفؤاد متوقد (٤) التقايس : النشيم (٥) التقعس : التأخر كالتقايس (٦) عطا : مد اليك عنقه
 وأقبل نحوك (٧) المض : الألم والحزن . (٨) حلم الجلد : وقع فيه الحلم بفتح اللام : وهو دود
 يقع في الجلد فيأكله ، فاذا دغ وهو موضع الأكل منه ، يريد أنه الذى يجتمع به شمل الأمة وتضامن به
 أمورها ، فاذا فسد تفرق ما كان مجتمعاً منها كالأديم الذى يسان به سائر البدن (٩) يجاحش عليه :
 يطلبه ويدافع عنه (١٠) الانتفاج : الارتفاع ، أو هو مستعارها من قولهم ، انتفجت الأرنب إذا وثبت ،
 ومعنى العبارة يستقيم على كلا التفسيرين

ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصَّهْرُ ، فذكر فتياناً من قريش فقلت : أين أنت من عليّ ! فقال صلى الله عليه وسلم : إني أكره لفاطمة مِيعَةً شبابه ، وحدّاثه سنه . فقلت له : متى كَنَفْتَهُ يَدُكَ ، ورَعْتَهُ عَيْنُكَ ، حَفَّتْ بهما البركة ، وأسبغت عليهما النعمة ؛ مع كلام كثير خاطبته به رغبةً فيك ، وما كنت عرفت منك في ذلك لا حَوْجَاءَ^(١) ولا لَوْجَاءَ ، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك ، وأجد رائحةَ سِوَاكَ ؛ وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لي . ولئن كان عرّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر ، فلم يكن مُعرِضاً عن غيرك : وإن كان قال فيك فما سكت عن سِوَاكَ ؛ وإن تلجّج في نفسك شيء فهِلْمُ ، فالحكم مرضى ، والصواب مسموع ؛ والحق مُطَاع . ولقد نُقِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل ، وهو عن هذه العِصَابَةِ راض ، وعليها حَذِر ، يسره ما سرّها ، ويسوءه ما ساءها ، ويكيده ما كادها ، ويرضيه ما أرضاها ، ويُسْخِطُه ما أسخطها . أما تعلم أنه لم يَدْعُ أحداً من أصحابه وأقاربه وسُجَرَاءِهِ^(٢) ، إلا أبانه بفضيلة ، وخصّه بترية . وأفرده بحالة ! أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سُدىً بدداً ، عِبَاهِلَ^(٣) مباهل ، طَلَاخِي^(٤) مفتونةً بالباطل ، مغبونة^(٥) عن الحق ، لا رائد ولا ذائد ، ولا ضابط ولا حائط ، ولا ساقى ولا واقى ، ولا هادى ولا حادى ! كلا ! والله ما أشتاق الى ربه تعالى ولا سأله المصير الى رضوانه وقربه ، إلا بعد أن ضرب المَدَى^(٦) وأوضح الهدى ، وأبان الصَّوَى^(٧) ، وأمن المسالك

(١) أى ما كنت عرفت منك شيئاً . (٢) سَجَرَاتُهُ : أصدقائه (٣) العباهل من الابل :

المهمله ، والمباهل بمعناه ، استعار ذلك الذين تهرقت كلماتهم وتشتت شملهم .

(٤) الطلاخى : الابل التى تشتكى بطونها من أكل الطاح ، أراد به هنا للفوم الذين لا راعى لهم يصدّم

عما يضرهم ، ولا قانون يمنعهم عن أن يردوا موارد تسوءهم ، فهم يتبعون ما تفودم اليه الشهوة كالابل التى تأكل من الطلح الذى يؤذيها حتى تشتكى بطونها (٥) كذا فى صبح الأعشى . وفى نهاية الأرب

« معنونة » من عنت الفرس أى جستته بالعنان (٦) ضرب المدى ، يريد بين الغاية

(٧) الصوى بضم الصاد المهمله : حجارة مركومة فى الطريق تجعل أعلاما

والمطارح، وسهل المبارك والمهايع^(١)، وإلا بعد أن شدخ يافوخ^(٢) الشرك بإذن الله،
وشرم وجه النفاق لوجه الله سبحانه، وجدع أنف الفتنة في ذات الله، وتقل في
عين الشيطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل.

وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة ودار جامعة،
إن استقالوني لك وأشاروا عندي بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم
فيك. وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكُن العونَ على
مصلحتهم، والفاتحَ لمغالقتهم^(٣)، والمرشدَ لضلالتهم، والراذعَ لغوايتهم. فقد أمر
الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، والتناصر على الحق. ودعنا تقضى هذه الحياة
الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن.

وبعد فالناس ثمانية^(٤) فارق بهم وأحن عليهم ولين لهم، ولا تُشق نفسك
بنا خاصة فيهم، وأترك ناجم الحقد حصيداً، وطارئ الشر واقعاً، وباب الفتنة
مُغلقاً، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع، والله على ما نقول شهيد، وبما نحن
عليه بصير.

قال أبو عبيدة: فلما تأهبت للنهوض، قال عمر رضي الله عنه: كُنْ لَدَى الْبَابِ
هَنِيئَةً فَلِي مَعَكَ دُورٌ مِنَ الْقَوْلِ؛ فَوَقَفْتُ وَمَا أَدْرَى مَا كَانَ بَعْدِي، إِلَّا أَنَّهُ لِحَقْنِي
بُوجْهِ يَنْدَى تَهْللاً، وَقَالَ لِي: قُلْ لَعَلِّي: الرِّقَادُ مُحَلَمَةٌ، وَالْهَوَى مَقْحَمَةٌ، وَمَا مِنَّا
إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، وَحَقٌّ مَشَاعٌ أَوْ مَقْسُومٌ، وَنَبَأٌ ظَاهِرٌ أَوْ مَكْتُومٌ؛ وَإِنْ أَكَيْسَ
الْكَيْسِ مِنْ مَنَحِ الشَّارِدِ تَأْلُفًا، وَقَارَبِ الْبَعِيدِ تَلَطُّفًا، وَوَزَنَ كُلَّ شَيْءٍ بِمِيزَانِهِ،

(١) المهايع: الطرق (٢) البافوخ (يهمز ولا يهمز): جزء الرأس الذي يتحرك في الطفل
(٣) المغالق: جمع مغلوك بكسر الميم، والمغلوك: ما يغلق به الباب كالمغلاق كما في شرح القاموس مادة
(غلوك) قلاعن الراغب (٤) الثمامة بضم التاء: واحدة الثمام، وهو نبت ضعيف له خوص، وربما
حشي به وسدت به خصاص البيوت ويشبه به في الضعف

ولم يَخْلُطْ خبرَه بعيانه ، ولم يجعل قِترَه مكان شبره ، دينًا كان أو دُنْيَا ، ضلالًا كان أو هُدًى . ولا خير في علم مستعملٍ في جهل ، ولا خير في معرفة مشوئية بنكر . ولسنا بجلدة رُفَع^(١) البعير بين العجبان والذنب . وكل صالٍ فبناره ، وكل سيلٍ فالى قراره . وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لعمى وشي^(٢) ، ولا كلامها اليوم لفرقٍ أو رفق . وقد جدد الله بنحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل ذى كبر ، وقصم ظهر كل جبار ، وقطع لسان كل كذوب ، فإذا بعد الحق إلا الضلال . ما هذه الخنزروانة^(٣) التى فى فراش^(٤) رأسك ! ما هذا الشجبا المعترض فى مدارج أنفاسك ! ما هذه القذاة التى تغشت ناظرَكَ ! وما هذه الوحرة^(٥) التى أكلت شرَاسيفك ! وما هذا الذى لبست بسببه جلد النمر ، واشتملت عليه بالشحناء والنكر ! ولسنا فى كسروية كسرى ، ولا فى قيصرية قيصر ! تأمل لإخوان فارس وأبناء الأصفر ! قد جعلهم الله جزراً لسيوفنا ، ودريةً لرماحنا ، ومرمى لطماننا ، وتبعاً لسلطاننا ؛ بل نحن فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة ، وأثره رحمة ! وعنوان نعمة ، وظل عصمة ، بين أمة مهدية بالحق والصدق ، مأمونة على الرتق والفتق ، لها من الله قلبٌ أبى ، وساعدٌ قوى ، ويدٌ ناصرة ، وعينٌ باصرة . أظن ظناً يا على أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مُفتاتاً على الأمة خادعاً لها أو متسلطاً عليها ! أترأه حل عقودها وأحال عقولها ! أترأه جعل نهارها ليلاً ، ووزنها كيلاً ، ويقظتها رُقاداً ، وصلاحها فساداً !

(١) الرفع : أصل الفخذ من باطن . والعجان : الاست : يريد أن منزلتهم بين الأحياء والعشار ليست حقيرة مهينة . (٢) الشى بكسر الشين : إنباع للمى . (٣) الخنزروانة : الكبر . (٤) فراش الرأس : عظام دقاقها إلى القحف . (٥) الوحرة : ضرب من العطاء وهى صغيرة حمراء فى الجباين لها ذنب دقيق تمصع به إذا عدت وهى أخذت العطاء لا تظأ طعاماً ولا شراباً إلا شمتته ولا يأكله أحد إلا دغى بطنه ، وربما هلك ، شبه العداوة والفل بها . قال فى اللسان مادة (وحر) : الوحرة غش الصدر وبلابله ويقال : إن أصل هذا من الدوية يقال لها الوحرة ، ثم قال : شهبوا العداوة ولزوقها بالصدر بالتراق الوحرة بالأرض ..

لا والله ! سَلَا عنها فَوَلَّهَتْ له ، وَتَطَامَنَ لها فَلَصِقَتْ به ، وَمَالَ عنها فَمَالَتْ إليه ،
وَأَشْمَازَ دونها فَأَشْتَمَلَتْ عليه ، حَبُوءٌ حَبَاهُ اللهُ بها ، وَعَاقِبَةٌ بَلَّغَهُ اللهُ إليها ، وَنِعْمَةٌ
سَرَّ بِلَهْ جَمَالَهَا ، وَيدٌ أَوْجَبَ اللهُ عليه شُكْرَهَا ، وَأَمَّةٌ نَظَرَ اللهُ بهِ إليها ، وَاللهُ أَعْلَمُ
بِمَخْلَقِهِ ، وَأَرَأَفُ بِعِبَادِهِ ، يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ . وَإِنَّكَ بِحَيْثُ لَا يُجْهَلُ مَوْضِعُكَ
مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَلَا يُجْحَدُ حَقُّكَ فِيمَا آتَاكَ اللهُ ، وَلَكِنْ لَكَ مَنْ
يَزَاحِمُكَ بِمَنْكَبٍ أَضْخَمَ مِنْ مَنْكَبِكَ ، وَقُرْبٍ أَمْسَ مِنْ قَرَابَتِكَ ، وَسَنٍّ أَعْلَى
مِنْ سَنِّكَ ، وَشَيْبَةٍ أَرْوَعَ مِنْ شَيْبَتِكَ ، وَسِيَادَةٍ لَهَا أَصْلٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَفِرْعٌ فِي
الْإِسْلَامِ ، وَمَوَاقِفَ لَيْسَ لَكَ فِيهَا جَمَلٌ وَلَا نَافَةٌ ، وَلَا تُذْكَرُ مِنْهَا فِي مَقْدَمَةٍ وَلَا
سَاقَةٍ ، وَلَا تَضْرِبُ فِيهَا بِذِرَاعٍ وَلَا بِإِصْبَعٍ ، وَلَا تَخْرُجُ مِنْهَا بِبَازِلٍ^(١) وَلَا هُبْعٍ .
وَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ حَبَّةَ قَلْبٍ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِلَاقَةَ نَفْسِهِ ، وَعَيْنِيَّةَ
سِرِّهِ ، وَمَفْزَعَ رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ ، وَرَاحَةَ كَفِّهِ ، وَمَرْمَقَ طَرَفِهِ . وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَحْضَرِ
الْصَادِرِ وَالْوَارِدِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، شَهْرَتُهُ مَغْنِيَةٌ عَنِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ ، وَلَعُمْرِي
إِنَّكَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَابَةً ، وَلَكِنَّهُ أَقْرَبُ مِنْكَ قَرَبَةً^(٢)
وَالْقَرَابَةُ لَحْمٌ وَدَمٌ ، وَالْقُرْبَةُ نَفْسٌ وَرُوحٌ . وَهَذَا فَرَقٌ عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلِذَلِكَ صَارُوا
إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ . وَمَهْمَا شَكَّكَتَ فِي ذَلِكَ ، فَلَا تَشْكُ أَنْ يَدَّ اللهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، وَرِضْوَانَهُ
لِأَهْلِ الطَّاعَةِ . فَادْخُلْ فِيمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ الْيَوْمَ وَأَنْفَعُ لَكَ غَدًا . وَالْفِطْرُ مِنْ فَيْكَ
مَا يَمْلَقُ بِلَهَاتِكَ ، وَأُنْقُتْ سَخِيمَةُ صَدْرِكَ عَنْ تَقَاتِكَ ، فَإِنْ يَكُ فِي الْأَمَدِ طَوْلٌ
وَفِي الْأَجْلِ فُسْحَةٌ ، فَسْتَأْكُلُهُ مَرِيئًا أَوْ غَيْرَ مَرِيءٍ ، وَتَشْرِبُهُ هَنِيئًا أَوْ غَيْرَ هَنِيءٍ
حِينَ لَا رَادَّ لِقَوْلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ آيِسًا مِنْكَ ، وَلَا تَابِعَ لَكَ إِلَّا مَنْ كَانَ طَامِعًا فَيْكَ ،
يَمْضُ^(٣) إِهَابَكَ ، وَيَعْرُكُ^(٤) أَدِيمَكَ ، وَيُزْرِى عَلَى هَذِيكَ . هُنَالِكَ تَقَرَّعُ السَّنَّ

(١) البازل : الجمل القوي الذي دخل في سنته التاسعة . والهبع : المعصيل الذي ينتج في الصيف

فيكون ضعيفاً (٢) القرية : الوسيلة (٣) يمض إهابك : يحرق جلده (٤) يعرك : يبدك

من ندم، وتَجَرَّع الماءَ ممزوجاً بدم، وحينئذٍ تَأْسَى على ما مضى من عمرِكَ ودارجِ قوتِكَ، فتودُّ أن لو سُقِيتَ بالكأسِ التي أَيْتَهَا، ورُدِدْتَ إلى حالتِكَ التي أَسْتغْوَيْتَهَا. والله تعالى فينا وفيكَ أمرٌ هو بالغةٌ، وغيبٌ هو شاهدةٌ، وعاقبةٌ هو المرجو لسرَّائها وضرَّائها، وهو الوليُّ الحميد، الغفورُ الودود.

قال أبو عبيدة: فتمشيت متزماً^(١) أنوء كأنما أخطو على رأسي فرقاً من الفرقة، وشفقاً على الأمة، حتى وصلت إلى علي^(٢) رضي الله عنه في خلاء، فابتشته^(٣) بيَّ كَلَّهُ، وبرئت إليه منه، ورفقت به. فلما سمعها ووعاها، وسرت في مفاصله حميَّها، قال: «حَلَّتْ مُعْلَوِّطَةً^(٤)، وَوَلَّتْ مُخْرَوِّطَةً^(٥)». وأنشأ يقول:

إحدى لياليك فيسي^(٦) هيسي لا تنعمي الليلة بالتعريس

نعم يا أبا عبيدة، أكلُ هذا في أنفُسِ القوم، ويُحَسِّسون به ويَضْطَغنون^(٧) على! قال أبو عبيدة: فقلت: لا جواب لك عندي، إنما أنا قاضٍ حقَّ الدين.

(١) المتزمل: المتلفف، يريد أنه خرج مستخفياً (٢) هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وزوج ابنته. ورابع الخلفاء الراشدين وإمام الخطباء من المسلمين ولد رحمه الله بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة. وهو أول من آمن من الصبيان وكان شجاعاً لا يثقل له غبار. أيداً جليداً. شهد الغزوات كلها مع النبي إلا غزوة تبوك. وأبلى في نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يبله أحد. ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز وامتنع عن بيعته معاوية وأهل الشام شيعة بني أمية غضباً منهم لقتل عثمان وقلة عنايته بالبحث عن القتلة على حسب اعتقادهم، فخذ من جراء ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين واقتراحهم إلى طائفتين فتحاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعل أو لماوية حتى قتل أحد الخوارج علماً غيلةً بمسجد الكوفة. وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسوا الله. وأكثرهم علماً وزهداً وشدة في الحق. وهو إمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر.

(٣) يقال: أبنته السر، إذا أطلعته عليه (٤) المعلوط: من الاعلواط، وهو ركوب الرأس والتفعم على الأمور من غير رواية (٥) المخروطة: السريمة (٦) هو مثل يضرب للرجل ياء الأمر يحتاج فيه إلى الجد والاجتهاد. والهيس بفتح الهاء: السير مطلقاً (٧) أراد بالاضطباع هنا الانطواء والاشتغال، وقد استماره من قولهم: اضطبع الشيء إذا جعله تحت ضبعه، وهما عضداه، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد «يضطغنون» والاضطغان: الاشتغال أيضاً.

ورأتق فتق المسلمين ، وسادُّ ثُلَّةُ الأُمَّةِ ، يعلم الله ذلك من جُلْجُلان^(١) قلبي ،
وَقَرَارَةِ نَفْسِي .

فقال على رضي الله عنه : والله ما كان قُعودي في كِنِ هذا البيت قصداً للخِلاف ،
ولا إنكاراً للمعروف ، ولا زَرَايَةً على مسلم ، بل لما قد وقَدَنِي^(٢) به رسول الله
صلى عليه وسلم من فِرَاقِهِ ، وأودعني من الحزن لفَقْدِهِ . وذلك أني لم أشهد بعده
مَشْهَداً إلا جَدَّدَ على حزنًا ، وذَكَّرَنِي شَجَنًا . وإن الشوق إلى اللِّحاق به كافٍ عن
الطمع في غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرَّق ، رجاء ثواب
مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومَشِيئته ، وأمره ونهيهِ . على أني ما علمت أن
التظاهر على واقع ، ولا عن الحق الذي سيق إلى دافع . وإذ قد أفعِم الوادي بي ،
وحُشِدَ النّادي من أجلى ، فلا مرحباً بما ساء أحدًا من المسلمين وسرّني . وفي النفس
كلامٌ لو لا سابقُ عقد وسالف عهد ، لَشَفِيتُ غِيظِي بِمُخْنَصَرِي وَبِنَصَرِي ، وخُضْتُ
لُجَّتَهُ بِأَخْمَصِي وَمَفَرَقِي ، ولكنتي مُلْجَمٌ إلى أن ألقى الله ربي ، وعنده أُحْتَسِبُ
ما نزل بي . وإني غادٍ إلى جماعتكم ، فبإيع صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءني وسرّكم ،
لِيَقْضِيَ الله أَمْرًا كان مفعولاً . .

قال أبو عُبَيْدَةَ : فعدت إلى أبي بكر رضي الله عنه فَقَصَصْتُ عليه القول على
غَرِّهِ^(٣) ، ولم اختزل شيئًا من حُلُوه ومُرِّهِ ، وبَكَرْتُ غُدُوَّةً إلى المسجد ، فلما كان
صباحُ يومئذ وإذا على مَخْرَقِ الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما فبايعه ، وقال
خيرًا ، ووصف جميلًا ، وجلس زَمِينًا^(٤) ، وأُستأذن للقيام فضى وتبعه عمر مُكْرِمًا
له ، مستأثرًا لما عنده .

(١) جُلْجُلان القلب : سويداؤه (٢) وقده : تركه عيلا . (٣) على غره : أي كما هو وكما

فص على (٤) زمينا : حليًا وقوراً .

فقال على رضى الله عنه : ما قعدتُ عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيتُهُ فرقا ، ولا أقول ما أقول تَعْلَةً . وإني لأعرف منتهى طرفي ، ومَحْطَ قَدَمي ، وَمَنْزَعَ قَوْسي ، ومَوْقِعَ سَهْمِي ؛ ولكن قد أُرْزَمْتُ على فَأْسِي ^(١) ثِقَّةً بربِّي في الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنه : كَفِّكَ غَرْبَكَ ، وأَسْتَوْقِفُ سِرْبَكَ ، ودَعِ الْعِصَى بِلِحَائِهَا ، والدَّلَاءَ على رِشَائِهَا ، فَإِنَّا مِنْ خَلْفِهَا وورائِهَا ، إِن قَدَحْنَا أَوْ رَيْنَا ، وَإِن مَتَحْنَا أَوْ رَوَيْنَا ، وَإِن قَرَحْنَا أَدْمَيْنَا ، ولقد سمعتُ أمأثِلَكَ التي لَغَزَتْ ^(٢) بها عن صدرٍ أَكَلَ بِالْجَوَى ، ولو شئتُ لَقَلْتُ على مَقَالَتِكَ ما إِن سمعته نَدِمْتَ على ما قَلْتَ . وزعمتَ أَنَّكَ قعدتَ في كَنْ يَتِيكَ لما وَقَدَكَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فَقْدِهِ ، فهو وَقَدُكَ ولم يَقْدُ غَيْرَكَ ! بل مصابه أعظم وأعم من ذلك ، وَإِن من حق مُصَابِهِ إِلَّا تَصْدَعُ شَمْلَ الْجَمَاعَةِ بِفُرْقَةٍ لَا عَصَامَ لَهَا ، ولا يَوْمَن كِيدُ الشَّيْطَانِ في بَقَائِهَا . هذه العرب حولنا ، والله لو تَدَاعَتْ عَلَيْنَا في صَبْحِ نَهَارٍ لم نَلْتَقِ في مَسَائِهِ . وزعمتَ أَنَّ الشَّوْقَ إِلَى اللَّحَاقِ به كَافٍ عَنِ الطَّمَعِ في غَيْرِهِ ! فمن علامة الشَّوْقِ إِلَيْهِ نَصْرَةٌ دِينِهِ ، ومُؤَاوَزَةٌ أَوْلِيَائِهِ ومَعَاوَتُهُمْ . وزعمتَ أَنَّكَ عَكَفْتَ على عهد الله تَجْمَعُ ما تَفَرَّقَ منه ؛ فمن الْعَكُوفِ على عهد الله النَّصِيحَةُ لِعِبَادِ اللَّهِ ، والرَّأْفَةُ على خَلْقِ اللَّهِ ، وبَذْلُ ما يَصْلُحُونَ به ، وَيَرْشُدُونَ عَلَيْهِ ، وزعمتَ أَنَّكَ لم تعلم أَنَّ التَّظَاهِرَ واقعٌ عَلَيْكَ ، وَأَيُّ حَقٍّ لُطٌّ ^(٣) دُونَكَ ! . قد سمعتَ وعلمتَ ما قال الْأَنْصَارُ بِالْأَمْسِ سِرًّا وَجَهْرًا ، وَتَقَلَّبْتَ عَلَيْهِ بَطْنًا وَظَهْرًا ، فهل ذَكَرْتُ أَوْ أَشَارْتُ بِكَ ، أَوْ وَجَدْتُ رِضَاهُمْ عَنْكَ ؟ هل قال أَحَدٌ مِنْهُمْ بِلِسَانِهِ إِنَّكَ تَصْلُحُ لِهَذَا الْأَمْرِ ؟ أَوْ أَوْماً بَعِينَهُ أَوْ هَمَّهُمْ ^(٤) في نَفْسِهِ ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ ضَلُّوا مِنْ أَجْلِكَ ،

(١) يقال : أُرْزِمَ الْفَرَسُ عَلَى فَأْسٍ اللَّجَامِ إِذَا عَضَّهَا وَقَبِضَ عَلَيْهَا . وفَأْسُ اللَّجَامِ : الحديدة المعترضة منه في

الحنك . يريد أَنَّهُ أَلْجَمَ نَفْسَهُ ثِقَةً الْخ (٢) كَذَا وَرَدَ هَذَا الْفِعْلُ بِتَشْدِيدِ الْغَيْنِ فِي أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ

(٣) لُطٌّ : جَعْدٌ (٤) الْهَمِيمَةُ : الْكَلَامُ الَّذِي لَا يَصْرَحُ بِهِ

وعادوا كفاراً زهداً فيك ، وباعوا الله تحاملاً عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءني عَقِيل بن زياد الخزرجي في نفرٍ من أصحابه ومعهم شُرَحْبِيل بن يعقوب الخزرجي وقالوا : إن علياً ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من غيره ، وينكر على من يعقد الخلافة ؛ فأنكرتُ عليهم ، ورددتُ القولَ في نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحي ويتوَكَّف^(١) مناجاةَ الملك ؛ فقلت : ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أكان الأمر معقوداً بالأنشُوط^(٢) ، أو مشدوداً بأطراف لِيطة^(٣) ؟ كلا ! والله لا عجماء بحمد الله إلا أفصحتُ ، ولا شوكة إلا وقد تفتحتُ . ومن أعجب شأنك قولك : « ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفيتُ غيظي » وهل ترك الدين لأهله أن يشفوا غيظهم يدي أو بلسان ؟ تلك جاهلية ! وقد استأصل الله شأقتها وأقتلع جرثومتها ، وهوَّـر^(٤) ليلها ، وغوَّـر سيلها ، وأبدل منها الروحَ والريحانَ ، والهدى والبرهانَ . وزعمت أنك مُلجَم ؛ ولعمري إن من اتقى الله ، وآثر رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانه وأطبق فاه ، وجعل سعيه لما وراه .

فقال عليّ رضي الله عنه : مهلاً يا أبا حفص ، والله ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا أريد نكته ، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغي حَولاً عنه . وإن أخسر الناس صفقةً عند الله مَنْ آثر النِّفاق ، واحتضن الشَّقَّاق ، وفي الله سلوةٌ عن كلِّ حادث ، وعليه التوكُّل في جميع الحوادث ، ارجع يا أبا حفص الى مجلسِكَ ناقِع القلب ، مبرود الغليل ، فسيح اللِّبَان^(٥) ، فصيح اللسان ، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشدُّ الازر ، ويحطُّ الوزر ، ويضع الإصر ، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضي الله عنه : فأنصرف عليّ وعمر رضي الله عنهما . وهذا أصعب

ما مرَّ عليّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) يتوَكَّف : ينتظر ، ويقال : فلان يتوَكَّف الأخبار ، نحو يستطير الأخبار (٢) الأنشوطه : عقدة يسهل انحلالها اذا أخذت بأحد طرفيها افتحت (٣) الليطة : قشرة الفصبة التي تلبط بها أي تلتصق (٤) هوَّـر : أذهب (٥) اللبان : الصدر

أصحاب الشخصيات

الى ص	من ص	الاسم
١٧	١	بسمارك
٣٠	١٨	توسان الفاتح
٥٣	٣١	ادوار بوك الهولندى
٦٤	٥٤	الأمريكي فرانك ولورث
٨٤	٦٥	بوكر وشنجتون
١٢٩	٨٥	هنرى فورد
١٥٤	١٣٠	إبراهيم لنكولن
١٨٢	١٥٥	أبو بكر الصديق
٢١٥	١٨٣	عمر بن الخطاب

ملاحظات

(١) اعتمد فى ترتيب هذا الفهرس على أول الاسم دون المبالاة بأل التعريف ، وبألفاظ : الأب والابن والأم والبنت فتنبه لذلك .

(٢) الرقم الأول يدل على رقم الصفحة ، والثانى يدل على السطر ، فمثلاً ٢٦ : ١٥ يدل على صفحة ٢٦ سطر ١٥

(٣) اذا تكرر الاسم فى الصفحة الواحدة فى عدة أسطر اكتفى بذكر أول سطر وقع فيه

أسماء الأعلام

أم كلثوم بنت علي (زوج عمر) ١٩٨ : ١١
 أم المؤمنين عائشة = عائشة أم المؤمنين
 امرأة الأسود العنسي ١٦٨ : ١٩
 أميل درمن ١٦١ : ٤
 أميل لدوج ١١ : ٣ ، ١١ : ٦ ، ٩ : ١٢ ، ٥٠ : ٥٠
 ١١ : ١٢ ، ١٤٢ : ٢١ ، ١٤٦ : ٢٠
 ١٥٠ : ٢١ ، ١٥٧ : ٢ ، ١٨٩ : ١٣
 أمية ١٦٤ : ٢١
 أندرسون ١٤٩ : ١٢
 أنس بن مالك ١٩٧ : ١٣ ، ١٩٨ : ٥
 أنكساغورس ١٨٣ : ١٠
 أوليفر وندل هولمز ٤٧ : ١٠

(ب)

بابيني ١٨٩ : ١٣
 الباقلاني ١٦٢ : ٧
 بركليسي ١٨٣ : ٩
 بسمارك ١٧ - ٢
 البصري ١٥٠ : ١٥
 أبو بكر الصديق ١٥٠ : ١٤ ، ١٥٥ - ١٨٢
 ١٨٣ : ١٣ ، ١٨٥ : ٥ ، ١٨٦ : ٧
 ١٨٧ : ٣ ، ١٨٨ : ١٧ ، ٢٠٢ : ١
 ٢٠٣ : ٢ ، ٢٠٤ : ٤ ، ٢٠٧ : ١٥
 ٢١٠ : ١٥ ، ٢١١ : ١٠ ، ٢١٣ : ١٥
 بلال ٢٠١ : ٢
 بلال بن أبي بردة ٢٠٣ : ٢٦
 بلويتز ١ : ٤ ، ٢ : ١٢
 بندتي سفير فرنسا ١٦ : ٩
 بنيامين فرانكلن ١٢٣ : ١٦

(١)

آرثر مي ١٩ : ٣ ، ٢٢ : ٣ ، ٢٧ : ١٤ ، ٢٩ : ٢٠ ، ٣٠ : ٢١
 إبراهيم لنكون ١٩ : ٦ ، ٢١ : ٦
 ١٢٣ : ١٦ ، ١٣٠ - ١٥٤
 أبوت ١٨٩ : ١٥
 ابن الأثير ١٨٠ : ٣
 أحمد بن بشر المروزي القاضي ٢٠٢ : ١٩
 أحمد بن حنبل ١٧٧ : ٩
 الأحنف بن قيس ١٩٤ : ١١
 إدسل فورد ١١٦ : ٢
 إدوار بوك ٣١ - ٥٣
 أديسن ٩٤ : ١٩ ، ٩٩ : ١٠ ، ١٢٢ : ٣
 أرمستونج (الجنرال) ٧٤ : ١٣ ، ٧٦ : ١٣ ، ٧٩ : ٢ ، ٨٢ : ١٦
 أسامة بن زيد ١٦٥ : ٦ ، ١٦٧ : ١٤
 ١٧٣ : ٧ ، ١٨٢ : ١
 أستيفنس ١٤٦ : ٢
 أسد بن خزيمه ١٦٨ : ٢٧
 الأسدى ١٩٥ : ١٧
 إسكندر الثاني (قيصر روسيا) ١٤ : ١٦
 أسلم (أبو زيد بن أسلم) ١٩٦ : ١١
 الأسود العنسي ١٦٤ : ١٦ ، ١٦٨ : ٨
 ١٧٣ : ٨
 الأسود بن يزيد ١٩١ : ٢١
 أسيد بن حضير ١٧٦ : ٢٢ ، ١٨٦ : ١٥
 أماندا ٦٩ : ١٥

(تتبعه) عنى بوضع هذا الفهرس وترتيبه حضرة الأديب الفاضل محمد عبد الجواد الأصمى أفندى بدار الكتب المصرية

حذيفة بن محصن ١٦٤ : ٨
 الحريري ١٥٨ : ٣
 الحسن ٢٠٠ : ٢١
 الحسن بن أبي الحسن البصري ١٦٥ : ٧
 حضير الكتائب ١٨٦ : ٢٢
 حمزة عم النبي (صلى الله عليه وسلم)
 ١٦٢ : ١١
 حميد بن عبد الرحمن الحمدي ١٧٤ : ١٢
 حنيفة بن لجيم ١٦٨ : ٩
 حبال (أخو طليحة بن خويلد الأسدي)
 ١٦٩ : ١٤
 أبو حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي
 ٢٠٢ : ١٨
 (خ)
 خالد بن سعيد بن العاص ١٦٤ : ٨ ،
 ١٦٨ : ١٦
 خالد بن الوليد ١٦٤ : ٦ ، ١٦٨ : ١٠ ،
 ١٦٩ : ١٦ ، ١٨١ : ٢١
 الخزاعي ٢٠٤ : ٢
 الخزرجي (صاحب كتاب تذهيب التهذيب)
 ٢٠٤ : ١٦
 ابن الخطاب = عمر بن الخطاب
 (د)
 دسالين ٣٠ : ١٥
 (ذ)
 الذهبي (صاحب كتاب المشته) ٢٠٤ : ١٩
 (ر)
 الرازي ١٦٢ : ٦
 الراغب ٢٠٩ : ٢١
 رالف والد أمرسن ٤٧ : ١٢
 الرافي ١٦٢ : ٧

بوذا ١٨٤ : ٢٠
 بوذول ١٨٩ : ١٤
 بوكروشنجتون ٦٥ - ٨٤
 بولتز ٥٢ : ٣
 بولين ١٥٨ : ١٧
 (ت)
 تغلب ١٦٩ : ٢٠
 تود ١٥٢ : ١٦
 توسان الفاتح ١٨ - ٣٠
 توماس كارليل = كارليل
 التيمى ١٩٠ : ١٠
 تيوسيديد ١٨٣ : ١١
 (ث)
 ثعلب ٢٠٦ : ٢٠
 أبو ثمامة = مسيلمة بن حبيب
 ثورتون بترورث ٣١ : ١٧
 (ج)
 الجاحظ ١٧٠ : ١ ، ١٧١ : ١١
 جارسون ١٩ : ٦
 جان دارك ١٩ : ٦
 الجرجاني ١٦٢ : ٧
 ابن جرير (المؤرخ) ١٧٧ : ٢
 جلادستون ١٨٩ : ١٣
 جوزفين ١٥٨ : ١٧
 ابن الجوزي ٢٠٠ : ٢١
 جولسون ١٨٩ : ١٤
 جون ٦٩ : ١٥
 جيوفاني بايني ١٥٨ : ٢
 (ح)
 الحاكم الفرنسي ٢٣ : ١٦ ، ٢٤ : ٢
 ابن أبي الحديد (صاحب شرح نهج البلاغة)
 ٢٠٤ : ١٨ ، ٢١٢ : ٢٦

ابن رشد ٧ : ١٦٢
 الرمانى ٧ : ١٦٢
 رفيق بك العظم ١٩ : ١٦٩
 أبو رواحة ١٨ : ١٩٢
 روبرت ييل ١٣ : ٢٧
 روفتر (مسز) ١١ : ٧٧
 رون (الجنرال) = فون رون الجنرال
 رينان ١٣ : ١٨٩
 (ز)
 الزبير بن العوام ٢ : ١٧٥ ، ١٣ : ١٦٢
 الزنجشري ٦ : ١٦٢
 أم زمل سلمى بنت مالك ١٧ : ١٦٩
 زوجة أبي بكر ٢ : ١٨٦
 زياد بن أبيه ٢٥ : ٢٠٣
 زيد بن أسلم ١٠ : ١٩٦
 (س)
 سجاح بنت الحارث ٥ : ١٧٠ ، ١ : ١٦٩
 ابن سعد ٨ : ١٩٩ ، ٩ : ١٨٥
 سعد بن عبادة ١٢ : ١٧٤
 سعد بن أبي وقاص ٤ : ١٨١
 أبو سفيان بن حرب ١ : ٢٠١
 سقراط ٦ : ١٩
 سكريز ١ : ٤٩
 سهيل بن عمر بن الحارث ١ : ٢٠١
 سوفكليس ١٠ : ١٨٣
 سويد بن مقرن ٨ : ١٦٤
 ابن سيرين ٧ : ١٩٠
 السيوطي ٧ : ١٩٩
 (ش)
 شبت بن ربي الرياحي ١٣ : ١٧٠
 شرحبيل بن حسنة ٧ : ١٦٤

شرحبيل بن يعقوب الخزرجي ٢ : ٢١٥
 ابن شميل ١٩ : ٢٠٦
 شيخ صحافة الأمريكان = نور تكليف
 (اللورد)
 (ص)
 أبو صالح الغفاري ٥ : ١٧٧
 صامول انجرصل الأمريكي ١٨ : ٩٢
 صمويل كروثر ٢٠ : ٨٨
 صعصعة بن صوحان ١٠ : ١٩٣
 صفية بنت عبد المطلب ١٠ : ١٦٢
 صهيب ٢ : ٢٠١
 (ط)
 أبو طالب ٤ : ٢٠٥
 الطبري ١١٦ : ٧ ، ١٦٤ : ١٠ ،
 ١٦٥ : ٤ ، ١٦٩ : ١٦ ، ١٧٣ :
 ١٨ ، ١٨٠ : ٣ ، ١٨٧ : ٣ ، ١٩١ :
 ١٣ ، ١٩٢ : ١ ، ١٩٦ : ١٠ ،
 ٣ : ٢٠٢
 طريفة بن حاجر ٨ : ١٦٤
 طلحة بن عبيد الله ٣ : ١٨٧
 طليحة بن خويلد الأسدي ٨ : ١٦٨
 ١٦ : ١٦٩
 (ع)
 عاصم بن عدى ٤ : ١٦٦
 عائشة (أم المؤمنين) ٤ : ١٧٤ ،
 ١٧ : ١٧٨
 العباداني ٧ : ٢٠٣
 عباد بن حصين الحيطي ٢٣ : ٢٠٣
 ابن عباس (عبد الله) ٣ : ٢٠٢ ، ٤ : ٢٠٠
 عبد الرحمن بن عوف ٦ : ١٨٧ ، ٢٠ : ١٦٥
 أبو عبد الله = عثمان بن عفان

عمر بن الخطاب ١٦٤ : ١٩ ، ١٦٧ :

٤ ، ١٧٤ : ٣ ، ١٧٥ ، ١ : ١٧٧ :

٦ ، ١٧٩ : ١٧ ، ١٨٠ ، ٤ : ١٨١ :

٤ ، ١٨٢ : ٢ ، ١٨٣ — ٢١٥

عمر بن عبد العزيز ١٥٠ : ١٥

عمرو بن حزم ١٦٨ : ١٥

عمرو بن العاص ١٦٤ : ٨ ،

١٩١ : ١٩ ، ١٩٣ : ٤

عمرو بن معديكرب ١٦٤ : ٢٢

العنسى = الأسود العنسى

عيسى بن دأب أبو النفاح ٢٠٤ : ٢

(ف)

فاطمة ٢٠٨ : ٢

فرانك ولورث ٥٤ — ٦٤

أبو الفرج بن الجوزي ١٩٠ : ٦

فردريك الأكبر ١٧٥ : ١٣ ،

١٨٩ : ١٤

فردريك وليم الرابع ملك بروسيا

٦ : ٢٠ ، ١٠ : ٢١

فوربس ٥٦ : ١٣

فورد = هنري فورد

فون جولاخ ١٠ : ١

فون رون (الجنرال) ١١ : ١٣ ، ١٧ : ٧

فيروز الديلمي ١٦٨ : ٢١

(ق)

القاضي عياض ١٦١ : ٤

ابن قتيبة ١٦٤ : ١٢ ، ١٦٨ : ١٥

قرط بن رزاح بن عدى ١٨٩ : ٣

قيس بن رفاع ٨٧ : ١٩

قيس بن عبد يغوث ١٦٨ : ١٨

قيصر ٢٠٣ : ١٧ ، ٢١٠ : ١١

القيصر (ملك روسيا) ١١ : ٤

عبد الله بن رواحة ١٦٣ : ٤

عبد الله بن عباس ١٩٩ : ١٧

عبد الله بن أبي قحافة = أبو بكر الصديق

عبد بن كعب = الأسود العنسى

بو عبدة ١٨٥ : ١٣ ، ٢٠٤ : ٣ ، ٢٠٥ :

١ ، ٢٠٩ : ١٤ ، ٢١٢ : ٥ ، ٢١٣ :

١٥ ، ٢١٥ : ٩

عتاب بن أسيد ١٨١ : ١٧

عتبة بن أبي ربيعة ١٥٩ : ١٨ ، ١٦٠ : ١

عثمان بن أبي العاصي ١٨١ : ٢٠

عثمان بن عفان ١٨٦ : ٢١ ، ١٨٧ : ١ ،

٢٠٠ : ١٥ ، ٢١٢ : ١٦

عدى بن حاتم ١٥٨ : ٧

بن العربي (صاحب كتاب محاضرة الأبرار)

٢٠٤ : ٢١

عرفجة بن هرثة ١٦٤ : ٨

عز الدين الجزري ١٩٤ : ١٠

العزي بن رباح ١٨٩ : ٢

بن عساكر ١٧٧ : ٥ ، ١٩٥ : ٣

العسكري ١٦٢ : ٧ ، ١٩٩ : ٨

عطاء ١٨٥ : ٩

عقيل زياد الخزرجي ٢١٥ : ٢

عكرمة بن أبي جهل ١٦٤ : ١١ ،

١٦٤ : ٧

العلاء بن الحضرمي ١٦٤ : ٨

علي بن أبي طالب ١٧٥ : ٢ ، ٢٠٢ :

١ ، ٢٠٣ : ٢ ، ٢٠٤ : ٥ ، ٢٠٥ :

٣ ، ٢٠٨ : ٢ ، ٢٠٩ : ١٦ ، ٢١٠ :

١٥ ، ٢١٢ : ٦ ، ٢١٣ : ٣ ، ٢١٤ :

١ ، ٢١٥ : ٣

عمدة وترويت ٩٧ : ١٨

ال عمران ١٥٠ : ١٤

(ك)

كارليل ٢٢ : ١٢ ، ٢٣ : ٣ : ١٥٩ :
٦ : ١٦١ : ١ : ١٦٣ : ٦ : ١٧٦ :
١٥ : ١٨٣ : ٢ : ١٨٩ : ١٤ :
كاس جلبرت ٦٤ : ١٠ :
كرتس ٥٠ : ١٠ :
كرستوف = كولومبس
كروبوكتن ٢٢ : ١٢ ، ٢٣ : ٣ :
كسرى ٢٠٣ : ١٧ ، ٢١٠ : ١٠ :
كعب بن لؤى ١٨٩ : ٤ :
كولومبس مكتشف أميركا ١٩ : ١٢ :
٣٠ : ٦ :

كونفشيوس ١٨٤ : ٢٠ :

(ل)

لدوج = أميل لدوج
لسكلرك (الجنرال) ٢٨ : ٢٩ ، ٥ :
١ : ٣٠ ، ٣ :

لمبروزو ١٩٦ : ٩ :

لوجان المحامي ١٤٢ : ٥ :

لونجفلو الشاعر ٤٧ : ١١ ، ١٢٢ : ٨ :

لويز زوفير ٧٦ : ١١ :

لويز ستيفنسون ١٩ : ٦ :

ليفومور ٥٢ : ١٦ :

ليوبولد البروسي (البرنس) ١٦ : ١٥ :

(م)

مازي ١٤٢ : ٩ :

ماري ماركى ٧٩ : ٢ :

مالك بن عوف ١٨١ : ١٩ :

محمد (صلى الله عليه وسلم) ١٥٩ : ١٣ ،

١٦٠ : ١٦ ، ١٦١ : ٣ : ١٦٢ :

١٢ : ١٦٣ : ١١ ، ١٦٥ : ١٦ ،

١٦٦ : ١ : ١٦٧ ، ١٤ : ١٦٨ :

١٧ ، ١٧٠ : ١٤ ، ١٧١ : ١٤ ،

١٧٣ : ٤ : ١٧٤ ، ١ : ١٧٥ : ٩ ،

١٧٦ : ٢١ : ١٧٨ ، ٧ : ١٧٩ :

١٨١ : ٨ : ١٨٣ ، ٩ : ١٨٦ ، ١٢ :

١٨٨ : ١١ : ١٩٣ ، ٦ : ٢٠٠ ، ٧ :

٢٠٣ : ٥ : ٢٠٤ ، ١٠ : ٢٠٥ ، ٩ :

١١ : ٢٠٦ : ٢٥ ، ٢٠٧ : ٤ ،

٢٠٨ : ١ : ٢١٠ ، ٥ : ٢١١ : ١٠ ،

٢١٢ : ١٣ : ٢١٣ ، ٤ : ٢١٤ : ١٨ ،

٢١٥ : ٥ :

محمد بن فليح ٢٠٤ : ٢ :

محمد بن مسلمة (صحابي) ١٩١ : ١١ :

أبو محمد المهلبى الوزير ٢٠٣ : ٥ : ٢٠٤ : ١ :

مرة بن كعب ٢٠٣ : ١٠ :

المسعودى ١٩٩ : ١٧ :

المسيح عليه السلام ١٥٨ : ١٤ ،

١٨٩ : ١٢ :

مسلمة بن حبيب ١٦٤ : ١٢ : ١٦٨ : ٧ :

١٦٩ : ٩ : ١٧٠ : ٢ :

معاوية بن أبى سفيان ١٦٩ : ٢٣ ،

١٩٣ : ١١ : ٢١٢ : ١٦ :

معاوية بن قره ١٩٠ : ٣ :

ملتكى ١٧ : ٧ :

المهاجر بن أبى أمية ١٦٤ : ٧ :

المهدى ١٦٤ : ٢٣ :

المهلبى = أبو محمد

مور ٦٣ : ١٤ ، ٦٤ : ١ :

مورلى ١٨٩ : ١٣ :

أبو موسى الأشعرى ١٩٢ : ١٥ :

موسى بن عمران عليه السلام ١٧٣ : ٢١ :

أبو ميسرة ٢٠٤ : ٢ :

هيروت ١٨٣ : ١١	ميمون بن الحضرمي ١٦٤ : ١٧
(و)	ميمون بن مهران ١٧٧ : ٩
الواسطي ١٦٢ : ٧	ميور ١٦١ : ١٩٧ ، ٤ : ١٩
وبستر ٧١ : ١٧	(ث)
وردسورت الشاعر الانجليزي ١٩ : ٣	نابليون بونابرت ١ : ٣ ، ٢ : ١٥ ،
ابن الوردى ١٦٨ : ٢٦ ، ١٦٩ : ٢٤	٨ : ٦ ، ٢٠ : ٢٤ ، ١٨ : ٦
الوزير الحديدي = بسمارك	٢٥ : ٢٦ ، ٢ : ٢٧ ، ١٤ : ٦
وشنطجن ١٤٨ : ١٢	٢٨ : ٢٩ ، ٤ : ٣٠ ، ٣ : ٢٠
ولز ١٥٧ : ١	٨٧ : ١٤ ، ١٥٨ : ١٦ ، ١٦٥ : ١١
ولسن ٢٠ : ١٠	١٨٠ : ١٤ ، ١٨٩ : ١٤
ابو الوليد = عتبة بن أبي ربيعة	نابليون الثالث ٩ : ١٦
وليم ٤٩ : ١٣	نقيل بن عبد العزى ١٨٩ : ٢
وليم الأول ١٧ : ١٢	نورثكليف (اللورد) ٣١ : ٣٢ ، ١٨ : ٣
وليم (البرنس) ١١ : ١	النوى ١٩٩ : ٨
وليم سكوت ١٥٣ : ١٤	(ه)
وليم سيوارد ١٤٩ : ٣	هاردنج ١٢٢ : ٣
(ى)	الهرمزان ٢٠٢ : ١٣
يوحنا ٦ : ١٠	أبو هريرة ١٧٣ : ١٨
يوسف (أخو نابليون) ١٥٨ : ١٧	هند ١٦٢ : ١١
يوسنا سبيد ١٤٠ : ٤	هنرى فورد ٨٥ - ١٢٩



أسماء الأماكن

البحرين ٢٨ : ٢٠٣	(١)
بدر ٣ : ٢٠٠	أبطح مكة ١٨ : ١٦٤
برج إيغل ١١ : ٦٤	أتينا ٩ : ١٨٣
البرلمان الألماني ٥ : ٨	أسافا ١٩ : ١٦٤
برلين ٦ : ١٠ ، ١٠ : ٧ ، ١٣ : ٣	أسبانيا ٤ : ٢٧ ، ١٥ : ٢٦ ، ١٥ : ١٦
برنبرغ ٦ : ٨	الأردن ١٥ : ١٦٤
بروسيا ١٠ : ١١ ، ١١ : ٩ ، ٢ : ٨ ، ١ : ٧	إفريقية ١٣ : ٢٠
١٠ : ١٥ ، ١٦ : ١٤ ، ٦	إفريقية الشرقية ٢ : ٦
بروكلن ٤ : ٤٦ ، ٣ : ٣٨ ، ١٢ : ٣٤	ألينوا ٢ : ١٤٥
٥ : ٤٨ ، ١٤ : ٤٧	أميركا ٢ : ١٢٥ ، ١٩ : ٩٦ ، ١٢ : ١٩
البصرة ٢٤ : ٢٠٣ ، ٢٤ : ١٦٩	ألمانيا ١٠ : ١٦ ، ١٩ : ١٥ ، ٨ : ١٠
بطرسبورج ٣ : ١١	١٩ : ١٨٤ ، ١٤ : ١٧٥ ، ١ : ١٧
بغداد ١٩ : ٢٠	الأنبار ١٧ : ١٦٨
بلاد العرب ١٩ : ١٨٤	انتردن لندن ٧ : ١٢
بلالان ٢٦ : ٢٠٣	انجلترا ١٩ : ١٨٤ ، ١٤ : ٥٥ ، ١٢ : ١٦
بلجيكا ١١ : ١٦	الأنديانا ٦ : ١٣٥
البندقية ١ : ٧ ، ٢٠ : ٦	الأهواز ٧ : ١٩٢
بندالكبرى ١ : ٥٧ ، ٢١ : ٥٦	أهيو ٧ : ٧٢
بنسلفانيا ٣ : ٦٤	أوربا ١٠ : ١٠
بن نفس ١٠ : ١١٠	أيرتون ٢٠ : ١١٨
بوتسدام ١٠ : ٤	إيطاليا ٧ : ١٥ ، ٢٠ : ٦
بوسن ٩ : ٤٧	(ب)
بولاق ١٦ : ٢٠٤	باريس ١١ : ١٦ ، ٩ : ١٢ : ٥ ، ١٣ : ٢
بولونيا ١٧ : ١٤	١٠ : ١٢ ، ١٤ : ٢٠ ، ٢٠ : ٢٠ ، ٢٢ : ١٨ ،
بثرميون ١٨ : ١٦٤	٢٣ : ٢٥ ، ٢٠ : ٢٧ ، ١٧ : ٢٨ ،
(ت)	٣ : ١١ : ٦٤
تبوك ١٥ : ٢١٢	الباثيون ١١ : ٣٠
تسكيحي ١٥ : ٧٥	البحر الملح ٢٧ : ٢٠٣

رودمان ١٠ : ٥٨ ، ١٠ : ٥٦	تورتو ٢٠ : ١٥٦
روسيا ١٤ : ١٤ ، ١٤ : ١٢ ، ٣ : ١١	توليدو ٢٠ : ١١٨
رومانيا ١١ : ٢٠١	تياس ١٩ : ١٦٤
(ز)	(ج)
زيادان ٢٦ : ٢٠٣	جامعة جوتنجن ١٤ : ٣
(س)	جامعة هارفرد ١٨ : ٧٨
سبرنجفيلد ٦ : ١٤٢ ، ٢ : ١٤٠ ، ٥ : ١٣٩	جبل الأهواز ٧ : ١٩٢
سدبوري ٧ : ١٢١	جزيرة هايتي ٩ : ١٩
السقيفة ١٧٥ : ١٣ ، ١٧٣ : ٢٠ ، ٢٠٢ : ٩	جلن كوت ٦ : ٦٤
سقيفة ابن ساعدة ١١ : ١٧٤	جمعية السلام بنيويورك ١٦ : ٥٢
سويسرا ١٩ : ٦	جنابة فارس ٢٨ : ٢٠٣
سيراف ٢٨ : ٢٠٣	جوتنجن ٣٠ : ٢٠٣ ، ١٤ : ٣
(ش)	جورجيا ٢ : ١٤٦
الشام ١٧ : ٢١٢ ، ١٣ : ١٦٤	جوكس ١٢ : ٣٠
شركة الأتوموبيلات ٧ : ١٠٣	(ح)
شركة أديسين ١٠ : ٩٩ ، ١٩ : ٩٤	حرّة ١١ : ١٩٦
شركة فورد للسيارات ١٠ : ١٠٧ ، ٤ : ١٠٥	حص ١٨ : ١٩٩
(ص)	(د)
صرار ١١ : ١٩٦	دار التلغراف ٤٥ : ٩ ، ٤٢ : ١٩ ، ٤٠ : ٤٥
صنماء ١٦ : ١٦٨	١٦ : ٤٧ ، ١٨
(ط)	دار الدقيق ٩ : ١٩٩ ، ١٩ : ١٩٦
الطائف ١٦ : ٢٠٣	دار سكريبز ١ : ٤٩
(ع)	دار الكتب المصرية ٢٥ : ٢٠٤ ، ١٩ : ٨٧
عبادان ٢٣ : ٢٠٣	دارين ١٩ : ١٦٤
عبد اللبان ٢٦ : ٢٠٣	دترويت ٦ : ١٠٧ ، ١٢ : ٩٧ ، ١٣ : ٩٠
عمواس ١٣ : ١٦٤	دجلة ٢٧ : ٢٠٣
(ف)	الدنمارك ٦ : ١٥
فارس ١١ : ٢١٠ ، ١٩ : ١٦٤	دوقية شلزوك ٥ : ١٥
فرجينيا ١٨ : ٦٨	دوقية هيلستون ٦ : ١٥
	ديا ١٦ : ١٦٤
	ديربورن ١٤ : ٨٩
	(ر)
	رتشمند ٣ : ٧٧

مصنع الفورديت ١٣ : ١٠٧	فرنسا ١٥ : ٥ : ١٤ : ١٠ : ١١ : ١٤ : ٥
مصنع وستنجهوت ١ : ٩٤	٢٣ : ٤ : ٢٠ : ٢ : ١٧ : ١ : ١٦ : ٨
مطبعة الحلبي ١٨ : ٢٠٤	٥ : ٢٧ : ١ : ٢٦ : ١١ : ٢٥ : ١٠
مطبعة السعادة ٢١ : ٢٠٤	١٩ : ١٨٤ : ٢ : ٣٠ : ١٨ : ٢٩
مطبعة هينان ٢٠ : ٨٨	فرنكفورت ٢ : ١٠ : ١٩ : ٩ : ١٩ : ٨
معاهد بوكر ٢ : ٨٤	١٠ : ١٥ : ٢ : ١١
معمل رفر روج ٧ : ١٠٧	فيلادلفيا ٥ : ٥١ : ١٠ : ٥٠
معمل هيلندبارك ٥ : ١٠٧	(ق)
مقاطعة فرانكلين بفرجينيا ١٨ : ٦٨	قلعة فورت سميتر ١١ : ١٤٩
مقاطعة متشيجان ١٢ : ٨٩	(ك)
مكة ٢ : ٢٠٤ ، ١٦ : ٢٠٣ ، ١٦ : ١٨٩	كناوها ١ : ٧٥
ممالك الاتحاد الألماني ٤ : ٩	كتكي ٢٠ : ١٣٤
منشستر ١٤ : ١١٠	(ل)
مهرة ١٦ : ١٦٤	لودي ١٤ : ١٨٠
(ن)	(م)
نجران ١٥ : ١٦٨	ماساشوزيتس ٨ : ١٢١
النمسا ٥ : ١٤ ، ١١ : ١١ : ٤ : ٩	مالدن ١٥ : ٧٦ ، ٦ : ٧٢
٦ : ١٥ ، ١٦ : ١٤	مجلس الاتحاد الألماني ١٩ : ٨
نياجارا ١ : ١٠٥	مجلس النواب الألماني ١٧ : ١٣ ، ١٣ : ٨
نيويورك ٥ : ١٤ ، ١٧ : ٥٢ ، ٢١ : ٤٨	٩ : ١٧
١٢ : ٦٣ ، ٧ : ٥٨ ، ١ : ٥٧ ، ١٠ : ٥٦	المحرزي ٢٧ : ٢٠٣
النهرين ٢٩ : ٢٠٣	محكمة الولايات المتحدة ٥ : ١٤٣
(هـ)	المحيط الأتلنטיكي ٩ : ١٩
هافرد ١٨ : ٧٨	مخزن بنيو سالم ١٠ : ١٣٧
هامبتون ١٥ : ٧٥	مدرسة بروكلن ١٢ : ٣٤
هايتي ١ : ٢٣ ، ١٣ : ٢٢ ، ١١ : ٢٠	مدرسة هميتون ١٣ : ٧٦
٩ : ٢٩ ، ٣ : ٢٨ ، ١١ : ٢٥	المدينة ١٤ : ٢٠٣ ، ٥ : ١٩٨ ، ١٤ : ١٦٩
هالدر الهولندية ٨ : ٣٤	مسجد الكوفة ١٩ : ٢١٢
همبتن ٢ : ٨٢ ، ٢٠ : ٧٩	مسوري ٢ : ١٥٠
همبتون ١ : ٧٩ ، ٨ : ٧٧ ، ١٣ : ٧٦	مشارف الشام ٢٣ : ١٦٤
الهند الغربية ٩ : ١٩	مصر ١٣ : ١٦٤
	مصنع الساعات ١٩ : ٩٢

٥٢ : ١٣ ، ٥٥ : ١٤ ، ٨٩ : ١٥ ،
٩٦ : ١٩ ، ١٣٤ : ٢٠ ، ١٤٨ : ١٧

(ى)

يايل ٧٨ : ١٨
يتكا ٦٣ : ١٢ ، ٧٨ : ١١
اليرموك ١٦٤ : ١١
اليمامة ١٦٤ : ١٢

هولندة ٣٤ : ٩

هيلندبارك ١٠٧ : ٥

(و)

واترتون ٥٨ : ٧

وترويت ١١٨ : ١٠

الولايات الجنوبية ١٤٩ : ١١

الولايات المتحدة ٤٦ : ٤ ، ٥٢ : ١٣



أسماء الكتب

(ع)	(ا)
العقد الفريد ١٩٠ : ١٤	الأبطال وعبادة البطولة لكارليل ١٥٩ : ٦
(ف)	أساس البلاغة للزخشرى ٢١٤ : ٢١
فلسفى فى الصناعة ١٢٣ : ٤	أسد الغابة ١٩٤ : ١٠
(ك)	أشهر مشاهير الاسلام لرفيق بك المظم
كتاب التهجئة لوبستر ٧١ : ١٧	١٦٩ : ١٩ ، ١٩٠ : ٦
كتاب حياتى وعملى ٨٨ : ١٩	الأمالى لأبى على القالى ٨٧ : ١٩ ، ٢١ : ٤١ ، ٢٢ : ١٠١
كتاب لنكونن لأميل لدوج ١٤٢ : ٢١	(ت)
كتاب هبواتا ٤٧ : ١٠	تاج العروس = شرح القاموس
كتر العمال ١٩٥ : ١٦	تاريخ الطبرى ١٩٢ : ١ ، ١٩٧ : ١٣
كيف أصحح أدوار بوك أمريكيا ٥٢ : ٢	تاريخ ابن عساكر ١٩٥ : ٣
(ل)	تاريخ ابن الوردى ١٦٨ : ٢٦ ، ١٦٩ : ٢٤
لسان العرب لابن منظور ٢٠٦ : ١٧ ، ٢٢ : ٢١٠	تاريخ لنكونن ١٤٦ : ٢٠
(م)	(ث)
مجلة بروكلن ٤٧ : ١٣ ، ٤٨ : ٥	ثلاثون وثلاثون ٥٢ : ٧
مجلة السيدات المنزلية ٥٠ : ١٠	(ح)
محاضرة الأبرار لابن العربى ٢٠٤ : ٢١	الحيوان للجاحظ ١٧٠ : ١
مروج الذهب (للمعودى) ١٩٩ : ١٧	(خ)
المشتبه فى أسماء الرجال (للذهبي) ٢٠٤ : ١٨	خلاصة تذهيب التهذيب للخزرجى ٢٠٤ : ١٦
المصباح المنير ٢٠٦ : ٢٠	(ر)
المعارف لابن قتيبة ١٦٤ : ١٢	الرجال الذين بهم حياة أميركا ٥٦ : ١٣
معجم البلدان لياقوت ٢٠٣ : ٣٠	(ش)
المناقب لأبى الفرج بن الجوزى ١٩٠ : ٦ ، ١٩٧ : ١٣	شخصان ٥٢ : ٨
(ن)	شرح القاضى عياض ١٦١ : ٤
نهاية الأرب للنويرى ٢٠٤ : ٢٤ ، ٢٠٥ : ٢١ ، ٢٢ : ٢٠٨	شرح القاموس ١٠٤ : ١٩ ، ٢٠٩ : ٢٠
	شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢٠٤ : ١٨ ، ٢٦٥ : ٢١٢
	(س)
	صبح الأعشى للقلقشندي ٢٠٤ : ١٦ ، ٢٠٥ : ٢١ ، ٢٠٨ : ٢٢

١٩٣١/١/٣٠٠٠/١ (مطبعة المعارف)

